تعريب
الاسقف استفانوس حداد

مختارات

من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي

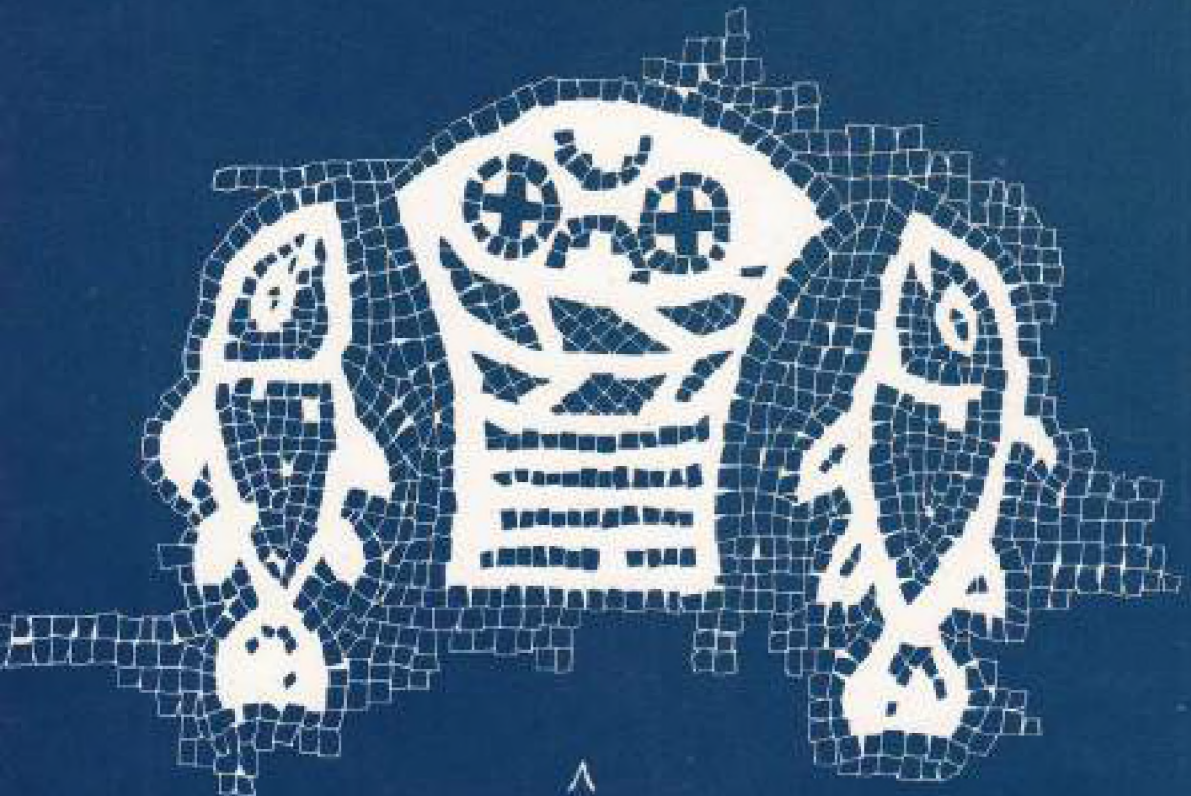

٨

آباء الكنيسة

حقوق الطبع محفوظة
لمنشورات النور

آباء الكنيسة
٨

مختارات

من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي

تعريب

الاسقف إسبيريدون خياط

منشورات النور

١٩٩٤

«آباء الكنيسة»

١ — الآباء الرسوليون

٢ — الحياة في المسيح — لنقولا كاباسيلاس

٣ — السلّم الى الله — ليوحنا السلّمي

٤ — في الكهنوت، احاديث عن الزواج، الرسائل الى اولمبيا — ليوحنا الذهبي الفم

٥ — فصول في الصلاة والحياة الزوجية — لإفاغريوس البنطي ومرقس الناسك

٦ — أقوال الآباء الشيوخ

٧ — نسكيات — لاسحق السرياني

٨ — مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي — تعريب الاسقف استفانوس حداد

المقدّمة

كلما هممتُ بأن أضع مقدمةً لهذا الكتاب، كنت أتراجع جزعاً وهيبةً، وأنا أرى أني قد جاوزت قدري باقتحام هذا الموضوع، وبالتطاول إلى هذا العملاق بين آباء الكنيسة العظام وبين الخطباء والكتبة والمثقفين في العالم. فهو، في الأصل والإجماع، لاهوتيُّ الكنيسة المسيحية، منفردٌ في هذا اللقب، بعد يوحنا الرسول كاتب الانجيل الرابع.

ولا شك أن سِمات العبقرية الطبيعية، وعلائم اللوذعية والألمعية في الفكر والقريحة، مع ما مسحته به نعمة الروح بزيت الخلود، هي ميزات أُصيلة راقية في هذا الإنسان العظيم. فكيف بهذه الميزات، وقد استنارت بنور النعمة الإلهية فجعلت حكمة العالم الخارجية جارية بين يدي الحكمة الإلهية، لا يحق لها الدخول إلى صدر المجلس والاطلاع على أسرار أسيادها كما يقول الذهبي الفم!

أجل هي نعمة الروح القدس التي بها تحيا كل نفس وتبقى مرتفعة ومتلألئة بحالٍ خفية قدسية! هي التي دخلت على الخط لتصير الفلسفة حياةً، والفكر عملاً، والخيال والأشواق والمشاعر والاتجاهات سمواً وتصعيداً وتحليقاً في الأجواء والسماوات العُلى، ولا ترى في الأرض إلا محطاً كمحط النسر على القمم الشامخة.

بالقياس والمقارنة فقط تعرف حقيقة المعنى وحقيقة الحدود التي منها تبتدىء عظمة غريغوريوس وتفوقه ومبعث الإعجاب به. المسيح والانجيل هو مثلنا الأعلى في الكمال والشمول والجمال. ومن بعد المسيح ينسلك العقد الفريد، عند الرسل المشرقين في بهاء النعمة والشهادة التي تتجلى في آثارهم، حتى خلفائهم الأبرار الغرّ الميامين، لنصل إلى جمهرة الآباء القديسين الذين جمعوا بين العلم والقداسة والشهادة، وإذا شئت فقل إن حياتهم كلها كانت عذاباً وجهاداً واستشهاداً وقداسة.

ولْندعْ، في مجال المقارنة، أمر الجهاد والاستشهاد الذي نحن مقصرون جداً في مضاميره، ولْنقايس، بالعلم والمعرفة، وهي امكانات الجميع، لنقايس بيننا نحن الفضلاء وبينهم كأساقفة ورعاة ومعلمين، لنرى البعد الشاسع والفرق الكبير. وعندئذٍ فماذا نقول

من الجامعات ومتخرجيها؟! اين نحن من سمو المحتوى، ومن غور العمق الذي لا يُسبر لعلم الآباء ومعرفتهم وإنتاجهم! أرى أننا لا نبالغ اذا قلنا مع المثل العام اننا نقطة في بحر!

لنقرأ هذه المختارات من ادب غريغوريوس النزينزي الواسع الخصيب! لنقرأ ونتأمل حتى تأخذنا المفاجآت والعجب مما يولّد من المعاني والفكر يكتشفها من معادنها ومن حيث لا تدري، ونرى مع فيض الخاطر، وإعمال الفكر في تدفق المعاني وتساوقها، رصانة التعبير، وقوة الحجة، وجزالة الإنشاء وفخامته وبلاغته، وايراد الآيات، وسوق الشواهد والأدلة سهلةً طيّعة بين يديه، وتنسل على قلمه انسلالاً متلاحقاً متعاقباً كحبات عقد فريد منها القليل مما يعلمه ويلم به اكابر كتابنا واساتذتنا، ومنها الكثير مما لا يعرفونه، وهم في عثرة العلم وصحبة الكتاب المقدس دائماً.

اقرأ «الرسالة السلامية» (التي انشأها بعد النزاع الطويل المرير بين الآريوسية المبتدعة والكنيسة الجامعة) ومقالتيه الصريحتين في «المعمودية» و«المعمودية والمعمدون» وانت تحسب أنه مما هو مألوف ومعروف، ولكنه، في الحقيقة امر عظيم من النهج والبحث..

اقرأ «الميلاد» و«الظهور الالهي»، وخصوصاً «اللاهوتي» و«الفيلسوف آرون» نصير المسيحية وشهيدها، وعلى «هامش الانجيل» في شوارده وفوائده.

وأخيراً، لا آخراً، اقرأ باستمتاع الخطابين المطولين الموجّهين الى الملك جوليان (يوليانس) الجاحد، ولعلهما اكثر شيء جدة واهمية في هذه المختارات. اقرأ، وأنت اذن شاهدٌ لموقف بطلٍ صنديد لا تلين قناته، (هذا بعد ان تكون قد اطلعت على النبذة التاريخية وتمليت الموضوع تماماً). اقرأ وتأمل وقدر الموقف: في قوة الهجوم وقوة الدفاع، فستكون شاهداً لما يعز نظيره في التاريخ من موقف البطولة والتحدي والتصدي والنصر من بطلٍ قديس يصارع أقوى وأعند سلطة عاتية شاملة... إقرأ وستكون فرحاً متحمساً متهللاً ظافراً مع قائد حملة الفكر والقلم ضد الملك جوليان في طغيانه وغطرسته وادعائه واحلامه ومخططاته الجهنمية الواسعة.

اقرأ وافرح، وليفرح كل مسيحي، وكل مؤمن، فرحة الغلبة على مَن اراد ان يقصم الديانة ويعيد الوثنية محلها، ويقتلع كنيسة المسيح فاجتثّ. ذلك موقف أو فصلٌ تاريخي مصيري خطير ودقيق، كان الغالب فيه يسوع المسيح، والمسيح يعلن دائماً بتصميمه وتدبيره وتقديره وحكمته. وقد اعترف جوليان الملك بهذه الغلبة النهائية حين أخذ براحتيه من دمه المتفجر ورشه في الفضاء قائلاً كلمته المشهورة: «ايها الناصري لقد

غليتي، وهلك ومات[1]. كما انه يجب علينا التذكير اننا هنا، في موضع الاعتزاز المسيحي العام، واستنفار المسيحية جمعاء لتحقيق عزة الايمان ونصرته، والثبات على العقيدة المسيحية المتينة والرسوخ في ارضها مهما طغى سلطان الشر والكفر والاستهتار ومعاداة الالحاد والمبادىء الهدامة، اذ لنا عبرة وتبصرة فيما جرى فنقول مع النبي والمرنم: «معنا هو الله فاعلموا ايها الوثنيون وانهزموا لأن الله معنا».

وآخراً بعد الأخير هلم اقرأ بتأمل خطاب الاستعفاء من العرش الخطاب المؤلّـد على الغالب، مجرد سماعه، مثل صدمة نفسية بعنوانه وتوقعه وهذا الخطاب اهم واكبر وثيقة آبائية في مثل هذا الموقف والموضوع، انك، وانت متأثر حتى الدموع، معجبٌ بهذا الخطاب في نصه ومعانيه واهدافه، وواجدٌ بالتالي التبرير المقنع والارتياح الى تلك النتيجة الآسية والمريعة معاً، وعما كان لآباء المجمع المسكوني والملك الذين قبلوا الاستعفاء واعفوه بسلام.

واولاً وآخراً ارجو الله ان اكون قد وفقت بما اقدم للمؤمنين من زاد الحياة الروحية في هذا الكتاب مترجياً ادعية المؤمنين القارئين، ورحمةً من لدن الله ومثوبةً من عنده تعالى.

الأسقف استفانوس (حداد)

غزة آب سنة ١٩٩٠

---

(١) لا بأس ان نذكر ونتذكر دائماً ان من رشقه بالحربة القاتلة، في أتون الآراء حول مقتله وهلاكه، انما هو جندي عربي مسيحي من بني طي السمهريين حسبما ورد في تاريخ كنيسة انطاكية للمعرب.

الرسالة السلامية الأولى[1]

للقديس غريغوريوس اللاهوتي النزينزي

ان رغبتكم الى أن أتكلم، تحل عقدة لساني، واحتقر أعراف العالم من أجل ناموس الروح، وأتكلم عن السلام بحسب الوقت المناسب. حين ثار الأعداء ضدنا، وكان جسم المسيح يتقطع وينفصل عن بعضه حتى انتثرت عظامنا حول الجحيم كما تنثر فلقات الأرض أمام الحراث، وحين جعل الشيطان الثوب المنسوج والقميص المنقسم ملكاً كلياً له، واستطاع أن يفعل بنا ما لم يتمكن ان يجر الى فعله أولئك الذين صلبوا المسيح أنفسهم، حينذاك جعلت حارساً لفمي وباباً حصيناً على شفتي» (مز ٣٨: ٢). أجل جعلت باباً حصيناً على شفتي اللتين لم تكونا متهيئتين للكلام، لأني أقدّر أن النتائج الروحية تتطلب أولاً تنقية ذاتي بالفلسفة والعمل، وذلك لكي افتح فم عقلي ولأستقبل الروح، ولأعظ بالخير، وأكرز «بحكمة الله الكاملة للكاملين» (كو ١، ٢: ٦). وكما ان كل شيء، صغيراً كان أم كبيراً، له وقته حسب قول الحكيم سليمان (جا ٣: ١)، فاني عرفت أنا أيضاً أن للتكلم وللصمت ولأي شيء الوقت المناسب.

لذلك اخرست ساكتاً (مز ٣٨: ٣) وتوقفت عن كل عمل، وشعرت أن غيمة مرت في قلبي، وحجبت عني شعاع الكلمة، وأحييت عنائي نهاراً وليلاً. وكان كل شيء يعرمرني ويذكرني بالإخوة (الرهبان) الذين كنت عائشاً معهم، وانفصالي عنهم[2]، يذكرني بسهرات الصلاة، والأصوام والركوع والدموع، وتخشنات الركب (من طول الركوع) وقرع الصدور، والتنهد الذي كان يصعد من أعماق النفس، وتقطيع الليل بالوقوف على الأقدام، وتحرر العقل بالله، والنواح الهادىء في الطلبات، الذي كان دوماً

---

(١) هذه الرسالة أنشئت في استقرار السلام، بعد المنازعات العنيفة مع الآريوسيين وسواهم.
(٢) يتأسف على أيام الترهب، وكيف انفصل عن الأخوة الرهبان ليصير اسقفاً.

تخشع لمن يسمعونه. أتذكر المرتلين المسبحين الممجدين، ومَن في ناموس الرب هذيذهم نهاراً وليلاً (مز ١: ٢) والمرتلين والمنشدين عظمة الخالق، والمعلنين جمال الحياة بالله. أتذكر الواعظين الصامتين يعظون الناظرين بشعورهم السابلة وأقدامهم العارية، وهندامهم المحتشم. أجل يعظونهم بالنطاق الذي يزين من لا زينة له برفعه الثوب قليلاً كأنه لا يمسك به، كما يعظون بالخطوة الثابتة، وبالعين التي لا تضيع هنا وهناك، وبالابتسامة الوديعة، أو بالأحرى الرغبة في الابتسام التي تجعل القهقهات خجلى، يعظون بالكلمة التي تتحرك بكلمة الصمت، وهي أثمنُ من كل كلمة، وبالمديح المعتدل الذي لا يقال للمجاملة بل ليقود الى ما هو أفضل، وبالتوبيخ المفضل على المدائح، والحزن الرصين مع الشكر وتمازج الاثنين، والبساطة في الشجاعة، وتمازج القسوة مع المسامحة بحيث لا تسيء القسوة الى المسامحة ويبقيان متوازيين، ويتفاعلان من أجل السماء والبناء، والاعتدال في الاختلاط بالعالم والابتعاد عنه: بالأول يُستهدف تثقيف الآخرين وبالثاني يُستهدف العيش السري في الروح كالغنى في الفقر، وضبط النفس في الاختلاط بالعالم، والمجد في الإهانة، والقدرة في الضعف، والحصول على أولاد صالحين مع عدم الزواج (بكل تأكيد، ووفقاً لارادة الله أقول إن الأولاد المولودين بالروح هم أفضل بكثير من أولاد الجسد)، وانشراح النفس والجسد بدون لذات، عند المتواضعين الذين هم فوق السموات والذين هم في العالم إلا أنهم فوق الجسد والعالم، وأخيراً عند أولئك الفقراء من أجل الملكوت والذين يملكونه بفقرهم.

هؤلاء هم ثروتي وفخري ومتعتي. حضورهم كان يملأني فرحاً، وكنت أنكمش لغيابهم. هذه الأمور كانت تعتصر نفسي وتجعلني اضطرب. «بسببهم كنت احزن وأمشي منزعجاً» (مز ١١:٣٤). وبسببهم توقفت عن الكلام، لأنهم قد ولوني قفاهم لا وجوههم» (١ رو ٢٧:٢) وصاروا رعية مستقلة عن الراعي. والكرمة الحقيقية التي نقيت تنقية مثلى من أجل الفلاح الصالح، والتي تهيء الغلال من أجل معصرة الله تحولت عندي الى مرارة. «الآن اصدقائي ومعارفي جاوزوا ووقفوا مني بعيداً، وأقربائي وقفوا أبعد» (مز ١٢:٣٧) لأننا نحن محبي المسيح كثيراً ما تقاسمنا المسيح، وكذب الواحد منا على الآخر من أجل الحقيقة، ويسيطر البغض باسم المحبة، وتفرقنا من أجل حجر الزاوية وتزعزعنا. وذلك لأننا حاربنا من أجل السلام أكثر مما يجب.

تلك أمورٌ حادثة سابقاً، فلماذا نتعب في أيام الافراح هذه، عن هذه الأمور المستهجنة المرة، ونشغل فكرنا بالأمور المزعجة التي يجب أن نبتعد عن ذكراها المرفوضة بالتجربة؟

الصمت أفضل من الكلام لأنه يخفي في أعماقه نسيان الشر الذي أصابنا. إلا اذا كان تذكر الأمور المزعجة يؤخذ كأمثلة تثقيف يتعلم منها المرء كيف يتجنب الشر والأسباب التي دفعت اليه. والآن بعد أن ذهب الحزن والعذاب والتعب (إش ٣٥: ١٠)، وبعد أن صرنا واحداً في الواحد، ومن الأصل ذاته، وفي الكلمة الذي تأمر ابعدنا عن الغليان الى حيث الروح يدفقنا (رو ١٢: ١١) لا ضد بعضنا بل من أجل بعضنا بعضاً حتى نكون كلنا للحقيقة ونفكر ونقول الاشياء ذاتها (رو ١٢: ١٦) «وهكذا نكون مع النور وحياتنا تكون نظيفة كالنهار» (رو ١٣: ١٨) ونسلك جميعنا الطريق الصحيح فنكون جميعاً داخل الباب، ونكون لنا وداعة الحمل والراعي، وننتمي الى ذات الحظيرة والى ذات الراعي، ولا ننتمي الى راعٍ غريب يبدد الخراف، ويتركها تسقط من فوق الهاويات وتفترسها الذئاب، بل الى راعٍ حكيم وأمين. وهكذا نرغ عطف من تألم لأجلنا، ويساعد أحدنا الآخر فنحمل أثقال بعضنا، ونصير ملكاً للرأس، ونشكل جسداً واحداً، ونكون في توافق في كل علاقة روحية. «من يحول النوح الى فرح؟ ومن يعطينا الفرح بدل الحزن؟» ألذلك أتخلى عن الصمت وأقدم هذا الخطاب، وهذه المقالة أو بالأحرى هذه الذبيحة الشكرية التي هي أثمن من الحجارة الكريمة، وأبهى من كل الحلل، وأقدس من أية ذبيحة ناموسية، وأبر من تقادم الأبكار، «وأفضل عند الله من ثور فتي ذي قرون وأظلاف» (مز ٦٨: ٣٢)، وأسمى من البخور، ومن ذبائح المحمول وآلاف الكباش المسمنة، الذبائح التي حافظ عليها الناموس الحرفي في طفولته حين كان يرمز بالذبائح الدموية الى الذبيحة الجديدة.

هذا ما أقدمه لله، وهذا ما أخصصه، وهو ثروتي الوحيدة التي احتفظت بها لنفسي مثل الدرة الثمينة التي تفوق جميع اللآلىء (متى ١٣: ٤٥-٤٦) فصرت تاجراً كبيراً، أو بالأحرى أرغب في أن أصير تاجراً ما دمت قد اشتريت بما يفنى ما لا يفنى. اني أقدم الكلمة كخادم للكلمة، ولن أهملها بارادتي لأنها هي الشيء الوحيد الذي أملكه. واني لأحترم الكلمة وأفرح بها اكثر من كل الأمور التي تفرح الآخرين، واعتبرها شريكة حياتي ودستوري الصالح ومشيرتي وقائدتي في الطريق الى السماء، ومكافحة حاضرة معي. بما اني اعتبر كل شيء مفرح يبقى في الأرض لا قيمة له، فان محبتي كلها تجمعت في الكلمة بعد الله لأنها تقود إلى الله بحكمة ورشاد، لأن الله نحبها ونحافظ عليها وننمو بها في داخلنا. «قلت ان الحكمة هي اختي» (أم ٧: ٤) فأكرمتها وجعلتها في داخلي، وسعيت الى تاج المواهب والسعادة ليكلل بها رأسي، والمواهب التي هي من ثمار حكمتنا التي تنير وتزين عقلنا في مسيرتنا نحو الله.

بالكلمة ألجم ثورات غضبي، وبها أخمد الحسد الذي يذيب الإنسان. بها أحارب الحزن وكآبة القلب، وبها أمسك نوازع الشهوات. هي تجعلني معتدلاً عندما أكون غنياً، وكبير النفس عندما أكون فقيراً. انها تدفعني الى سلوك الطريق الصحيح ومد يدي لمن يسقط، أمرض مع المريض وأفرح مع الأصحاء. بالكلمة تصبح اقامتي وغربتي شيئاً واحداً وكذلك تنقلي من مكان الى مكان. انها من أجلي تقسّم العوالم، تبعدني عن الواحد وتقربني من الآخر. انها تعدني على التكبر ضارباً بسلاح البر يميناً ويساراً» (كو ٦:٧) ضد أصعب الأمور، لأني أعيش في الذي لا يُخزي أحداً» (رو ٥:٥). بالكلمة أستقبل أصدقائي واخوتي وأحبائي، مائدة عقلية، وأقدم لهم خمرة روحية لا تنضب، لا مائدة أرضية للجوف الذي لا يعرف الشبع وسيبيد الله الجوف والأطعمة.

«بعد ان سكتُّ طويلاً، وضبطتُ نفسي، الآن اصيح كالتي تلد ويتصاعد انيني وزفيري» (أش ٤٢:١٤). هل يجب أن اديم الصمت؟ ان ميلاد يوحنا حل عقدة لسان زكريا (لو ١:٢٠) أن أبا الصوت الصارخ بقي صامتاً الى أن أعطي الصبيّ وتحقق الوعد والبشارة فانحلّت عقدة لسانه فأذاع الشكر والحمد لله.

ان هذا الحضور الخيّر، وهذا المنظر الرائع، منظر مجتمع أبناء الله في مكان واحد بعد أن كانوا متفرقين، هو الذي حلّ لساني ورفع صوتي كصوت البوق. انهم الآن يسترجعون «وقد ساروا الى بيت الله باتفاق» (مز ٥٤:١٥) انهم يسايرون الى بيت الله على المصافاة، ويؤلفون تناسقاً وتناغماً في عالم الروح والخير! أجل يحل لساني الآن لأننا لا نجادل بعضنا بعضاً كما كنا سابقاً، يوم كان الشيطان الخبيث يُغير علينا ويرشق سهامه خلال الظلمة التي ألقانا فيها. ما كنت أعلم ماذا يجب أن أقول بعد أن وصلنا الى هذا الحد أن يفرح أحدنا بشرور الآخر دون ان نعرف اننا بتدميرنا بعضنا بعضاً نخسر كل شيء. يحل لساني الآن، لأن يهوذا وسائر الأسباط يقبلون مبدأ واحداً وتجتمع أورشليم والسامرة في اورشليم العلوية. وليس احد لبولس ولا لأبلس ولا لبطرس الذين باسمهم نفاخر ونسمو على من هم ضدنا، بعد أن صرنا كلنا معاً مواطنين للمسيح.

بما انني أنا وكلمتي معكم، وبما انكم أجبرتموني بمحبتكم على الكلام وأنا لا اريد ذلك، فاني سأتكلم باختصار نازلاً عند رجائكم. سأقول كلمات شكر وحمد، وكلمات نصائح. ففي شكري وحمدي أقول: «من يخبر بأعمال الرب ويجعل تسابيحه مسموعة» (مز ١٠٥:٢)؟ من يستطيع أن ينقل الى كل الأسماع تمجيده عن كل ما صنع؟ «لأنه جمع الاثنين الى واحد، وسقط الحاجز القائم بينهما» (افس ٢:١٤).

لقد أوقفت، يا الله، عابدي الأصنام عن مهاجمتنا، ولم تتركهم يشمتون بنا، ويهزون رؤوسهم ساخرين، لأنك عاقبتنا بما يكفي لنعرف نعمة السلام، وبعد أن جعلتنا نتألم. لقد أعدتنا الى حالتنا الأولى. يا للعجب الشفاء! لقد قدتنا إلى الغبة من البغض الذي كرهته سريعاً، وجعلتنا نركض بحرارة الى بعضنا. وكان مثلنا كمثل الأغراس التي عوّجتها الأيدي الشريرة، ثم تركت حرةً لتعود الى حالتها الطبيعية السابقة، ولتظهر طبيعتها الأصلية. ان العين الآن لا تحتقر اليد، واليد لا تحتقر العين.. الآن لا يثور الرأس ضد القدمين، ولا القدمان تنفران عن الرأس، ولا تسيء الأعضاء الى بعضها بالفوضى وعدم النظام، بل كل عضو يهتم بالآخر (كو ١ ١٢: ٢٥) حسب نظام الطبيعة الذي فيه يساند كل شيء. لقد صرنا جسداً واحداً وروحاً واحداً في رجاء الدعوة الجديدة.

لذلك سيمجدك الشعب الفقير الذي صار غنياً لأن احسانك الهنا ظهر بطريقة عجيبة. ولأنه حيث تتفاقم الخطيئة تزداد النعمة (رو ٥: ٢٠) اذا قدمت حبة قمح أعطت سنبلة مليئة. ثم ماذا كان من حكمة الله وتدبيره؟ قد تخسر الأغنام فتحزن عنها ثم تُرد اليك، ويأتيك الراعي الأعظم برعاة أكثر استقامة! وقد تؤجّل الخدمة، وتعلّق الرعاية والاهتمام بالقطيع الحبيب، وقد يؤجل العمل بالوزنات، ويبقى السراج مختفياً تحت المكيال (متى ٥: ١٥)، (ليضعه السيد فيما بعد فوق المكيال ليتير في كل مكان روح الكنيسة ويصير نوراً في طريقنا). وقد يتيه المدعو في الأدغال والوديان والجبال والأنهار حتى يقبل في الوقت المناسب عصا الرعاية، ويرعى مع الراعي الحقيقي القطيع العقلي، ويقوده الى مراعي الخضرة، ويسقيه الماء الذي يغذيه ماء الروح. اننا نرجو تلك الساعة وننتظرها. وقد حان الوقت لأضيف أنا إلى شكرنا لله توجيهاتي اللازمة. وسأحاول أن أكون على قدر المستطاع موجزاً لأنكم طبقتم القسم الأكبر من هذه الأمور عملياً. ولستم بحاجة للنصح كثيراً وأنتم الذين ملكتم الخبرة بالعمل.

أيها الاخوة! كان من الواجب الاّ تنقسم. كان من اللازم الاّ نحجب تلك الزينة الأولى. ان قطيعنا، وإن يكن قطيعاً صغيراً، ولا يستحق أن يكون في عداد القطعان، إلا انه كان يملك الميزات التي تملكها القطعان الكبيرة، وكان على مستواها، لا بل كنت أعتبره أكبر من بعضها بقوة الروح. لأن كل واحد من تلك القطعان كان له مفخرة وامتيازه كبيراً كان أم صغيراً! أما زينة قطيعنا وفخره فكانا في وحدته التي لا تنفصم، وفي انتفاء الاضطرابات والمنازعات فيه. وهو الوحيد الذي يمكننا أن نشبهه بفلك نوح، لأنه الوحيد الذي تمكن أن يتخلص من الفوضى واضطراب العالم، محافظاً على حسن العبادة.

وبما أننا، كبشر، لا نستطيع أن نتخلص كلياً من حسد الشرير، ولسنا، من حيث الطبيعة، فوق الأمراض التي تشمل الجميع، فإننا قد حملنا قسماً من نصيبه، ولم نتمكن أن نحافظ كلياً على الميراث الأبوي أي على دوام الاتفاق الصالح. الا أننا نتميز عن الآخرين (وهذا الفخر فخرنا بالمسيح) أننا آخر مَن أُصيبنا، وأول من شُفينا. اذا مرضنا فلا عجب، لأن طبيعتنا تحمل في ذاتها بذور المرض. فأقوياء الأجسام يستطيعون أن يحملوا، ثم يتعافون بسرعة. أما الضعفاء فيحتاجون الى الوقت الكافي. كذلك المرضى روحياً شفاؤهم يتوقف على الرصيد الذي لهم في الايمان والتقوى. ان رصيدنا من التقوى ومتانة العقيدة كان عظيماً، لذلك عدنا بسرعة الى ما كنا عليه من الوئام.

لا شيء يفرح أولئك الذين يحبون الوفاق بصدق، كالاتفاق مع الله. ولا شيء يجعل التربة خصبة للانقسام ويقود الى التصادم مثل الخلاف حوله. فمن كان هادئاً دائماً يصبح حاراً الغيرة، ومن كان وديعاً يصبح مكافحاً، وخصوصاً عندما يلمس رحمة الله وبراه يؤجل غضبه. إنه يخسر نفسه إذا سقط، أو بالأحرى يخسر الله الذي يجعلنا أغنياء، غنى، كما قلتُ، أكثر لطفاً من غيرنا في خلافاتنا. والسرعة التي تم بها السلام ليست كافية لتوطيد ديمومته اذا لم يسنده أحد كحليف له، أي اذا لم نتحالف مع الله الذي به يبتدىء واليه ينتهي كل خير. فلنقوِّ هذا السلام بالصلوات. وبتفكيرنا متذكرين أن الله هو اسمى جمال المخلوقات بل هو مصدر وجودنا، وفوق كل ما هو جوهري في نظرنا. والكائنات كلها تأخذ وجودها منه: الملائكة والقوات السماوية التي تأتي بعد الله وهي التي تأخذ النور أولاً من النور الأول، وتتشح بها: الحقيقة. ومن صفاتها أنها لا تتصادم ولا تثور، لأنه في الله لا يوجد خلاف. ذلك لأنه ليس فيه انقسام (والخلاف يسبب الانقسام) بل اتفاق عظيم بالنسبة للألوهة ذاتها، وبالنسبة لما هو خارج عنها، حيث تصبح فضيلة السلام احتفاً لله قبل كل الصفات وبها يسمى الله: اله السلام. لأن الله في الواقع هو سلام (اف ٢: ١٤) وهو محبة (يو ١ ٤: ٨) وبهذه التسميات يوحي الينا أن نحوز هذه الفضائل.

هناك ملاك من الملائكة تجاسر وثار وتكبر وأراد أن يرتفع فوق رتبته ضد الرب القادر على كل شيء، واستهدف أن يجعل لنفسه عرشاً فوق الغيوم كما يقول النبي: (اشو ١٤: ١٤) فعوقب كما يليق بجنونه، وحُكم عليه أن يكون ظلمة بدلاً من النور، لا بل هو الذي حَكَمَ على نفسه اذا اردنا الدقة. أما بقية الملائكة فبقوا في رتبهم يتميزون بفضيلة السلام وعدم التمرد ويستمدون النور من الثالوث الأقدس. ان الثالوث هو اله

واحد كما نؤمن به. ووحدانيته قائمة على الاتفاق بين الأقانيم كما هي قائمة على وحدة الجوهر. وأولئك الذين يقبلون السلام ويكرمونه هم موجودون بالقرب من اللاهوت. وهؤلاء يمقتون الانقسامات ويتزعزعون منها. أما القائمون في الصف المعاكس الذين يهاجمون ويحاولون أن يحوزوا على القلب، بطرق غريبة، ويصفقون لمعارضهم، فهم، في الأساس قلة ومجرمون يجرحون بسهام ظلمتهم جسد الكنيسة المشترك ويختبئون في الظلمة، وذلك لأن الشيطان يثور في نفوسهم ويعطي لأهوائهم الأشكال التي يتخذها، لأنه هو قاتل للبشر منذ البداية، وعدو للخير. وهو السهم الذي يجرح جسد الكنيسة ويدخل الينا من خلال الفجوات التي يفتحها في أسوار مدينتنا.

الشيء الأول والمهم الذي يدل على التفكير الصحيح والمسالمة، هو التشبه بالله وبالأمور الالهية التي يجب أن تستهدف النفس المخلوقة على صورة الله لكي تسلك في طريق ثابت، وتحافظ على أصلها الشريف. والشيء الثاني هو انه علينا أن نوجه أنظارنا الى السموات فوق، والى الأرض أسفل، ونعرف نواميس الطبيعة، لأن السماء والأرض والبحر وكل العوالم هي خليقة الله العظيمة العجيبة التي تظهر لنا الله معلنة عجبه من أعماق الصمت.

عندما يكون المرء في ثورانه ثم يعيش بسلام مع ذاته، ويبقى ضمن حدود الطبيعة، ولا يثور ضد أحد، ولا يتجاوز الربط العقلية التي سالم بينها الكلمة العليم، يصبح عالماً من الجمال. وهكذا حتى جماله جمالاً لا يُدانى وليس بإمكان أحد أن يتخيل أجمل منه وأعظم. وعندما يتوقف العالم أن يكون في السلام، يتوقف عن كونه عالماً. لأنه من مفترض: أن يكون للفضاء نظام مشترك عجيب وللريح والنور والأرض والأمطار، من مفترض ذلك ألاّ نتصور أن هذا النظام مدين لنظام العناية الالهية؟ الأرض تهب الغذاء، والفضاء يهب النَفَس لكل حي. أليست كل هذه الأمور: الأرض والجو وكل ما في الكون تُعين حياة؟ أليست في محل محبة الوالدين وحنانهم؟

عندما تثور المادة على طبيعتها ذاتها حتى لا تكاد تستطيع أن تتماسك وحتى تعمل على انحلالها الذاتي بالتمرد، أو لنقل عندما يضع الله نقمة التناسق ليخيف الخاطئين أو ليعاقبهم، بطغيان البحر على البر، وفوران الأرض بالبراكين وسقوط الأمطار العجيبة، واختفاء الشمس، واشتعال الحرائق، أو استمرار الفصول اكثر مما هو محدود لها، فان هذه الظواهر تولد الرعب، وتشكل صورة بشعة خالية من الجمال. الا أنها بهذه الفوضى، توحي وتذكر بصلاح السلام وخيره. لنتأمل في حياة الشعوب والمدن والممالك التي

بادت والكتائب والجيوش والقبائل التي انقرضت، لو لتأمل في الحياة الزوجية والتي تستمر شركتها وتبقى بالتعاضد والمحبة، والتي يقضي عليها بالشقاق والخلاف، ولننتقل الى الشعب اليهودي لأذكركم بنزعاته وشتاته الذي عاناه وبما سيأتي عليه في المستقبل. وسأستعطفكم أنتم الذين تعرفون جيداً ما هو سبب بلايا اليهود ومصائبهم حتى نعتبر نحن بمصائب الآخرين، ونتعلم كيف نتفق بمحبة فيما بيننا!

حتى الوقت الذي كانوا يعيشون فيه بسلام مع أنفسهم ومع الله، وبينما كانوا يعيشون تحت الضغط الحديدي المصري. كانوا متحدين تحت ضغط الحزن المشترك (لان الحزن غالباً ما يكون دواء صالحاً وموجهاً نحو الخلاص) أقول انهم في ذلك الوقت الذي وصفناه كانوا يسمون شعباً مقدساً للرب ومملكة أحبار (خر ٦:١٩) و (بطر ١ ٩:٢) ولم تكن أعمالهم تختلف من تسميتهم، وكان يقودهم قادة بهداية الله، بعمود النار والغمامة ليلاً نهار. وقد انشق البحر من أجلهم عندما هربوا. وفي جوعهم أرسل الله لهم الغذاء من السماء، وفي عطشهم فجر لهم الماء من الصخرة. وفي حروبهم كان ينصرهم باشارة يد موسى نبيهم (خر ١١:١٧) ويحقق لهم الانتصارات الباهرة بالصلاة، ويفتح لهم الطرق الى الأمام. الأنهار كانت تشبه بالبحر وكانت تنشق ليعبروا. عناصر الطبيعة كانت تتوقف، والحصون كانت تدمّر وتدك من صوت البوق (يشو ٢٠:٦). ثم ماذا؟ أبنا حاجة الى ان نتكلم عن ضربات المصريين التي نزلت بهم بسببهم؟ وعن أصوات الله التي كانت تسمع من الجبل من أجل الشريعة (خر ١٦:١٩) الواحدة بالخوف والأخرى بالروح، وأن نتكلم عن الأمور الأخرى التي كان يكرّم، قديماً، الشعب الاسرائيلي بسببها بالرغم من عدم استحقاقه؟ وعندما أخذوا يضعفون، وصار كل واحد منهم ضد الآخر، وانقسموا الى أسباط كثيرة، وجلبوا عليهم العصا الحديدية التي كانت تهددهم من بعيد، ماذا حصل؟ وماذا حل بهم؟

ان ارميا النبي يرثي لحالهم بسبب انجرافهم وراء أهوائهم. وينتحب بسبب السبي البابلي. وفي الواقع ان تلك الأحوال جديرة بالنحيب والرثاء: الحصون المنيعة التي اندكت أسسها من الويلات العظيمة، والمدينة الجميلة المدمرة، أو الأيدي والأرجل الدنسة، الأنبياء الذين يصمتون عن التعليم، والكهنة يقادون الى الأسر، والشيوخ يُرجمون ولا يُرحمون، والعذارى ينتحن بهن، وأنهار الدم بدلاً من النار، والمراثي التي تحل محل الأناشيد! ولا بأس اذا سقتُ بعض المراثي التي تحل محل الأناشيد من مراثي ارميا: «طرق صهيون نائحة لعدم القادمين الى الأعياد، وجميع أبوابها متهدمة. كهنتها متنهدون وعذاراها متحسرات وهي في مرارة» (مر ٤:١). «وأيدي النساء الشديدات الحنو طبخت

أولادهن فكانوا لهن طعاماً في حطم شعبي» (مر ٤: ١٠) أهناك أفظع من هذه الأمور؟ كلما تناولت هذا الكتاب لأقرأ المراثي، أفقد صوتي، وأنفجر بالدموع، وتبرز أمامي الصورة فأنوح مع النبي الذي ناح. ان نكبتهم الأخيرة هذه، وعيشهم تحت نير العبودية ومذلتهم تحت حكم الرومانيين التي لا سبب لها غير تمردهم. أي رثاء خال هذا الشعب اليهودي؟! ومن يرثيه من كتاب المراثي والمآسي؟ أية بطون من بطون الكتب ستتسع لتلك المراثي؟ ان المسكونة كلها بأسرها حيث تشتتوا وتبعثروا فيها غدت، وكأنها نصب تذكاري لشتاتهم، وعنوان ليؤسهم في تعطل عباداتهم وخراب مدينتهم وفقرهم وذلهم.

فما دام أن التمرد هو مخيف ومسبب لشرور عظيمة كما رأينا من حال الشعب اليهودي، وكما نعرف من حالات شعوب مماثلة، فيجب أن نوقن أن السقوط في المرض ذاته، وان العودة الى فيئنا الأول (١ مز ٢٦: ١) وأن عدم استفادتنا من خبرتنا، يكون أشد هولاً، ولاسيما بعد أن هجرنا حضارة الجنس وتذوقنا نعمة السلام. وعندي أن الفارغين والجهال ليسوا هم الذين يستمرون فيما هم فيه، بل الذين يتقلبون هنا وهناك، وينقزون بسهولة من مكان الى مكان، ويغيرون اتجاهاتهم كالرياح الخفيفة، أو كتموجات البحر المتغيرة. ان من يبقون في شرعهم، يبقى في أعماقهم حافز الأمل والرجاء بتحقيق السلام والاتفاق، ويعيشون على رجاء التلاؤم الداخلي وعلى ما تصبو اليه أنفسهم. أمّا اولئك الذين تسالموا مراراً، وتخاصموا مراراً وعادوا بالنتيجة الى الشر، فقد فقدوا مع ما فقدوا الرجاء بالتحسن والاستقرار لأنهم باتوا يخشون المسالمة أكثر من المنازعة، لأنهم لا يثقون بكلا الموقفين بسبب التفاهم السريع دون ان يقيّموا نتائج الانتقال من هذا الموقف الى غيره.

هذا واستدرك راجياً الا يفكر أحدكم بأني أدعو الى السلام على الاطلاق ومن أي نوع (أعرف أن هناك ثورات جيدة ومسالمات سيئة). بل اني أدعو الى المسالمة الصالحة التي تربطنا بالله، واذا أردت أن أمر بهذه الأمور موجزاً فأقول ما يأتي: لا يجب أن يكون المرء بلا همة ولا نخوة ولا مروءة، ولا أن يكون شديد الغيرة والحماس بحيث ينساق بسرعة مدفوعاً بإرادة الآخرين، ولا أن يثور بسبب الفوضى ضد الجميع، ذلك لأن التخاذل يقود الى الخمول. وسهولة الانتقال من مكان الى مكان الى البعد عن الشركة الاجتماعية. انه لأفضل أن يلقي المرء نفسه بالنار، وأن يبذل ذاته للسيف وان يجتاز حالات العذاب الصعبة ويُسلّم للعتاة بدلاً من أن يصير شريكاً في الخبث والرياء. لا ينبغي ان يخشى المرء شيئاً. لا يجب أن يخشى الا الله ونكران الحق.

وعليه فلنصافح بعضنا بعضاً، ولنصر جميعنا واحداً، ونتشبه بالله السلام الذي هدم سياج العداوة (اف ٢: ١٤) (بين الوثنيين واليهود) وجمع الكل بدمه الى واحد وجعلهم يتسالمون. ولنتوجه الى ابينا جميعاً، الى الشيخ الجليل والراعي الهادئ الوديع قائلين: اترى لطف الله! ارفع عينيك وانظر الى اولادك يتقاطرون اليك ويتحلقون حولك! هذا ما كنت تشتاقه وتطلبه من ربك نهاراً وليلاً طول حياتك. ها هم كلهم جاؤوا اليك، يستريحون تحت جناحيك، ويشتركون طائفين حول المذبح المقدس. جاؤوا مسرعين بفرح ودامعين بعد أن ابتعدوا عن الشر.

افرح وابتهج بأولادك(١) أنت يا من يمتلئ بمحبة أولادك لأنك تبسنهم وتوشحهم جميعاً كالعروس التي تلبس زينتها. هذا انتذا والأولاد الذين اعطانيهم الله (١ شو ١٨:٨) أضف أيضاً كلمات الرب المعروفة «ان الذين أعطيتني حفظتهم ولم يهلك منهم أحد» (يو ١٧: ١٢).

(١) المقصود بالراعي الأب الجليل باسيليوس الكبير.

من تاريخ كنيسة انطاكية

يوليانوس الجاحد في انطاكية

... وبعد قليل من هذه الأحداث دخلت كنيسة انطاكية في اضطراب عظيم من مجيء يوليانوس الامبراطور إليها وإقامته فيها زمناً. وكان يوليانوس هذا قد انحرّ إلى ديانة كثرة الآلهة الوثنية مارقاً من ديانته المسيحية. ولهذا دُعي بالجاحد والمارق. ومن غير أن نورد كل شيء عن حياته، سنقتصر، أساسياً، على ايراد ما كان من أمره أثناء اقامته في انطاكية المدة التي شكلت الحادث الأعظم والأهم في حياته الامبراطورية، وعلى ذكر المساعي الباطلة التي سعاها من أجل إعادة الوثنية. هو يوليانوس بن يوليوس اخي قسطنطين الكبير من أم غير أمه. وُلد في القسطنطينية عام ٣٣١. وماتت أمه فاسيلينا «بنتاً فتية» حسب تعبير يوليانوس(*) وقُتل أبوه وأخوه الأكبر مع أقرباء آخرين بعد موت قسطنطين الكبير. وأشفق القتلة على يوليانوس مقبين على حياته بواسطة تدخل مرقس أسقف الرستن، وكان يومئذ ابن ست سنين، وكان أخوه البكر من أبيه غالوس مريضاً بشدة. فتولّى الامبراطور قسطنديوس الاهتمام بتثقيفه، وأظهر يوليانس قابلية عظيمة للتعلم، وكان معلمه في البداية ماردونيوس وهو عبد مجرّب تجربة طويلة، وكان قد علّم أم يوليانوس اشعار هوميروس. ثم أرسل مع ماردونيوس إلى قريب والدته افسافيوس أسقف نيقوميدية، ثم التحق به إلى القسطنطينية إذ انتخب عليها أسقفاً (٣٣٨)، ومن هناك أرسله قسطنديوس إلى بلدة في الكبادوك مع اخيه غالس حتى يتعاطوا الأمور الكنسية ويتمرنوا عليها. ولكنه عاد فاستدعاهما بعد أربع سنوات إلى القسطنطينية. وهناك استمع يوليانوس إلى تعليم خطباء وثنيين مثل نيكوكليوس وأمثالهما عن ألقوا في نفس الشاب المندفع يوليانوس، بتعاليمهم الحماسية، محبة الديانة الوثنية. وأدخل قسطنديوس غالس في الميدان السياسي إذ اعلنه قيصراً وعيّنه حاكماً لانطاكية (٣٥١). أما يوليانوس فأبعده إلى نيقوميدية حيث كان يعلّم أبرز الخطباء والفلاسفة ليبانيوس الانطاكي

(*) فاسيلينا كانت مسيحية ذات قرابة لافسافيوس اسقف نيقوميدية. كتاب «يوليانوس» مبغض لحيته.

(٣٩٣ +) وغيره من المعلمين الوثنيين. وكان قسطنديوس يمنع يوليانوس من اتباع التقاليد والعادات الوثنية، ولكن يوليانوس كان يحترم كلامهم ويحب منه بشغف. وقد أثر ليبانيوس عليه تأثيراً كبيراً سواءً من جهة المعتقدات الدينية، أو من جهة الثقافة الأدبية أو من الخطابة. على أن ارتداده النهائي إلى كثرة الآلهة يعود إلى تعليم تلاميذ أفلوطين خصوصاً الافلاطوني الجديد من أفسس وخصوصاً مكسيموس الذي ارتبط به بعد ذلك ارتباطاً لا ينقطع. وكان الافلاطونيون المحدثون يحاولون، بخلطهم التعليم اليوناني بوهم النحل الإلهي السري الكلداني، أن يفسروا تفسيراً رمزياً أساطير الآلهة، وإن يحوّلوا تحويلاً روحياً معتقد كثرة الآلهة، حتى يقيموا من هذا الخليط جبهة في وجه الجبهة المسيحية. ولما كان قسطنديوس في ميلان دعا إليه يوليانوس، ولما اجتاز هنا في طروادة، ذهش مسروراً إذ وجد ذبائح الآلهة في حرارة من ذبيحة مقدمة قبل قليل، واكتشف أن أسقف المدينة بيغاسيوس كان وثنياً متخفياً. من هنا يُفهم تأثير هؤلاء المعلمين على نفس يوليانوس وعلى خياله الخصب المتوثب الرابي في سحر جاهلية اليونان. كانت تتملكه المخاوف وحين وصل إلى ميلان شعر بدهشة جديدة، حين أمره الداهية قسطنديوس أن ينتقل إلى أثينا من أجل إكمال دروسه. كانت الامبراطورة افسافيا هي التي تعنى به وتحميه. وإنما أراد قسطنديوس «أن يهتم بقراءة الكتب ولا ينشغل بغيرهما، حتى لا يذكر الملك والملك وأهله». وصل أثينا في حزيران ٣٥٥ وكان كل شيء في أثينا يساعد على اكتمال العوامل في خروجه من الديانة المسيحية. أجل عمل في ذلك الفلاسفة الأفلاطونيون المحدثون والأساتذة المعلمون وهياكل الآلهة والبيئة كلها. «لأجل هذا – يخبر ليبانيوس – كان يرى حوله جماعات جماعات من الشبان والشيوخ والفلاسفة والخطباء. ويقال أيضاً إنه يشهد أسرار اليفسينا للآلهة ديمترا ويشترك بها. وكان يدرس معه بنفس الوقت في أثينا طلاب مسيحيون ممن صاروا آباء الكنيسة مثل باسيليوس وغريغوريوس الذي سبق وقال عن يوليانوس: «إن ذلك الفتى القلق والمضطرب دائماً سيسبب شراً عظيماً».

لم يكن لقسطنديوس أولاد. وقد أرسل، بصورة غير متوقعة، يدعو يوليانوس إليه إلى ميلان. ولما حضر أزوجه بأخته هيلانة وأعلنه قيصراً في ٦ كانون الثاني ٣٥٥، وأرسله إلى فرنسا حيث أظهر يوليانوس مناقب عسكرية كبيرة في صد البرابرة. وكان الامبراطور الداهية قد حكم قبل عام بالموت على غالس أخي يوليانوس حاكم انطاكية لأجل مخالفات كثيرة. وكان يراقب بشك وحذر تقدم يوليانوس الذي لم يكن لينسى ولو لحظة الماضي اليوناني متمسكاً بشوقه الداخلي ورغبته في بعث ديانة اليونانيين المائتة التي عرفها، وجدير بكل انتباه الخطبة الاحتفالية التي أنشأها في هذا الوقت في تكريم

قسطنديوس وافسافيا. في هذه الخطبة يدور كلامه عن الشعراء والفلاسفة ويغفل ذكر الانجيل كلياً. لا يعلم المرء كيف كتب مثل هذا الخطاب لكي يتلى أمام قسطنديوس، وكيف أنشأه يوليانوس الملاحق بالشبهات والظنون من قبل الامبراطور الذي جعل خدام بلاط يوليانوس جواسيس يتحسسون له مذاهب القيصر وتحركاته وأفكاره؟ ويوليانوس العائش وسط الجواسيس كان يشتد كرهه لقسطنديوس ومعه اشتد كرهه شغوفاً إلى المسيحية كلها، وهو في ذلك غير قادر على أن يحقق نهائياً تعاطفه الشديد مع المعتقد الوثني. وقد اكتسب برجولته الشخصية ومقدرته عطف الجيش الذي في امرته، واخلاصه له. ولكن هذا الواقع كان يزيد في إثارة شبهات قسطنديوس به.

في ٦ تشرين الأول ٣٥٩ زحف الفرس بقيادة شابور الثاني (٣٠٩ – ٣٧٩) على المقاطعات الشرقية من الدولة، واحتلوا آمد ما بين النهرين. فأسرع قسطنديوس الذي كان يقوم بصد أعداء الدولة على الدانوب، إلى الشرق لكي يجهز الحرب ضد الفرس، وطلب من يوليانوس أن يرسل خيرة جيشه اليه. ولكن جنود يوليانوس نادوا به امبراطوراً، واقترح يوليانوس على قسطنديوس الصلح بينهما باعترافه به مساوياً له في السلطة ولكن قسطنديوس لم يقبل. وحدث بنفس الوقت موت افسافيا التي كان بإمكانها اجراء مصالحة بينهما، وهكذا وقعت بينهما الواقعة. توجه قسطنديوس الموجود في أديسا ضد يوليانوس بدلاً من توجهه ضد الفرس. فقام من أديسا إلى ايليوبولس ومنها إلى انطاكية. فأقام فيها قليلاً ثم تقدم إلى كيليكيا، ولكنه مات في طريقه إلى موبسوكريني آخر مدن كيليكية عند اقدام جبل طوروس، وذلك في ٣ تشرين الثاني ٣٦١، بعد أن تعمد على يد الأسقف افزوئيس الأريوسي أسقف انطاكية. (ولكن يظهر أن هذا الخبر غير صحيح). أما يوليانوس فقد صلى آخر مرة في كنيسة مسيحية في فينا في ٥ كانون الثاني من ذلك العام، في عيد الظهور، وانتقل من جانوبا إلى القسطنطينية لأجل دفن قسطنديوس. ومنذ ذلك الوقت أعلن معتقداته الوثنية.

وكان يوليانوس يحاول أن يبرر خروجه من المسيحية على هذا الوجه: «إن قسطنطين ابتعد عن الآلهة مُقدِماً على التجديد مع الأسف الشديد، بدافع المنكرات المحببة اليه، مخدوعاً بكم أيها الجليليون. مع العلم أنه أصلاً غير مثقف لا بالثقافة والتقاليد والشرائع الرومانية ولا اليونانية. أما أنا فعلمتُ كل الإلمام بالثقافتين اليونانية والرومانية، ومتمرن بعلم لاهوت الرجال القدماء ارميس وفيمي واورفيس وافلاطون، بل إني دارس الأسفار اليهودية ورذائل هذيانهم وثرثرتهم، أناشدكم وآمركم العودة ثانية إلى دين آبائكم وأجدادكم الدين القديم والحبيب إلى البشر، وأحييكم تحية طيبة وأهيب بكم أن تتركوا أقوال الغير

المثقفين الفارغة». فيوليانوس كان يطلب إذن أن يستعيد الديانة الوثنية التي ألغاها قسطنطين الكبير، ولكنه يستند هذه الدعوة على تعاليم الفلاسفة الأفلاطونيين المحدثين الذين حاولوا أن يبثوا الروح في الدين الوثني بعناصر الدين والفلسفة البعيدة كلياً عن الوثنية الهوجاء. وكان يوليانوس يطلب مثل هذه الوثنية الروحية غير مستند على أفكار فلسفية فقط، بل على عنصر موهوم للعمل الإلهي وسحر المعتقدات الشرقية. كان يؤمن بالوجود ككل مقسماً إلى عالم عقلي وعالم ذكي، وعالم حسي. فكما أن الشمس محاطة بعدد من السموات وأعداد من المصابيح تعطي الاشارة إليها في الليل، هكذا فالصلاح الأعلى محاط بالأفكار. وبين العالم العقلي والعالم الحسي يتوسط العالم الذكي الذي فيه توجد الشمس الملكة أو الملكة، كما يسميها يوليانوس، وهو ذات الكلمة (لوغس) عند فيلن الاسكندري. ويحتبر هذا العالم الذكي، أو الشمس الملك متعالياً فوق كل الآلهة حتى زفس نفسه. وحول الألوهيات الثانوية له أفكارٌ مختلطة. فأحياناً كان يتخذها كأفكار وتعبير عن الألوهة العالية مبرراً عبادتها على هذا الوجه: «تلك نصبتها البشر أيقونات (تماثيل) لما يحترمونها بها ويكرمونها. وليست هي (التماثيل) آلهة لأن هذا الاعتبار إنما هو اعتبار البسطاء وأهل الأرياف، لأن المثقفين الحكمة، والفاحصين فحصاً جيداً أمور الآلهة يعرفون إلى من يقدّمون الاكرام وإلى مَن يتخطى بهم السجود لتماثيل الآلهة». من الظاهر أن يوليانوس كان يقصد أن يستند إلى وحدة الألوهة الروحية. ولكنه كان أحياناً يقسم الآلهة على حسب الأمم قائلاً بوجود إله خاص لكل أمة بتمثيل معيّن للأمة التي تخصه. وهكذا كان يبرر وجود ممارسة عبادية خاصة لكل أمة. وكان يوليانوس يطرح من الديانة اليونانية التشخيص البشري. ولذلك لم يكن لتماثيل براكسيتلس وفيدياس معنى وقيمة، ولا لأساطير الشعراء. ومن هنا صارت ديانة يوليانوس غير مفهومة عند الجمهور الساجد للأصنام، ولم تكن مفهومةً مناداته ومخاطباته إلى «أم الآلهة» وتقريظاته «للملك الشمس» كما كانت أخيراً غريبة كلياً كل محاولاته لإعادة تنظيم الوثنية وفق مثال غريب عنها.

وتصورَ أول واسطة لذلك هو احياء عادة تقديم الضحايا المهملة. وبها كان يأمل أن يسري وضع الديانة الميتة[*]. وصارت تقدم الضحايا علناً وأمام الشعب، للآلهة، دعياكل

(*) ورد عند سقراط المؤرخ الكنسي وصحاب المعرجم أنه يقال إن طبيب يوليانوس وصديقه أوريفاسيس ذهب بأمر الملك إلى عرافة دلفي ليستفتيها باسم الملك. ولكنه أخذ الجواب الآتي: (غريغوريوس).
«قولوا للمليك! لقد سقط أسفل البلاط الذليل
ولم يعد لفيفوس مقام ولم تعد للعجي نبتة
ولم يعد نبع يخبر، وسكت الماء المتكلم الكذاب».
ولكن صحة هذا الجواب يشك بها.

في كل مكان ونار ودم وروائح شحوم ودخان ومواكب واجتماعات وصلوات وثور يقدم ذاته ليكون ضحية للآلهة وعشاء للبشر» هكذا كان يقول، فيما بعد، ليبانيس في رثائه ليوليانوس. وكتب يوليانس إلى مجلس الشيوخ في رومية يعيب رئيس الأمة الهالك قسطنطين لأنه «حدَّد وغيَّر» وقلب الشرائع القائمة والعادات القديمة. وكذلك كتب إلى مجلس الشعب في أثينا فذكر الآلهة بالتقوى والاحترام معتقداً أنه مرسل من قبلها لتسوية العبادة. وقال إنه جرَّد الجيش ضد قسطنديُس «لأن الآلهة أمرت بذلك فوراً». وأعلن بسرور إلى معلمه الفيلسوف مكسيمس الافلاطوني الحديث الذي إليه سرده الفضل (حسب زعمه) في تركه المسيحية يقول: «نعبد الآلهة علناً. والعديد من جيشنا الموافق لنا في العبادة هم من المتقين. ونحن نذبح الثيران جهاراً ونرد الفضل والشكر للآلهة مئات المرات».

وهكذا فإن يوليانوس قرر، بعد أن خرج من المسيحية، أن يعيد عبادة كثرة الآلهة. وأصدر مرسوماً في كانون الثاني ٣٦٢ أعلن فيه حرية العبادة للمسيحيين وللوثنيين. ولكنه بدَّل ما على العلم الروماني بشعارات وثنية وصور الآلهة، لكي يصطاد الجنود المسيحيين بغش أثناء انحنائهم للعَلَم المرفوع إلى الوثنية. وأبعد من الجيش الضباط المسيحيين. وجرَّد الكنيسة والأساقفة المسيحيين من كل امتياز ومن كل الأوقاف التي جاد بها الأباطرة سلفاؤه.

وأعاد تأسيس بيوت العرافة والاستفتاح، وشيد في القسطنطينية وغيرها هياكل وثنية، وفرض، بتشريع خاص، أن يسمَّى المسيحيون «جليليين» مريداً ان يظهر المسيحية عليناً كأنها هرطقة لا شأن لها وليس كديانة جامعة وكنيسة. كما كرَّم المسيحيين بإعادة بناء الهياكل الوثنية المهدمة. وعلى الاجمال فقد أبان حماساً عظيماً للوثنية وتأييداً لها، كما أبان حقداً على المسيحية. وإذ كان عارفاً بما سببته الأريوسية من القلاقل في الكنيسة، استغل الفرصة وأراد أن يزيد في اضطراباتها وزعزعتها، فأمر أن يعود الأساقفة الارثوذكسيون الذين نفاهم قسطنديُس إلى كراسيهم، على أن يبقى فيها الأساقفة الأريوسيون. وبنتيجة هذا المرسوم عاد القديس أثناسيوس في أول عام ٣٦٢ إلى الاسكندرية والقديس ملاتيُس إلى انطاكية، وعاد كذلك معه بعد مضي ثلاثين سنة الأسقف الأريوسي اسقاثيس، وفيها يومئذٍ أسقف آخر من مذهبه هو افزوئيس.

وبعد تجهيز القوات العسكرية في القسطنطينية قام منها في شهر تموز ٣٦٢ إلى الشرق وقرر أن يجري الحرب مع الفرس. ولما علم شابور باعتلاء يوليانوس عرش

السلطة بغير توقع اقترح عليه شروطاً مؤاتية جداً لعقد معاهدة. غير أن يوليانوس رفضها بكبرياء وأبى إلا تجريد حملة على الفرس. عبر إلى خلكيدون ومنها انتقل إلى نيقوميذية، ومنها توجه إلى بسينوندا فريجية «الحبيبة إلى الله» كما كان يدعوها يوليانوس نفسه حتى يقدم فيها ضحايا لأم الآلهة. وكان شابان مسيحيان قد قلبا مذبحها، فجازاهما يوليانوس بأفظع العذاب الرهيبة. وقد بقي منزعجاً جداً من إقامته بيسينوندا، كما كتب لأرساكيوس رئيس كهنة غلاطية. وناشد رئيس الكهنة أن يوصي كهنة الأصنام بأن يمارسوا عمل الخير متشبهين «بالجليليين» الكافرين(*).

وانتقل من بسينوندا إلى أنقيرة أم مدن غلاطية ومركز عبادة كيبيلي. وقد تحمس سكان المدينة الوثنيون لحضور الامبراطور الوثني بينهم. وقد استشهد كاهن اسمه باسيليوس لأنه قاوم الوثنية ووقف في وجهها. وأصدر وهو في أنقيرة الأمر الشهير الذي به يمنع المعلمين المسيحيين من تعليم الأدب اليوناني والأدباء اليونانيين، ومنع المسيحيين بوجه عام من تعلم الآداب اليونانية. «ظهر، في فهمه الأدب، أجهل الجاهلين، مَن هو، في نظر نفسه، أعلم الناس أجمعين» حسب تعبير القديس غريغوريوس اللاهوتي. أقدم يوليانوس على اتخاذ هذا الاجراء معتقداً حسب رأي معلمه ليبانيوس ان «الأدب والدين صنوان» أي أنه لا يمكن أن يُفصل بين الأدب اليوناني والديانة اليونانية، واليوناني لم يكن ممكناً أن يكون إلا وثنياً، لأن المسيحية والأدب اليوناني لا يتفقان. ومن الواضح ان يوليانوس كان يريد من وراء عمله هذا، أن يحرم المسيحية قوة فكرية من دراسة الأدب اليوناني. وكان يعلم أن أكابر آباء الكنيسة المسيحية ومعلمي الكنيسة مثل باسيليوس وغريغوريوس ورفاقه الطلاب في أثينا خدموا الديانة المسيحية، وبرزوا لامعين بواسطة الأدب اليوناني.

وقد أثار هذا الإجراء التعسفي احتجاج المسيحيين. ونهض أحد أساقفة انطاكية، ابوليناريوس أسقف اللاذقية إلى عمل أدبي لكي يبطل اجراءات يوليانوس ويلاشي فعلها. وكان أبوليناريوس ابن كاهن اللاذقية واسمه ابوليناريس أيضاً وكان عالماً متبحراً في الأدب اليوناني. تعلم أولاً في الاسكندرية، ثم علّم في بيروت واللاذقية، وألّف كتاب قواعد ومؤلفات أخرى بقوالب شعرية. ونشأ ابنه أبوليناريوس مثقفاً ثقافة ممتازة بالأدب والفلسفة

(*) لنأمر الكهنة ألا يأتوا إلى المسارح، ولا يذهبوا ليشربوا الخمر في الملاهي والمراقص، ولا يتعاطوا أشغالاً مخجلة منحطة. لنعتنوا بفقرائنا لأنه من العار علينا أن لا يكون بين اليهود من يستعطي، وأما المسيحيون «الجليليون» الكافرون فيقدمون الأغذية والمساعدات لفقرائهم ولفقرائنا أيضاً.

واللاهوت. صار أسقف اللاذقية وكان مرشحاً لأن يكون من أكابر آباء الكنيسة لو لم يسقط، مع الأسف، في بدعة كما سنرى، ولكنه على كل حال كان مؤلفاً من أبرز المؤلفين، فأراد أن يقاوم عمل يوليانوس في حظر الأدب اليوناني على المسيحيين. نشر نصّ العهد الجديد باللغة اليونانية القديمة، بشكل الحوار الأفلاطوني، كما نشر تاريخ العهد القديم من موسى إلى شاول في نقش شعري بطولي (ملحمي)، ونقل المزامير إلى اللغة القديمة في أوزان سداسية (سداسيات)، ووضع أيضاً (مسرحيات) مآسي شعرية، وألّف أشعاراً وجدانية مظهراً على هذا الوجه أدباً يونانياً جديداً.

وغادر يوليانوس أنقيرة غلاطية في أواخر شهر حزيران ٣٦٢. مر بكبادوكيا في الأيام التي انتخب فيها افسافيس أسقفاً على قيصرية. وإذ أراد حاكم كبادوكية أن يبعده عنها حسب طلب يوليانوس، لقي مقاومة شديدة من أسقف نزينز الشيخ غريغوريوس والد غريغوريوس اللاهوتي. وجماع القول إن يوليانوس خرج من كبادوكية غير راض لأن شعبها لم يكن مخلصاً للديانة الوثنية. لم يجد يونانيين لاستقباله الا وثنيين. مكث قليلاً في تيانا وطن ابولونيس وانتقل إلى أبواب كيليكية حيث صادف زميله القديم في أثينا كيلسس الوثني المتعصب الذي رافقه إلى طرسوس حيث طلب كاهن اسكليبيوس أن يسلم إليه أسقف طرسوس أعمدة الهيكل المسيحي التي أخذت، في أيام قسطنطين الكبير من هيكل اسكليبيوس المتهدم. وأخذ الأمر من يوليانوس ولكن الوثنيين لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، وبقيت الأعمدة في مكانها.

وأخيراً انتقل يوليانوس إلى انطاكية سورية. ولما اقترب منها استقبله حشد كبير بحماس عظيم أدهشه. كان ذلك في شهر حزيران ٣٦٢ وكان الوثنيون يعيدون الأعياد الادونيسية، لإكرام أدونيس المزعوم في الأسطورة أنه أجمل شاب وهو عشيق أفروديتي وبرسفوني والذي قتله خنزير بري أثناء الصيد. وكان يرمز أدونيس إلى النبات الذي يموت بعد أن يزهر قليلاً وإلى حصاد السنابل. وكانت تطلق في ذلك العيد القديم أناشيد رثائية حزينة. وقد اعتبر دخول يوليانوس في ذلك الوقت إلى انطاكية شؤماً. وكان بين مستقبلي الامبراطور الشاب إستاذ الخطابة الشهير ليبانيس الانطاكي الذي كان تعرّف عليه يوليانوس، كما رأينا، في نقوميدية في فتوته حين كان يوليانوس فيها طالباً للعلم. وكان عندئذ ليبانيس في قمة شهرته وعمله في وطنه انطاكية، وكان يوليانوس يذكره جيداً، وكان يقرأ خطبه بإعجاب. أما يوليانوس فلم يعرفه ولم يوجه اليه كلمة واحدة ولا سلاماً. ولكن لما أشار اليه عمه وسميّه يوليانوس، عاد فحيّى صاحبه القديم بسلام بلوي حار ولم يتردد في أن يقول إنه إنما قدم إلى انطاكية ليزورها اكراماً له.

وبعد أيام أجرى يوليانوس سباق الخيل من أجل مسرة شعب انطاكية، على الرغم من أنه كان راغباً عن أمور السباق متقرفاً. ثم طلب من ليبانيُس أن يلقي خطاباً مناسباً لإظهار فنه الخطابي. فألقى ليبانيُس «خطابه الموجه إلى يوليانوس» مدحه فيه، بتعبير قوي من اجادة الكلام، كمنقذ الدين والأدب لليونان، وكأداة بيد «الآلهة» لتسوية وضع هذا الدين. وامتدح كذلك مرافقيه الفلاسفة الأفلاطونيين الحديثين. ووصفه بالغير المبارى في الملك والكهنوت والخطابة والقيادة والقضاء والفلسفة والحكمة، وقال عنه إن له نفساً إلهية في جسد إنساني، وتمنى له أخيراً طول العمر من الآلهة...».

وكان يوليانوس يقدم في كل صباح ضحايا للآلهة. وكان الكثيرون يسرعون ليروه وحده يقدم الضحية. وهكذا كان يظهر متوحداً معزلاً في المجتمع الانطاكي لأنه كان متصرفاً، قبل كل شيء، إلى ضروب السحر، ودرس أفكار الكهنة، وإلى مطالعة الفأل، والانشغالات الدينية والفلسفية، ولم يعد يراعي ما يُطلب من الحماس في الجهاد الذي نادى به من أجل النهوض بالوثنية. والوثنيون، وإن يكونوا قد فرحوا بإطلاق حرية الديانة، بعد الاجراءات المحددة التي أجراها قسطنديُس، وبحرية تقديم الضحايا وبالأعياد والاحتفالات التي أباحها الملك الجديد، ولكنهم لم يكونوا متجاوبين مع الغلو في التعبد والغيرة على الدين عند الملك الوثني الخارج على المسيحية. كانوا، في وثنيتهم السميكة، غرباء عن أفكار يوليانوس الافلاطونية الجديدة ومن حوله، في نزعتهم إلى ادخال الروح في الديانة الوثنية مفسرين أساطير الآلهة تفسيراً رمزياً وسحرياً، وفي استهدافهم قبل كل شيء النهوض الأخلاقي بالوثنية عن طريق التشبه بالمسيحية، لأن يوليانوس حاول أن ينظم الوثنية مثل تنظيم الكنيسة كسلطة روحية منظمة وبدرجات كهنوت يكون فيها هو المشرطن نفسه رئيس الكهنة الأعظم. وكان عنده كاهنات مع الكهنة، وحدد طقوس العبادة كما في المسيحية، وأوصى بحرقات دينية للترتيل، وبمواعظ في الهياكل، وعيّن نهجاً مناسباً من أجل ممارسة سر الاعتراف المسيحي، ورسم الواجبات للاكليروس الوثني، وأشياء أخرى غريبة ومجهولة أدخلها إلى الوثنية محاولاً أن ينعشها بها.

وأخذ الوثنيون الانطاكيون ينظرون بغرابة إلى تلك الحركة الدينية الغير المفهومة، حركة يوليانوس وأصحابه الفلاسفة والخطباء القليلين الذين انضم اليهم مواطنهم ليبانيُس نفسه. وعلى الرغم من الحماس والتصفيق اللذين استقبل بهما في انطاكية، لم يلبث أن أحس بأنه يوجد في وسط غير مهتم به على الأقل إذا لم نقلْ في وسط معادٍ له.

وأخذ يوليانوس يلاحظ بحزن أن الأنظار كانت تُصرف عنه، لا أنظار المسيحيين

الملحدين فقط، بل أنظار الوثنيين الانطاكيين الذين كانوا قد بدأوا يتعاطفون مع الديانة المسيحية وعبيد المسيح، ومتخذينه صاحب مدينتهم وشفيعها بدل زفس وأبولون دفني وكاليوبي. ولهذا السبب كان الوثنيون يظهرون غير مكترثين لمساعي يوليانوس الدينية. وفيما عدا ليبانيوس لم يكن يجد أحداً مخلصاً له في انطاكية وكان يشعر بأنه غريب. ورأى الشعب منصرفاً إلى مشاهدات سباق الخيل جاعلاً منها هوايته وشغله اليومي. وإذا ظهر الملك نادراً في احدى المسارح في بعض الأعياد، فسرعان ما كان ينسحب باحتقار من وسط الشعب، وهذا ما كان يثير حفيظة الانطاكيين عليه، المسيحيين منهم والوثنيين. وكان مما يثير تعليقاتهم الهزلية، المظهر الخارجي للفيلسوف الامبراطور المتهوّس بالديانة. لأنه في حين كان الانطاكيون يقيمون وزناً كبيراً للمظهر الخارجي في اللباس والهندام والاستحمام ونظافة الأجساد، كان يوليانوس، على العكس، يباعد الاستحمام، وكان دائماً مهملاً هندامه، مطلقاً لحية طويلة مثل الفلاسفة، وأصابعه غير نظيفة من الحبر، وأظافره طويلة. كان يظهر كأنه جافي ريفيٌّ فظٌّ متوحش وغير وديع، وكان يتباهى بكل هذا. وكانت صورته، بلحيته الطويلة، تظهر على العملة المسكوكة في انطاكية. وكان الملك الفيلسوف يعيش وحيداً طارداً من بلاطه المهرجين والمغنين والعازفين، ويذكر ليبانيوس أنه كان ينام ساعات قليلة فقط ساهراً في جوف الليل منشغلاً بغير تعب، بترتيب أعمال ادارة الدولة والتجهيز العسكري ضد الفرس وغيرهم وتوزيع العدالة في القضاء. ومع هذا فلم يكن يُرضي الانطاكيين الغلوُّ في الغيرة على الدين. «أما أنتم فلا يرضيكم انشغالنا بهذه الأفكار والأحكام» كان يقول للانطاكيين. وكان يظهر متحيزاً في أحكامه في قضايا المسيحيين. وكانت تتناوله التعليقات القارسة أيضاً بسبب غلوه في تقديم تقديم الضحايا، فلم يكن يكتفي بما يقدم يومياً من الضحايا في انطاكية، بل كان يزور باستمرار هياكل انطاكية ودفني وجبل كاسيوس. فكانت تعرض له في هذه الزيارات أمور وأمور. عندما كان يظهر في شوارع انطاكية ماشياً لكي يذهب إلى أحد الهياكل كنت تجد حوله جمعاً من حثالة الشعب، وخصوصاً تسيّبات حقيرات وصبية ورجالاً ذوي ماضٍ سيء لا يكادون يقدرون أن يواجهوا المجتمع لأنهم المكروه المخجلة، يجتمعون حبياً حول الملك الماشي. وفجأة يظهر كهنة ومحصيون... ويقص المشاهد والأخبار القديس يوحنا الذهبي الفم الذي كان ابن سبع سنين في ذلك الوقت، فرأى ما رأى بنفسه وسمع من غيره كل ما كان من أمور الملك يوليانوس في انطاكية. ومما قاله «إن الملك كان يسير ويحيط به هذا الموكب من الزناة والزواني... وكان الملك يشرب الخمر علناً وأمام الجمهور مع الزواني ويرتكب الموبقات... ولست آتي بشيء من

عندي بل ما رأيته وما سمعته أخبر به. وهنا شيوخ لا يزالون أحياء يمكن سؤالهم عن حقيقة ما أقول حتى لا يُظن أني أقول شيئاً من عندي». ثم يزيف الذهبي الفم الملك ووثنيته، «ذاك الملك الذي أسلم نفسه مرة واحدة هزء الشياطين والذي ترهو به آلهته التي يعبدها، ويا للعار! إن الوثنية تسمح بكل هذه الأمور التي كان يتعاطاها الملك الماكر الشقي يوليانوس طارحاً كرامة الملك وجالباً سخرية الشعب».

أصدر يوليانوس مرة أمره بمنع التصفيق والهتافات له أثناء زيارته للهياكل نتيجة استقبال صاخب جداً استقبل به في زيارة قام بها لهيكل تيخي. وعُلّق هذا الأمر على جدران شوارع انطاكية بالصيغة الآتية: «إذا اتفق أن أدخل، خطاء إلى المسرح، فاهتفوا لي وحيّوني، أما إذا دخلت إلى الهياكل فالتزموا الهدوء وانقلوا الهتاف إلى الآلهة. ولكن الآلهة لا تحتاج إلى الهتافات والمدائح». ويروي ليبانيوس أن يوليانوس نزل مرة إلى هيكل زفس الواقع في المدينة السفلى فجرى ما يأتي: كان في الهيكل وزة قدمها أحد الوثنيين إلى زفس، وكانت تعيش هادئة. وقد كانت الوزة طوال الوقت، تمشي على الأرض ولا تطير. ولكن في ذلك اليوم الذي فيه قدّم يوليانوس الضحية للهيكل، ما أن أدخلت النار إلى الهيكل حتى قفزت الوزة فجأة إلى الفضاء وطارت دائرة ثلاث مرات حول الرفوف الخارجية وطارت متجهة نحو الشرق. وكانت دهشة الكل عظيمة إذ تذكروا أن زفس كان قد تحوّل إلى وزة (أو طائر عندي). وقد فُسر هذا الفأل بأنه يعني الانتصار الراهن مع الفرس.

كل هذه الأمور كانت تثير فضول الانطاكيين البارعين في الكلام والتعليق. وكانوا يضحكون عندما يرون يوليانوس يوجّه نظره بقلق إلى تحليقات الطيور ويفسّر الطوالع والفأل. وقد قدّم هو بنفسه الضحايا فأخذ يذبح مئات الكباش والخراف وما لا يعد من الماعز والطيور البيضاء البرية والبحرية، والثيران وخصوصاً البيضاء منها حتى خشي الكثيرون أن تنقرض الثيران البيضاء، وصح فيه ما قيل قبلاً بالامبراطور مراكس الربليوس وهو القول الذي كان يردده الانطاكيون هزئاً: «إن الثيران البيضاء تسلّم على ماركس اوريليوس. إذا عاد منتصراً أهلكتنا الخسائر». وكان يوليانوس ينقل الحطب بنفسه إلى المذابح ويوقد نارها ويذبح الضحايا حتى لتغرق قدماه في الدم الجاري كالجدول

ولكنه كان يقوم أيضاً بضحايا ليلية وباستنطاق الأموات وكانت تُذبح فيها البنات والأولاد «مالئاً، يوليانوس، بجثثهم الآبار والأجباب والحُفر وتهز المعاصي» حسب قول القديس غريغوريس اللاهوتي.

ولكن يوليانوس لم يستطع، بكل هذه الوسائل أن يحرك اهتمام الوثنيين بالديانة. ففي عيد أبولون الفتي أسرع من جبل كاسيون، حيث كان موجوداً، لينزل إلى دفني لكي يشارك في الاحتفال الكبير. كان يتصوّر أنه سيرى موكباً عظيماً من الكهنة والمشاعل والبخور والأجواق والشبان حول مقام أبولون بالقمصان البيضاء وبأبهى الزينة والملابس، ولكن لما دخل الهيكل وجده فارغاً، وظن أنه موجود خارج الهيكل. وسأل أية ضحية ستأتي بها المدينة في العيد السنوي لأبولون. فأجابه الكاهن أنه لم يقدم أحد شيئاً سوى وزة قدّمها هو بنفسه. فاهتاج وغضب ووبخ الانطاكيين لعدم اهتمامهم بالدين وشؤونه. وقد ظن أنه كان يجب على الانطاكيين أن يقدّموا بحسب عائلاتهم، كل عائلة ثوراً أو يقدّم كل السكان تقدمة واحدة ثوراً على الأقل. ولكن خاب أمله حين رأى الكاهن وحده هو الذي قدّم وزة. وقد عاب يوليانوس الوثنيين الانطاكيين أيضاً لأنهم كانوا يسمحون لزوجاتهم بأن تقدمن المساعدات للجليليين؛ كما كان يدعو المسيحيين بهذه التسمية، من أجل الفقراء ويدعمون «الإلحاد» الذي كان يعني به المسيحية.

ولكن يوليانوس ظهر لطيفاً أريحياً مع مدينة انطاكية، التي أراد أن يشتو فيها. وأعفى سكانها من بعض الضرائب والواجبات الحربية، وزاد عدد نوابها إلى المائتين وتكرم عليها بإنعامات أخرى. وكان الصيف الذي قضاه يوليانوس في انطاكية صيفاً جافاً. وبسبب عوز القمح ارتفعت أسعار الأغذية ارتفاعاً شديداً. واستمر يوليانوس بهوسه الديني يقدّم الضحايا للآلهة مستهلكاً النفقات الباهظة من أثمان الثيران وسائر الماشية والطيور. وإن يكن قد حدد أسعار الأغذية، وأمر بنقل القمح إلى انطاكية من خلكيذا وجرابلس وسائر انحاء سورية حتى ومن مصر نفسها، إلا أنه خفض الأسعار إلى حد التسبيب بأزمة اقتصادية شديدة أنزلت الخسائر بأهل البلاد وأجبرت التجار على الابتعاد عن البيع والشراء في الأغذية. زد على ذلك وجود الجيش المنهوك في انطاكية وحاجته إلى الأغذية الكثيرة. تراجع يوليانوس عن بعض الأوامر والمراسيم ولكن الشعب الانطاكي لم يرتض بهذه الاجراءات وكان يزداد سخطه وتذمره وهو يسمع يوليانوس ينصح بضبط النفس والاعتدال، وأن يقدّم بنفس الوقت مئات الضحايا للآلهة، وأن يكون مشغولاً دوماً بالضحايا واستطلاع الغيب. وفي بعض الأيام قدّم ضحيةً تحت المطر، وكان قد علم أن أرض القسطنطينية كانت تهتز من زلزال شديد. وكان الوثنيون يعتقدون أن بوسيدون هو الذي كان يهز الأرض، وأنه باستعطافه فقط، كان يمكن أن يتوقف الزلزال. في ذلك اليوم الماطر، هبط يوليانوس إلى بستان القصر «متلقياً المطر بجسمه» في حين بقي الآخرون تحت السقوف ناظرين مندهشين، وتضرع يوليانوس إلى السماء طالباً متضرعاً.

واعتقد أن الزلزال توقف بعد توقف طلبة الملك «ولم يضر المطر بجسمه اطلاقاً» كما قال ليبانيوس. وفرح يوليانوس بأن «دُعي كاهناً أو ملكاً» غير أن الشعب الانطاكي بقي يسخر منه بألقاب هزلية مختلفة، فيدعوه «البهلوان» وغير ذلك وفي أحد أعياد الكرنفال الوثني كانت تُسمع بين أغاني انطاكية أناشيد سخرية يُسخَر بها من الملك ومن نواميسه ومراسيمه. فاستغضب يوليانوس وصرّح بأنه سيهجر المدينة المنكرة المعروف انطاكية، وسيُمضي الشتاء القادم في مدينة طرسوس. وعبثاً حاول ليبانيوس أن يهدّئ غضب الملك. وتابع حياته كما هي من جنونه بعبادة الآلهة والأضاحي ومطالعة الفأل والفلك. وألّف في ذلك الوقت مقالات «إلى الملك الشمس سالوستيوس» وإلى «أم الآلهة» كيفيلي وغيرها. ولما علم أنه اكتشف في مصر آبيس جديد أمر بسك نقود جديدة تكريماً له.

وكان يوليانوس يتردد بلا انقطاع إلى دفني الجميلة جداً في ضاحية انطاكية والتي كانت حسب رأيه أجمل مكان في الدنيا، لا يقابلها جمالاً سوى تمبّي بين أوسي وأولمبوس، وكان يأتيها لزيارة هيكل أبولون الشهير.

مقابل هذا الهيكل، وفي الوقت الذي كان فيه أخو يوليانوس وغالوس قيصر حاكماً على انطاكية، بنى المسيحيون كنيسة على اسم القديس العظيم في الشهداء بابيلا ووضعوا فيه رفاته الطاهر، وكان يُقام فيه سنوياً في يوم عيده احتفال كبير. وكان الوثنيون يتزعجون من هذا الاحتفال وهكذا استغلوا وجود يوليانوس في انطاكية فطلبوا ابعاد الرفات الشريف. واستفتح يوليانوس عرّافة دلفي من قِبل أبولون، فأفتى افساقيس الافلاطوني الجديد «السحّار» أن أبولون يُمنع من الكلام بسبب «الميت» الموجود. عندئذٍ أمر يوليانوس المسيحيين بأن يحملوا «الميت» من هناك.

اجتمع آلاف المسيحيين عندئذٍ في دفني وشكلوا تظاهرة كنسية كبيرة، ونقلوا من هناك النعش الحاوي الرفات المقدس وحملوه على عربة وهم يرتلون فيما رتلوا: «ليخز جميع الساجدين للمنحوتات المفتخرون بأصنامهم» (مز ٧:٩٦). وكان يُطاف بالنعش على طول الطريق. وعاد القديس الشهيد عودة المجاهد إلى مدينته ليحمل اكليلاً ثانياً حيث ألبس الاكليل الأول، حتى أن كل من يشكك بالقيامة يخزى خجلاً، وهو يرى أعمالاً أبهى وأبهر يأتيها الشهيد بعد موته. هكذا قال، فيما بعد، القديس يوحنا الذهبي الفم، وقد كان يومئذٍ غلاماً يتبع ما جرى. ولما علم يوليانوس بهذا، غضب وأمر بإنزال العقاب الشديد بالمسيحيين. فألقى سالوستيوس الحاكم القبض على كثيرين من المسيحيين وطرحهم في السجن، وعذّب منهم تعذيباً شديداً، شاباً مسيحياً يافعاً اسمه ثيودرس.

ولكن ليبانيوس أظهر ليوليانوس أنه لا يوافق أن يظهر شهداء جدد في المسيحية وأن يتعالى ويفتخر أتباعها. فأمر يوليانوس بأن يطلق من السجن.

ولكن من الغريب أنه بعد أيام من نقل رفات القديس الشهيد بابيلا في ٢٢ تشرين الأول ٣٦٢ شب حريق هائل في هيكل أبولون فأتى عليه وعلى تمثال ابولون الذي كان خارجه من الخشب المذهب وهو عمل فرياكسيس النحات الاثيناني. وقال المسيحيون إن الحريق نشأ من صاعقة سقطت على سقف الهيكل، وأما أصحاب يوليانوس فزعموا أن المسيحيين سببوا الحريق. وقد ألف يومئذٍ ليبانيوس «نشيداً مقفى إلى هيكل أبولون في دفني» ناح فيه على تلك المصيبة الفادحة التي حلّت بالوثنيين وقال: إن الليل الذي شب فيه الحريق بالهيكل كان ليلاً صاحياً في دفني وإن أبولون (هكذا) احترق من جراء وجود ميت بجواره مقاوم له». وبناء على ذلك فقد ربط الوثنيون سبب الحريق بإبعاد رفات القديس بابيلا. أمر يوليانوس بإغلاق الكنيسة الكاتدرائية في انطاكية، وكانت يومئذٍ بأيدي الآريوسيين. أما الأرثوذكسيون المنقسمون، مع الأسقف يومئذٍ، فإن اتباع ملاتيوس الانطاكي، كانت لهم كنيسة صغيرة وهبها لهم افذوكيس الآريوسي. وروى ماركلس الانطاكي قال: إن يوليانوس أمر بإغلاق الكنيسة الكاتدرائية فقط. ولكن يظهر أنه أمر، في غضبه بتهديم «المقامات» أي هياكل الشهداء. ولكنه لم يُقدم على التنفيذ. والذي جرى فقط هو سَلْبُ الآنية المقدسة وموجودات الهياكل، سَلَبها اهل بطانته. والبادر في عملية السلب هو عم الملك وسميه يوليانوس الذي مات فيما بعد ميتة شنعاء. فإنه لم يكتف بالسلب ولكنه سبّ وجدّف، ودنّس الموائد المقدسة والآنية الشريفة ورفس الأسقف الآريوسي افزوئيوس لأنه قاوم وعارض. وهناك أحد الكهنة اسمه ثيودوريطس، والراجح أنه آريوسي، ذاق موتاً استشهادياً. كذلك أُميت كلٌّ من فونتس ومكسيميليانوس من جنود الحرس لأنهما أبيا أن ينزعا من العلم أحرف اسم يسوع حسب أمر يوليانوس.
وفيما عدا هذه، تحاشى يوليانوس اعلان الاضطهاد ضد المسيحيين لأنه كان يعرف جيداً أنه سيتقدم كثيرون إلى الاستشهاد وستقوى المسيحية أكثر فأكثر. هذا ما قدّره وقاله فيما بعد كل من يوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس اللاهوتي «لأنه كما أن النبات إذا سُقي بالماء ينمو ويزدهر كذلك ايماننا نحن المسيحيين إذا حورب يزدهر ويقوى، وإذا أُزعج يتضاعف ويشتد. وهكذا الكنائس إذا سُقيت بدماء الشهداء تنمو وتزدهر». هكذا قال الذهبي الفم، ويقول هذا الأب نفسه أيضاً إن يوليانوس، وإن يكن قد تحاشى اعلان الاضطهاد علني على الكنيسة، إلا أنه استعمل وسائل جهنمية خفية. «وأمر مثلاً اطباء وجنوداً ومدرسي فلسفة وخطباء، أمرهم جميعاً أن يتركوا مصالحهم وأعمالهم، أو

أن يرفضوا إيمانهم. ولم يقف عند هذا الحد فقط، بل ذهب إلى محاكمة وقتل كل من نقض مذبحاً من المذابح الوثنية، أو هدم هيكلاً، في زمن الملوك المؤمنين، ليس فقط من عمل شيئاً مثل هذا، بل من اشتبه به اشتباهاً لا غير. وتعلل على المؤمنين ألف علة وعلة ليأخذهم بزلة وذنب. وهكذا كان يقتل الشهداء بزلة وعلة حتى يسوِّد أكاليل الشهادة ولا يُظهر فضل الشهداء. وهكذا فقد أثار على الكنيسة اضطهاداً صامتاً بغير إعلان. منع المسيحيين من مزاولة الأعمال الحرة، وحُرموا من قول الحق، وأبعدوا من النقابات والمحاكم والاحتفالات وغيرها، لأن الذي كان يريد أن يجهر دعوى، كان عليه أن يقدم ضحية ويلقي البخور على المذابح القائمة أمام المحاكم. فكان المسيحيون يُجَرُّون كمحكوم عليهم ويُعدَمون، الفاعلون والمتهمون على السواء. ولذلك كان البعض يختفون في بيوتهم أو يقطنون القفار أو يتيهون في الأسواق. ومن مفارقات الشذوذ وسوء المعاملة في هذه الحال أن ابن كاهن هيكل دفني أبولون جاء إلى المسيحية هرباً من والده الذي اضطهده وطرده، فناله العذاب من يوليانوس ومحاكمه. والأغرب أن هناك ممن جحدوا إيمانهم المسيحي ومنهم اكليريكيون ماتوا في حال يرثى لها من التعذيب في انطاكية مثل ايرون أسقف نيقانيذيس الذي انكر المسيحية ومثله كاهن انطاكية ثيوتكس.

وما عدا هذه فإن هناك نساء واجهن بتحدٍ وبشجاعة هجوم يوليانوس وأصحابه مثل القديسة بوبليا. هذه كانت شماسة ورئيسة رابطة بعض العذارى المنذورات لله. واتفق أن يوليانوس اجتاز في بعض الأيام ذلك المكان الذي كانت تقيم فيه مع بعض العذارى، في ساعةٍ كانت ترتل فيها تراتيل لله. ولما أخبرت أن يوليانوس مجتاز، رفعت ترتيلها حيناً وعالياً حتى يسمع إلى الشارع. وكانت ترتل من مزامير داود: «أصنام الأمم فضةٌ وذهب أعمال أيدي الناس فليصر مثلها صانعوها والمتكلون عليها» (مز ١١٣: ١٢). ففهم يوليانوس أنهنّ تنشدن ضده وأمر أن يسكتن. ولكن بوبليا ومن معها رفعن أصواتهم ورتلن: «ليقم الله ويتبدد جميع اعدائه» (مز ٦٧: ١). عندئذٍ أمر يوليانوس أن يؤتى ببوبليا إليه. ولما أتي بها، لم يحترم شيخوختها بل أمر أحد حرسه أن يضربها على هامتها بكلتا يديه، فهشم رأسها ومضى تاركاً تلك المسيحية الشجاعة مضرجة بدمها، وقد اعتبرت ما أصابها فخراً لها، وتابعت ترتيلها مع جوق العذارى.

كانت انطاكية تجتاز أياماً رهيبة صعبة. وافتقدها الله بشخص الكاهن الشهير ثيوذُرُس كأنه ملاك تعزية للمسيحيين، وهو الذي، كما عرفنا سابقاً، كان يدود من وفي مكتبه عن حياض المسيحية ضد الآريوسيين، وفي هذا الظرف قام بدور النضال عن

المسيحية ضد يوليانوس العاصي. كان ذيوذُرُس تلميذ أثينا، تلقى فيها علومه العالية، فلم يطق يوليانوس أن يبقى هذا مسيحياً ولا يهجر إلى الوثنية بل أخذ يحاربه بثقافته الواسعة. ولما ألّف يوليانوس كتابه «ضد الجليليين» كان يهدف، كما يظهر، أن يرد على موقف ذيوذُرُس. وقال عنه، فيما قال، من رسالة كتبها إلى فوتينوس أسقف سيرميوم: «... أما بشأن ذيوذُرُس هذا الساحر الناصري، هذا الذي إذ يغطي جهالاته بألوان حججٍ من تنكره، ظهر فيلسوفاً متوقد الذهن في ديانة متخلفة... فإذا تدّرتنا الآلهة وربات الفن وتيخي سنبرهن عجزه، وسنكشف للناس كيف يفسد النواميس والتعاليم والأسرار اليونانية، وكذا الآلهة الأرضية. أجل سنبرهن له كيف أن إلهه الجليلي الجديد الذي تمثله أخباره أنه إله أبدي، إنه موجود فعلاً بموته المخزي ودفنه، ما عدا الوهيته التي يتكرها له ذيوذرس... على حساب المصلحة العامة اجتاز هذا الإنسان البحر، ووصل إلى أثينا ودرس الفلسفة. ومن قلة الحياء، أنه يسارُ تعليم ربّات الفهم، وأن يستعمل أساليب الخطباء ليسلّح لسانه الدنس ضد آلهة السماء هذا الذي يجهل أسرار اليونان. هذا الشقي الذي شرب الضلالات التي نشرها أناسٌ جَهَلة فاسقون هم الصيادون اللاهوتيون. ولهذا السبب فقد لقي، منذ زمن، عقابه من قبل الآلهة. وفعلاً فإن حياته هي، منذ سنوات، في خطر. وإذ حل به السل فهو يتعذب عذابه الأخير. جسده منهوك القوى متغضن الجلد. خداه مجوّفان وليست عليه سمات فيلسوف السلوك والمثال كما أراد أن يخلع عليه المغترون ذلك، بل سمات عدالة العقاب الذي عاقبته به الآلهة. وإذ ضُرب الضربة التي يستحقها ستبقى له حتى آخر لحظات حياته المرارة والألم وسيبقى له وجهه الشاحب المشوّه». كتب يوليانوس هذه الأمور الغريبة المنكّرة معتقداً أن الآلهة عاقبت بالمرض ذلك المناضل الشجاع عن المسيحية، الذي كان يعيش حياة تقشفية شديدة والذي عاش عمراً طويلاً على الرغم من آمال الجاحد الصبيانية، ولمع كلاهوتي ورجل كنيسة كما سنرى.

والحالة الرهيبة التي كانت تسود في انطاكية كانت تتمثل في مدنٍ أخرى من سورية والبلدان المحيطة، بسبب قيام الوثنيين ضد المسيحيين. وأول من ثاروا هم سكان غزة المتعصبون. ثاروا ضد السكان المسيحيين في بلدة مايوما التي اقتطعها قسطنطين الكبير من غزة وجعلها ذات إدارة محلية ذاتية وسميت قسطنسية، ولكن يوليانوس ألغى، بناءً على طلب الغزيين هذا الاستقلال وأعاد ارتباطها بغزة. وهجم سكان غزة على أهل مايوما ثم انقضّوا على دير القديس ايلاريون الواقع قرب المدينة ودمروه مستقلين على أمر من يوليانوس. وأضمروا أن يقتلوا من مدينتهم مسيحيين كثيرين آخرين. وخصّوا منهم ثلاثة اخوة في أسرة واحدة هم: افسابيّس ونستاقيّس وزينن أمسكوهم وجلدوهم بضراوة

وطرحوهم في السجن، «ثم اجتمعوا فيما بعد في المسرح فاهتاجوا وافتروا عليهم بعدة أمور واتهموهم بسبب المقدسات الوثنية وقذف الديانة والثقافة اليونانية فيما مضى من الوقت» وقت الحريقة» وبعد ذلك قتلوهم وأحرقوهم. وأخلى المسيحيون كلهم مدينة غزة نجياً للقتل من الوثنيين الهائجين. وقد لجأ أحد المسيحيين من غزة إلى بلدة انثيذون البعيدة مئة ميل عن غزة. وطارده الوثنيون حتى هناك. واعتقل حاكم غزة بعض الغزيين من أجل ما اقترفوا من أعمال وحشية ضد المسيحيين، ولكن يوليانوس عزله من الإدارة ونفاه. وبناء على مثل هذه الاجراءات التعسفية من قبل يوليانوس لا يُستبعد تصديق اخبار الوحشية الآتية: في عسقلان وغزة طورد رجال الكهنوت واغتصبت العذارى، ونُثرت الأحشاء، وحُشِيَتْ بالشوم ثم طُرِحتْ طعاماً للخنازير. واقترفت أمور مشابهة في بعلبك سورية. وفي أماكن أخرى اختصبوا راهبات الأديار أو أكرهوهن على التزوج من الوثنيين. وذاق موت الاستشهاد في مدينة بعلبك الشماس كيرلس وبعض العذارى. وفي مدينة حماة احتل الشعب، في احتفال صاخب معربد، كنيسةً ونصبوا فوق المائدة المقدسة تمثال فاكخوس، ومات أسقف بعلبك افسطاثيوس من الحزن. وتحولت الكنيسة الكاتدرائية في حمص على يد الغوغاء إلى هيكل فاكخوس وزادوا على ذلك أنهم نبشوا «قبور الجليليين». وكتب يوليانوس أنه قد أصدر أمراً بتدمير «قبور الملحدين» وقد أثارت هذه الأعمال القسرية الفظيعة الوثنيين على المسيحيين في بعض الأماكن، كما في ميسيا وفريجية وقيصرية حيث ذاق الكثيرون موت الاستشهاد. وفي بانياس قلب تمثال المسيح واستبدل بتمثال يوليانوس. وفي سباسطية أُتلفت رفات القديس يوحنا السابق. وفي سكيثوبولس (عسقلان) نُبش قبر الأسقف بتروفلوس. وفي عمواص رُدمت البئر التي قيل إن المخلص استراح عندها هو وتلاميذه. وفي بصرى التي كانت من مدن عبر الأردن مزدهرة بالمسيحية حدثت اضطرابات، فكتب يوليانوس إلى تيطس أسقف بصرى وإلى الاكليروس فجعلهم مسؤولين عن الاضطرابات. فأجاب تيطس قائلاً: إن المسيحيين في بصرى، مع أنهم مساوون في العدد للوثنيين، بقوا هادئين مستجيبين لتوصيات الملك. فكتب عندئذٍ يوليانوس إلى سكان بصرى يحثهم أن يطردوا الأسقف المسيحي لأنه، ضمناً، دسّ بين السكان، ولولا توصيات الملك لكانوا مشاغبين. وفيما عدا هذه الأحداث التي يعتبرها الثاولوغس «برنامج اضطهاد أرهب وأقوى أثراً من الاضطهادات الرسمية العامة»، فإن يوليانوس لم يشأ أن يظهر متحيزاً للديانة الوثنية. استدرك فقال في الرسالة نفسها: «لا نريد أن نجر أحداً (من المسيحيين) سراً إلى مذابح الآلهة، بل نخاطبهم

قبل ذلك بوضوح. حتى إذا أراد أحد أن يشارك في عادات اغتسالنا واحتفالاتنا، لزمه أولاً أن يقدم ضحية تكفير، وأن يلتمس العفو من الآلهة المستعاذ بها[*].

وشاء يوليانوس أيضاً أن يعزز الوثنية في فلسطين، فعظّم من شأن الديانة اليهودية وامتدحها. وقال إن كل ما هو حسن في المسيحية مسروق من اليهودية، وأظهر رغبته في زيارة أورشليم. وتجرّأ به اليهود فأحرقوا كنيستين في انطاكية ودمشق، وكنائس في عسقلان وبيروت والاسكندرية وطعنوا بالمسيحيين المكروهين طعناً فظيعاً. وإذ قصد يوليانوس أن يكذب نبوّة المسيح حولَ خراب هيكل سليمان النهائي الدائم عزم على اعادة بنائه. وبدأت فعلاً عمليات البناء، فجاء زلزال ونار نسفت البناء والبنائين. ومع فشله هذا استمر يوليانوس يحمي اليهود مانحاً إياهم امتيازات كثيرة، وواعداً بأنه سيعيد بناء أورشليم وسيجعلها عاصمة له، وذلك بعد الحرب الفارسية. وكتب إلى بطريرك اليهود أن يصلي «إلى الإله الخالق الأعز، الذي جعله مستحقاً أن يُتوّج بيمينه الطاهرة».

وذكر المؤرخ الكنسي ثيودوريتس الانطاكي أنه أثناء ثورة الوثنيين على المسيحيين، مُثلت في عدة أماكن مسرحيات أيسخيلوس وسوفوكلي، واقتضى الأمر فخفخة ونفقات كثيرة. ويقول غريغوريوس اللاهوتي: «إن الوثنيين دنسوا بالدم المدنس مذابح الذبيحة الغير الدموية الطهور بتلقيبهم بها مذابح الكفر والإلحاد، ورجسوا المقادس، وسلبوا الآنية المقدسة، وشتموا الكهنة الورعين واهانوا حشمة الشمامسة، وحياء العذارى، وأوقدوا النار في قبور الشهداء، وأتلفوا رفات القديسين بالنار، وأهانوا العظام الشريفة». وقتل الوثنيون في الاسكندرية الأسقف الآريوسي جاورجيوس البغيض فأسف يوليانوس لأن القتلة لم يكونوا مسيحيين لكي يعاقبهم، واكتفى بأن يوبخهم. ومن شدة كرهه للمسيحيين بقي غير آبه لما سمع وعلم من تعذيبات أسقف الرستن مرقس الذي كانت قد سبقت إليه منه حسنة. علم يوليانوس أن أهل الرستن الوثنيين قد أمسكوا الأسقف الشيخ، لأنه كان في زمن قسطنديوس، قد هدم هيكلاً وثنياً وبنى عوضه هيكلاً مسيحياً، وطلبوا منه إما أن يعيد بناء الهيكل الوثني أو أن يدفع نفقات هيكل جديد. وإذ رفض غير قادر على الدفع، جلدوه بوحشية وتفننوا في تعذيبه: دهنوه بالعسل في هاجرة الصيف الحرق وعلقوه على

(*) بنتيجة اوامر يوليانوس هذه عادت الوثنية الى عدة اماكن من المقاطعة العربية، ونادى بتشييد هياكل وثنية. وقد زار يوليانوس نفسه هيكل ابولن في عنز وقدم ضحية.

شجرة حتى انقضّت عليه الزنابير والنحل لسعاً، وزاد عليه الأولاد نخساً برؤوس الأقلام. في وسط تلك العذابات الرهيبة كان مرقس يقول لهم أنتم أرضيون ومثل نبات الأرض، أما أنا فعالٍ ومعلق في الفضاء.

ذكرنا سابقاً أن القديس أثناسيوس أسقف الاسكندرية كان من بين الأساقفة الذين عادوا إلى مراكزهم الأسقفية بموجب أمر يوليانوس. ولكن ما إن علم يوليانس من وثنيي الاسكندرية أن أثناسيوس استأنف نشاطه بعد عودته، حتى كتب إلى الاسكندريين يقول إنه حين أمر بعودة الأساقفة المنفيين، لم يكن يعني أنه تعود إليهم رتبتهم. وقد حرّر مشعلاً إلى حاكم مصر يأمره بما يلي: «أقسم بسرابيس العظيم أنه إذا لم يخرج عدو الآلهة أثناسيوس من الاسكندرية، بل من كل مصر، قبل شهر كانون الأول، لأغرّمنك بمئة رطل من الذهب، أجل وحقّ الآلهة جميعاً إذا سمعت وعلمت أن أثناسيوس لم يكن قد غادر أراضي مصر. اثناسيوس الدنس! آه منه! وهو الذي تجاسر وعمّد نساءً يونانيات، نساء الرجال المرموقين! فليُطرد». وهكذا خرج إلى المنفى أثناسيوس الكبير ولكنه قال عن يوليانس قولته المشهورة: «سحابة وسريعاً تزول».

وحدثت، في ذلك الوقت، أحداث طبيعية وظواهر غريبة، اعتبرها المسيحيون المضطهدون بيان غضب إلهي بسبب جحود الملك. واعتبرها بعض الوثنيين انذاراً من أجل الحملة المهيأة لحرب الفرس.

ففي انطاكية التي كانت تتميز بوفرة مياهها نقصت فجأة مياه الينابيع إلى حد خطر الانقطاع. ورأى الانطاكيون بدهشة يوليانوس يقدم ضحية لعرائس الآلهة. وأتت أخبار زلازل وغرق من فلسطين وليبيا واليونان وصقلية. وأصيبت نيقوميذية، التي دمرت في ٣٥٨، بزلزال جديد في ٣٦٢ أحست به القسطنطينية. وكان ليبانيوس قد أنشأ سنة ٣٥٨ قصيدة في نيقوميذية نادباً المدينة ومادحاً إياها بنفس الوقت «المدينة التي انمت الآداب، واكتسبت سمعة لم تكن لها». واستدعى المعلّم الملك بأقوال اسطورية اخرى مستنداً إلى الايمان بالآلهة، وجاءه وفد من اهالي نصيبين على حدود دولة الفرس ينبئونه بالزحف الفارسي ويطلبون النجدة، ولكنه لفرط استسلامه إلى الآلهة الكاذبة، إذ أعلم أن أهل نصيبين هم مسيحيون «هدّد بعدم مساعدتهم وعدم قبول وفدهم إذا لم يغيّروا دينهم ويعودوا وثنيين».

في غرّة كانون الثاني سنة ٣٦٣ أعلن يوليانوس إيبتُس (رئيساً أعلى) في انطاكية أي اتخذ رتبة الرئاسة السنوية للمرة الرابعة. وبهذه المناسبة تلا ليبانيوس خطاباً بليغاً جداً: «إلى

يوليانوس الامبراطور الرئيس، امتدح حكمة يوليانوس واخلاصه للآلهة وعمله بوجه عام كملك، وحياته في انطاكية، وتمنى له أن «تمشي حملته في سوس (العاصمة الفارسية)، والفرس سُكّانها». وبمناسبة اتخاذه الرئاسة الرابعة نزل وصلى في هيكل زفس وفي هيكل تيخي. ومن حذره الدائم وتشاؤمه، تملكه يوماً الخوف من حادث جرى أمامه: وهو أن أحد كهنة هيكل تيخي الذي زاره يوليانوس بعد زفس، سقط ميتاً فجأة، فتصوّر أصحابه أن هذا الحادث هو «علامة مأساة» كما سجل ذلك اميانوس ماركيلنس الانطاكي الذي أضاف قائلاً: قال البعض مازحين، وقال البعض غالقين، إن الحادث لا يتعلق بيوليانوس بل بشخص سالوستيوس الذي اتخذه من بطانته في رئاسته. وقد تم ذلك موت أقرب الناس وأحبهم إليه من بين معاونيه وهو عمه وسَمِيّه يوليانوس الذي أحزنه موته كثيراً. زاد في حزنه أن الانطاكيين شياطين الكلام كانوا يرددون المكتوب على ضريح «يوليانوس فيلكس يس اوغسطس» فكانوا يتمتمون: مات فيلكس ومات يوليانوس والآن يأتي دور القيصر. وبات الجميع يحلم بعضهم الشعور بأن عصبية قوية كانت تحوم حول يوليانوس. هذا ما أضافه في كلامه اميانوس ماركيلنس الانطاكي الذي سجل هذه الأحداث. ولهذا السبب صار يوليانوس أسوأ ظناً بالمسيحيين. وحدث أن جنديين مسيحيين انطاكيين هما ايوفنتيوس ومكسيمنس كانا يتسامران مع رفاقهما من الجند منتقدين الملك لأجل سياسته الدينية. أخذا يتلهفان على ما فات ويندبان الحالة الحاضرة قائلين: «وهل تستحق هذه الحياة أن نستمر فيها؟ كيف نتنفس ونرى هذه الشمس، وقد ديست النواميس المقدسة، ومُنِعت العبادة الحسنة، وأُهين الرب خالق الخليقة كلها؟ في كل مكان رائحة الدخان والدسم من شحوم الذبائح الدنسة وصرنا لا نستطيع أن نستنشق هواء نقياً». ونقلت إلى مسامع يوليانوس كلمات هذين الجنديين التقيين، فاعتبرهما مشاغبين وأمر باعتقالهما وسجنهما ومصادرة اموالهما. ويقول الذهبي الفم: «كان الشهيدان في القيود وكل المدينة كانت تنصب وفودها عليهما افتقاداً». وحاول يوليانوس بواسطة مرسلين سراً أن يقنعهما بأن يكفرا بالمسيحية مقابل اعلاء رتبهما وتكريمهما، فوق اعفائهما من الموت. ولكن الجنديين المسيحيين بقيا ثابتين في ايمانهما المسيحي، والمؤمنون المتقاطرون اليهما يواصلون ترتيل المزامير ويحيون السهرات المقدسة بالصلاة وسماع التعليم بحيث انهم «جعلوا السجن كنيسة حين أغلقت الكنيسة»، أي أن يوليانوس إذ أمر بإقفال الكنيسة تحوّل السجن إلى كنيسة. وإذ عجز الملك عن اقناع السجينين ورأى هياج المسيحيين الانطاكيين يتزايد ويشتد، حكم على ايوفنتيوس ومكسيمنس بالموت. وفي ٢٥ كانون الثاني ٣٦٣ اقتيد الجنديان في جوف الليل إلى هوة وقطع رأساهما.

وزاد هذا الحادث في ضيق المسيحيين. ولكن السكان الوثنيين أيضاً تألفت عندهم دواعي انزعاج من اقامة الملك سبعة أشهر في مدينتهم مع جيشه الكثير العدد، ومن جنون الملك بتقديم الضحايا اليومية. وبينما كانت الأغذية يكاد يندر وجودها في انطاكية، كان الشعب ينظر الجنود يلتهمون لحوم البقر والذبائح الأخرى منصرفين إلى الموبقات والقبائح. واذن فقد اتحد المسيحيون والوثنيون على كره عظيم للملك يوليانوس. وكانوا يقولون إن الـ XII «خي» لم يظلم المدينة (انطاكية) في شيء ولا الكاف «كاپا» ولم يفهم يوليانوس اولاً هذه الكلمات الرمزية. ولكنه تحقق أن الـ «خي» تعني المسيح في الحرف الأول من اسمه «خريستوس» والكاف «كاپا» تعني كسطنديوس. وهكذا فقد كان الأنطاكيون يقولون انهم لم يروا أذىً من المسيح الذي كان يوليانوس يحاربه، ولا من الامبراطور كوسطنديس. وإذا كان كوسطنديس قد فعل شراً فإنما فعل شراً واحداً هو أنه جعل يوليانوس قيصراً ولم يقتله! راحوا بعد ذلك يسخرون من كل تصرفه ومسلكه. كانوا يرددون اشعاراً صبيانية بها ينصحون الملك بأن يقص شعر عارضيه، أي أن يحلق لحيته الطويلة. كانوا يسمونه «عقرباً أسطورياً» (كيكلوب تراغون) ناصحين إياه بأن يصنع حبالاً من لحيته وهازئين من صورته على النقود بلحية فلسفية طويلة، حتى صار هو يقول: إن الانطاكيين يرشقونني بسهام تهريجاتهم ومسخراتهم، فكيف إذن سأحتمل سهام الفرس؟

على أن يوليانوس جاءته الفكرة بأن ينتقم من رعاياه بنفس الطريقة من التهريج والمسخرة. فألّف يومئذ مقالته «انطاكي» أو «مبغض اللحية» مقابلاً بين حياته وأخلاق الانطاكيين المتحللة، وحاولاً أن يبرّر طرائقه الغريبة. قرّع الانطاكيين العاقين وأظهر عزمه على أن يبتعد عن مدينتهم نهائياً ذيما أنه ساءكم طول اللحية وعدم الاهتمام بالشعر والزي والخدام، وقلة الظهور وعرض الذات في المسارح، والطلب من الكهنة أن يكونوا موقرين محتشمين، وارضاء الأهواء بالطمع والفضول وحديث الأسواق، فقد آثرنا مختارين أن نبتعد عن مدينتكم».

وفي هذا المؤلف يهاجم يوليانوس المسيحية، كما فعل في المؤلفات الأخرى وفي رسائله. وقد وصلت إلينا منه بعض الأوامر الادارية وبعض المراسيم والقوانين ضد المسيحيين. والغرض الأول من كل ما كتب هو مساعدة الآلهة، والدفاع عن ديانة كثرة الآلهة، ومحاربة المسيحية. وتختلف مثلاً، ما قاله ليبانيس حول مقال يوليانوس «إلى الإله الشمس»: «هاجم فيه الكتب التي تصنع من انسانٍ من فلسطين، إلهاً ابن الله، في جدال

طويل مظهراً مدى هذا المعتقد. على أن يوليانوس وضع كتاباً خاصاً في مهاجمة المسيحية عنون فيما يرجح «مقالات ضد المسيحيين» وهو مقسوم إلى ثلاثة أو سبعة كتب. وقد وصل إلينا قسم منه عرضه لينقضه القديس كيرللس أسقف الاسكندرية (٤٤٤ +). وليس كيرللس وحده هو الذي دحض أقوال يوليانوس، بل وغيره من آباء الكنيسة دحضوا وفندوا وسفهوا ما كتبه وما عمله يوليانوس ضد المسيحية.

وكان يوليانوس ينوي أن يهاجم المسيحية بصورة أكثر تنظيماً ودقةً وعلميةً بعد عودته من حرب الفرس الذي كان قد استعد لها بقوة رافضاً، كما قلنا، مقترحات الفرس حول السلام، وآملاً أن يستعيد انتصارات الاسكندر الكبير[*] متغلغلاً في الدولة الفارسية. وكان قد جهز تجهيزاً كاملاً جيشاً مؤلفاً من ٦٥ ألفاً مدرباً تدريباً حسناً. خرج من انطاكية في ٥ آذار ٣٦٣ على رأس الجيش. وقد شيّعه جموع من الانطاكيين متمنين له النجاح في حملته وعوداً إلى انطاكية. ولكن يوليانوس كان يصرّح أنه لن يعود إليها، وكان قد أوصى بأن يُهيأ له مكان إقامة في طرسوس. وقال: «أذهب من مدينة مليئة بالشرور والشتم والسكر والفوضى والكفر، وحب المال، والوقاحة وانتقل إلى مدينة أفضل». وبعد مغادرته انطاكية شاع بين المسيحيين أنه وجدت في العاصي جثث مختلفة وهي إما جثث مسيحيين مقتولين ومرميين في النهر، وإما ضحايا بشرية قدمها للآلهة. وقد وُجد في القصر الملكي رفات مثل هذه الضحيات البشرية من ضحاياهم الملك من الأولاد والعذارى. ذلك حسب ما قاله آنفاً القديس غريغوريوس اللاهوتي كما أن الذهبي الفم أخبرنا عن مثل هذه الضحايا البشرية.

غادر يوليانوس انطاكية وانتقل إلى ليتوفا بلدة في خلكيذا، وصلها عند ساعات المساء، كما وصل إليها أيضاً مجلس شيوخ انطاكية لكي يتوسط في عودة الملك إليها بعد عودته من الحرب. ففطن الملك إلى أنهم إنما جاؤوه برأي معلمه ليبانيوس مع أنه قد منعه من التوسط من أجل انطاكية. وعندئذٍ صرّح أمامهم أنه سيأخذ ليبانيوس معه إلى طرسوس حين يصل إليها. ولما علم ليبانيوس بذلك كتب أولاً «الشفاعة إلى الملك يوليانوس» وإلى «الانطاكيين في غضب الملك». وفي المقال الأول يتوسّل إلى يوليانوس أن

(*) قال المؤرخ الكنسي سقراط: «ولقد حلم بأن يأخذ مجد الاسكندر الكبير بل أن يفوقه، محتقراً رجاء الفرس في السلم. وكان يعتقد حسب معتقد فيثاغوري وأفلاطون بالتقمص أن له نفس الاسكندر، بل هو الاسكندر نفسه بجسم آخر. هذا الوهم هو ما خدع به».

يعود أيضاً إلى انطاكية. وأما في الثاني فينصح الانطاكيين أن يسترضوا الملك المستغضب، بالندامة والتعقل. «فلنغلق المسرح إلى وقت قصير، ولنطلب إلى العازفين والمهرجين أن يعطوا ما يصيبهم إلى جيران المدينة وضواحيها. ولننقصْ من سباق الخيل، ولنجعله خمس مرات بدل خمس عشرة مرة، وهذا التنوير الكثير المهدور، والأغذية المستهلكة لنطرحْها للبيع. ولنحاكمْ أنفسنا بأنفسنا حتى لا يحل بنا عقاب الملك كرهاً، بل فلنجتنبهُ طوعاً...». ومن ليترفا انحدر إلى فيريا (حلب) وكتب إلى ليبانيُس أن «زفس أظهر له حسن الفأل سريعاً وبعلامة إلهية» وصعد يوليانوس إلى قمة حلب وقدم فيها لزفس ثوراً أبيض، وتكلم في مجلس الشعب حول الايمان بالآلهة وغير ذلك، ولكنه لم يكسب معونا من السامعين. وعارضه، على الأخص، نائب مسيحي غيور كان ابنه قد ارتد عن الايمان وطلب حماية الملك. ومن فيريا (حلب) انتقل إلى بلدة باتنا (سروج) فوجدها يونانية متمسكة بالديانة الوثنية. «في كل البلدة وما حولها كانت تتصاعد أدخنة البخور، وكنا ترى كهنة ورعين في كل مكان» هكذا كتب إلى ليبانيُس واصفاً هذه البلدة ومقابلاً بينها وبين تيمّبي تساليا ودفني انطاكية. «وكان السهل الممتد أمام البلدة وحولها مغطى بغابة من الشربين والسرو وكان فيها مياه غزيرة وبساتين. فقدّم فيها يوليانوس أيضاً ضحايا، وسُر لأن «الدينيات حسنة». ومن سروج انتقل إلى جرابلس على الفرات مجتازاً مدينة كورش. وجاء في التقليد أنه رأى في تلك المدينة جموعاً من الزائرين أمام مغارة كان يسك فيها ناسك اسمه دوميتُيس فأمر أن يُسد مدخل المغارة بجدار. ويذكر تقليد آخر، وهو المرجَّح، أن يوليانوس بعث رجالاً رجموا دوميتُيس (مار ضومط) ومن معه من النساك بالحجارة أثناء قيامهم بصلاة الساعة الأولى.

واستقبله أهل جرابلس، المدينة الكبيرة المزدهرة، استقبالاً حاراً. ولكن يوليانوس سُرّ خاصة لأنه وجد هناك سُوتيّون تلميذ ايا مليخس الافلاطوني الجديد والذي كان قد أضافه عنده. وجرّب يوليانوس، أثناء اقامته في جرابلس، مدة ثلاثة أيام، كما يظهر، أن يقنع الجنود المسيحيين الذين في الجيش أن يعودوا إلى الوثنية، ولكنه لم يجتذب إلاّ القليلين جداً، وخشي أن يأخذ الباقين بالضغط، لئلا يضعف الجيش. وأخيراً وفي ١٣ آذار ٣٦٣ اجتاز الفرات ودخل إلى القسم الغربي مما بين النهرين.

كانت عاصمة تلك المقاطعة أذيسا. ولكن يوليانوس لم يشأ أن ينتقل إليها وكانت الثقافة اليونانية مزدهرة فيها وكانت مدينةً مسيحية. وكان الفتيان يتعلمون الكتاب المقدس «بموجب تقليد الآباء» قبل أن يتعلّموا الثقافة اليونانية ويطلعوا على آثار الكتّاب

الوثنيين. كان المسيحيون هناك ارثوذكسيين. إلا أن قلة منهم كانوا مراطقة أريوسيين فالنتيانيين. وكان الآريوسيون قد استولوا، في زمن الامبراطور قسطنديوس، على الكاتدرائية في ادیسا وعلى كل الأملاك الكنسية. وقد احتجز يوليانوس كل ثروة الكنيسة للحاجات الحربية. وإذ كتب بهذا الشأن إلى حاكم اديسا اكيفوليوس قال رياءً وعمراً: وأنا استدين من «الجليليين كلهم» استدانة، بالوداعة والانسانية، حتى لا يؤخذ أحد بالعنف، ولا يُجر إلى الديانة قسراً، ولا يجاز بشيء من كل هذا خارج إرادته الخاصة». ولكن بما أن الآريوسيين تجبروا بالغنى وخطفوا أملاك الفالنتيانيين «حتى يسيروا من طريق أوسع إلى السماء» أمر بحجز كل الثروة الكنسية «حتى إذا افتقروا يتعلموا الحكمة والتعقل، ولا يحرموا ملكوت السموات الذي يأملون الحصول عليه». وفي آخر الرسالة يقول الملك: «نهيب بسكان أديسا أن يمتنعوا عن الشغب والخصومة، حتى لا يحركوا شعورنا فيدفعوا ثمن فعلتهم في تسبيب الفوضى للجمهور عقاباً بالسيف أو بالنار أو بالتهجير».

ومن هذا يتبيّن لماذا لم يذهب يوليانوس إلى أديسا. فتجاوزها إلى قاره وهي مدينة كل سكانها وثنيون. وفيها كان يُعبد القمر. وذكر المؤرخ اميانوس ماركلينوس الانطاكي، وهو الذي كتب وأرّخ باللغة اللاتينية، ان يوليانوس قدّم ضحية «دبي امو كوريسم» حسب العادة المحلية التي كانت تفرض تقديم ضحية سرية. وحضر مع يوليانوس، عند تقديم تلك الضحية السرية بروكوبيّس قريبه فقط وخلع يوليانوس وشاحه الأرجواني أمام المذبح وألقاه على بروكوبيّس قائلاً له أن يتولى الرتبة الامبراطورية إذا هو مات في الاصطدامات الدائرة مع الفرس. ويقال إن يوليانوس ختم باب هيكل القمر ذاك بعد تقديمه الضحية السرية، ومنع أن يفتح الهيكل حتى عودته. ولكن بما أنه لم يعد فتح الهيكل ووجد فيه امرأة ميتة معلقة بضفائر رأسها، ممدودة اليدين منزوعة الأحشاء. فاعتُقد أن يوليانوس ضحاها للتدليل على مآل الحرب.

ولكن عاقبة الحرب كانت وبيلة. وحتى لا ندخل في تفصيلات حول الوقائع الحربية نكتفي منها بأن نقول إن يوليانوس بعد أن جهّز اسطولاً قوياً على الفرات، انقضّ هاجماً على بلد ما بين النهرين وسيطر على عدة مدن، واجتاز الدجلة حتى حاصر طيسفون. ولكنه لم يبق على حصارها، بل أسرع وراء ملك الفرس شابور ومن معه من الجند في وسط مقاطعات غنية في المملكة الفارسية. غير أنه وجدَ نفسه تائهاً فاضطر إلى التراجع. ولكن الفرس حملوا عليه بنفس الوقت، في ١٦ تموز ٣٦٣ وكان تراجعه غير منتظم، ثم

أعاد الجيش تنظيمه في ٢٦ تموز واستمر يتراجع تحت ضغط العدو، ولكن يوليانوس أخذه ذعرٌ جديد بعد احدى المعارك المسائية. وإذ علم أنه أغير على حرّاس المؤخرة، انقض إلى ساحة المعركة بغير درع، ورُمي بحربة فخرّ ساقطاً. ويقال إنه ملأ كفه من دم جرحه ورشه في الفضاء قائلاً: «أيها الجليلي لقد غلبتني»(*) وفي الخيمة التي اضطجع فيها ليموت، وحين كان محاطاً بأصدقائه، راجع ماضيه، وبرّر ما عمله. وإذ طلب أعز أصدقائه اناتوليس، عرف من الرئيس سالوستيوس أنه «مغبوط» وكان يعني بذلك انه مات فبكى. انتظر موته بعدم تأثر فلسفي، وأوصى أن ينتخب خلف له مستحق وقال بصوت ناعم إنه أمر لا يستحق التعب حين يتدبون ملكاً صنع السلام بين السماء والنجوم. وقال حين تؤكد كل أعمالي أني سأدخل جزر المغبوطين فلماذا تبكون عليّ كأني مستحق طرطورس النار؟ وهكذا لفظ يوليانوس الشقي أنفاسه في منتصف ليل ٢٦ تموز ٣٦٣ ولم يكد ينهي الثالثة والثلاثين من عمره.

ولكن من هو الذي رمى الجاحد الشقي بالحربة القاتلة؟ إن ماركيليس الذي كان حاضراً عنده في اللحظات الأخيرة سجّل الحادث قائلاً: إنه غير معروف من أين جاءته الحربة، ومن الذي رماه بها! والقديس يوحنا الذهبي الفم المتتبع يومئذ من انطاكية تلك الأحداث الفادحة على الكنيسة قال عن موت يوليانوس إن قاتله مجهول. أما المؤرخون الكنسيون فسجلوا شائعات مختلفة. قال سقراطس المؤرخ: «وقعت عليه حربة من جهة غير منظورة، انطلقت من يد وتغلغلت في جنبه، ومن ذلك الجرح انتهت حياته». وبقي مجهولاً حادث هلاكه، لأن البعض قالوا إنه رُمي بيد فارسي مغامر، وقال آخرون بيد جندي من خاصته. وقال كاليستس من خاصة جنده وهو الذي أرخ حياته بشعر ملحمي: «إن شيطاناً رشقه فأهلكه». وقال نيوفورتس كوركس المؤرخ: «لم يعرف أحدٌ حتى اليوم، من الذي جلب عليه تلك الضربة العادلة إذ قال البعض إن الضربة جاءته من إحدى القوات الغير المنظورة. وقال آخرون إنها من يد احد رجال القبائل المدعوين اسماعيليين. وقال غيرهم إنها من يد عسكري يعاني من الجوع والقهر». وردّ شائعة قتله من قبل أحد جنوده القديسان غريغوريس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم. أما ليبانيس فكان يسعى إلى إلصاق التهمة بأحد المسيحيين. ولكنه هو وغيره من الكتبة ردّوا شائعة قتله من قبل أحد رجال قبائل العرب. وورد عند ليبانيس أن القاتل «رجلٌ طائي» أي من

(*) ذكر ثيودوريتس في تاريخ الكنيسة أن غريغوريس اللاهوتي دوّن اخباراً مختلفة، على أساس روايات مختلفة عن مغامرات يوليانوس الحربية.

قبيلة على المسيحية (طايانوس). ولكن هناك انتشاراً واسعاً كان للتقليد الذي يقول إن القديس الشهيد مركوريّس الذي استشهد في عهد ذاكيُس في كبادوكيا، هو الذي قتل يوليانوس بضربة غير منظورة. هذا التقليد ظهر أولاً بين السريان ثم شاع بين اليونان. وقد روى المؤرخ الانطاكي يوحنا ملالّس أن القديس باسيليّس الكبير أسقف قيصرية كبادوكية رأى في الحلم أن الشهيد مركوريّس هو الذي قتل يوليانس. وعن هذه الصورة أو بتغيير قليل، استمر هذا التقليد يروى عن كتبة محدثين، في سيرة الشهيد القديس مركوريّس.

وضع جثمان يوليانوس بسرعة في نعش. وبعد ساعات قليلة، في صبيحة ٢٧ تموز اجتمع القادة وضباط الجيش لإعلان الامبراطور الجديد. ظهرت محبة المجد عند كثيرين ولكن الذي أُعلن إمبراطوراً هو ايوفيانوس (٣٦٣ – ٣٦٤) واعترف به الجميع حالاً. وكان مسيحياً. وفي ٢٨ تموز أُعيد تنظيم الجيش على قدر الامكان، وفي تلك الأحوال الحرجة، وأخذ بالتراجع تحت ضغط الفرس الهاجمين على الرغم من الخسائر الكبيرة التي ألحقها بهم الجيش الامبراطوري الحامي في المقدمة. واقترح ملك الفرس معاهدة سلام، أعطيت بموجبها بعض المقاطعات للفرس، ونقل جثمان يوليانوس إلى طرسوس، وليس إلى انطاكية التي كان قد رفضها، ولهذا السبب أظهر الانطاكيون مسيحيون ووثنيون فرحهم العظيم بهلاك يوليانوس، أظهروه في الكنائس وفي المسارح. ولم يندب أحد يوليانوس إلا ليبانيُس وحده في انطاكية، فما كاد يبلغه الخبر الأول حتى ألف مرثاته بيوليانوس التي تشكل شعراً منثوراً وهي مليئة بذكريات الماضي اليوناني.

الحواشي

١) G.R. Sivers. Das Leben des Libanius, Berlin, 1868.

٢) Julianus, Epist. 78, Hertlein II. 603. 604.

٣) Amm. Marcellini. Rerum Gestarum a fine Cord. Tacitii, ed. Clark, Oxford 1910 - 18 XXI. 10.

ضد يوليانوس – الخطاب الأول

اسمعوا هذا يا جميع الأمم، وأصغوا يا جميع أهل الأرض، فاني أدعوكم جميعاً، كما من منبر يتوسط الدنيا، لسماع اعلانٍ خطيرٍ، وموعظةٍ جليلة! اسمعوا أيها الشعوب والقبائل، وكل جنس البشر من كل عمرٍ ومن كل لسان، ممن هم على قيد الحياة، وممن سيولدون! بل لأعظم الإعلان فأقول اسمعي يا قوات السموات والملائكة جميعاً، يا من نستنصرهم لهزم طاغية طغى في الأرض وتسلط. نستنصرهم الآن لا لهدم ملك الأموريين، أو عوج ملك أرض باشان، أو سواهم من زعماء الدنيا الصغار المتسلطين على مملكة اسرائيل، الجزء الصغير من خارطة العالم، بل لسحق التنين والوحش الفظيع يوليانوس المارق الجاحد، العقل المتكبر، العدو المشترك المحارب الكل، والمتوعد الأرض بأسرها، المتكلم بالظلم والساعي اليه في اوقح تصور، وادق تخطيط.

اسمعي يا سماء، وانصتي يا أرض. اقول هذا بلهجة اشعياء المدوي الصوت في الأنبياء، مع الفرق أن أشعياء يستشهد السماء والأرض على نقض اسرائيل عهد الله، أما أنا فاستصرخ السماء والأرض ضد طاغية، طغى وبغى، ونقض عهوده ومواثيقه الملوكية وسقط وقيعةً للكفر والإلحاد.

اسمعي أيضاً يا نفس قسطنديس، اذا كان لك ان تحسي معنا بما يجري هنا على الأرض. واسمعينا معها يا نفس قسطنطين الكبير المحب المسيح. لله انت يا قسطنديس! كيف صنتَ الديانة وحميتها وعززتها. ثم كان منك إهمال كبير لا يليق بتقواك، إذ ربيتَ للمسيحيين، بجهلٍ منك، عدواً للمسيح! اجل هذا كان فقط العمل الرديء بين كل الأعمال الانسانية الحسنة التي عملتها. انك جعلت هذا ملكاً علينا، وبئس الملك! واني لجاعلٌ بهذه المقالة نفس قسطنديس اكثر إحساساً بجميل ما صنع يوم أبطل الكفر والوثنية، واعاد المسيحية الى العالم. فها انا منشيءٌ مقالاً شكرياً لله أشرف وأنقى من كل ذبيحة وثنية جنونية لا بالقياس الى مقالات يوليانس وهذياناته المدنسة الخرقاء، ولا بالقياس أيضاً الى ما قدم من ذبائح أنجس وادنس من كلماته التي كان امتيازها وقوتها من قوة الكفر والجهالة والبعد عن الحكمة، اذا جاز ان اسميها حكمة، لأن كل قوة هذا

الدهر وحكمته تسير وتجوز الى الظلام، وتهوي بعيداً عن نور الحقيقة. فمثل هذه الحكمة الخاصة بهؤلاء الحكماء الجاهلين، والتي تنتج مثل هذا النتاج، تجف سريعاً مثل العشب، ومثل بقلة الحقل تسقط سريعاً وتذهب مع الرياح، وتتبع الآباء الذاهبين مع ضجيج هذا العالم والذين يُعرفون بين الناس بهلاكهم اكثر من كفرهم أو بالاثنين معاً.

فمن لي بمسرّح ومسرحية أقدم عليه اليوم ذبيحة حمد وتسبيح، وأضيء الشموع في هيكل ذبيحة الكلام الغير الدموية من أجل اعلان النعمة والمسرة؟! وأي لسان سيصدح بنغائم متجاوب الأصداء مثلما أريد وقدرَ ما اريد؟! ومن لي بالمسامع المرهفة المتجاوبة مع الكلام؟ لأن حلاوة الكلمة ليست وحدها هي التي تليق بالكلمة الالهية مع سائر الاسماء الحسنى، وهو يرتضي ويسر خصوصاً بهذه التسمية والمخاطبة، بل ان الكلمة واجب استعمالها مع ذلك الطاغي الشرير الذي يجب أن نسلقه بالكلام والمقالة اللاذعة، لأنه يتعدّى على فن الكلام باحتكاره اياه احتكاراً، وبمحاولته منع المسيحيين من معاطاة الخطابة والمقالة بلغة الأدب كأنها خاصة به وحده، وهو الذي يظن نفسه أعلم الناس جميعاً وهو أجهل الجاهلين!

فأول ما زعمه هذا الجاهل، على غير الجاري والمقرر، ان الأدب اليوناني هو تابع للديانة ومتعلق بها، وليس تابعاً للغة ومتعلقاً بها. وعلى هذا، اعتبرنا نحن المسيحيين متعدين وسارقين فائدة ليست لنا، ونزع منا حق الخطابة والمقالة بلغة الأدب اليوناني مثلما قد يستطيع أن يمنعنا من معاطاة سائر الفنون اليونانية الأخرى. هو ينظر الى الكلام، لا الى معرفة الحقيقة.

ونحن نحتقر، فوق الاحتقار، بلاغته في جهله وورثيته. ما أشدّ سُخفه، وهو يظن أنه يشمت بنا بحرمانه ايانا أهم المقومات ومستندات الديانة، كأن كل القوة انما هي في إحكام الجملة وبلاغتها. وليست في الحقيقة البسيطة التي وراءها. ونحن مستعدون أن نضحي بالكلام وبغيره، كما نضحي بالأجساد عندما يقتضي الأمر، ونجاهد في سبيل الحقيقة. وليعلم الذي أمر بمنعنا من استعمال اللغة الأتيكية (الفصحى) أنه لا يمنعنا من امتلاك الحقيقة.

وماذا تراني اقول؟ والخطاب يهيج ويقفز في داخلي وينزع الى روح العرض والاحتفال، واجداً سروراً وارتياحاً بكل ما أرى. ولأدعو الجميع الى مهرجان روحي. أدعو أولئك الذين ثبتوا وصمدوا بالأصوام والدموع والتوسلات نهاراً وليلاً ملتمسين

الخلاص من الأحوال الصعبة التي تملكتنا، وجعلوا الرجاء الذي لا يخزى بلسماً شافياً من المضرة والأذى... أدعو أولئك الذين تحملوا الجهادات العظيمة، والكفاح المرير وظروف الطوارىء الصعبة حتى صاروا معرضاً للملائكة والبشر على حد قول الرسول بولس. تهكت أجسادهم، أما نفوسهم فبقيت غير مغلوبة، واستطاعوا الغلبة في كل الميادين بالقوة التي أعطاهم إياها المسيح... ادعو أولئك الذين نفوا منهم مادية العالم، وسلطان الشر، وقبلوا بفرح انتهاب أملاكهم ودورهم، والذين أبعدوا ظلماً عن أوطانهم، والنساء اللواتي فصلن عن رجالهن والرجال الذين فصلوا عن نسائهم ووالديهم وأولادهم، ومن أعز أصحابهم، وحملوا بدم المسيح آلام المسيح. أجل كل هؤلاء جميعاً يمكنهم الآن أن يرتلوا ويقولوا: «اللهم انك اجزتنا في الماء وفي النار واخرجتنا الى الراحة».

أدعو ايضاً الى المعرض والاحتفال القسم الثاني من الناس الذين يعترفون بإله الكل ويتمسكون بما يعتقدون الى هذا الحد، ولكنهم لا يستطيعون ان يدركوا العناية الالهية التي كثيراً ما تستخرج الخير من الشر، وتنهض الساقط بصلاحها، واولئك الذين بسبب فقرهم وغنى أنفسهم يفزعون من الشرير، ولا يكون عندهم طول البال والصبر الى النهاية ويكونون عبيداً للموجودات والمنظورات. هؤلاء تلزمهم العجائب حتى يثبتوا في الحقيقة.

أدعو كذلك النفوس الخائفة والجزعة في مسرح هذا العالم العظيم! أدعوها بأقوال النبي اشعيا. «ايتها النساء الآتيات من المسارح هلمّ وتمثّلن بعين النفس، من الضلال، خارج النفس، إلى الهدى. انتبهن واعلمنّ انه هذا هو الاله الذي تمجد في الأمم، والمتمجد في الأرض كلها بجميع ما صنع من المعجزات، وبما يصنع الآن أعظم وأشهر».

والآن، وقد حلونا بالكلمة كل مجموعة هذا الجمهور والفريق الذي معناه فلنسرع بما في وسعنا، بعدما نقينا وطهرنا النفوس والأجساد، لكي نتخذ صوتاً واحداً متحدين بروح واحد ولننشد نشيد الظفر، ذلك النشيد الذي غناه قديماً شعب اسرائيل للمصريين الذين غطاهم البحر الأحمر، ولندق الطبول مع مريم اخت موسى قائلين: «لنسبح الرب لانه بالمجد قد تمجد، الخيل وفرسانها طرحهم» لا في البحر. لأني اغير هذا المقطع من النشيد. إلا أني أغيره حيث يشاء (الرب) وحيث يراه صواباً وعدلاً، الرب الذي «يعمل كل شيء ويغيره» مثلما يقول عاموس النبي المتكلم بوحي الله: «الذي يحول ظل الموت الى

فجر وصباح، ويختم النهار الى ليل؟ أي هو الذي يدير ويوجه كل العوالم بطرق شتى كما بواسطة دائرة أو عجلة يحركها، كذلك ما تأرجح من أمورنا طرداً وعكساً، وينصرف بشؤوننا المتحركة والمتنقلة بالتغيرات التي على غير هوانا تارةً هكذا وتارة أخرى كذلك، في حين انها كلها (اي شؤوننا وأمورنا) هي ثابتة وغير متحركة بموجب نظام العناية الإلهية، حتى ولو كنا نحسبها تسير في متعرجات ومعاكسات، وهي واضحة كل الوضوح جليّة كل الجلاء في عين الله الكلمة المدبر، ولكنها مجهولة لدينا. هو الذي، له المجد، يهبط المقتدرين عن العروش ويزين الذين لا شأن لهم بالتيجان وعلامات الامتياز. اني اتخذ كل هذه الآيات والدلالات من الكتاب المقدس. هو الذي يقوي المركب المرتخية، ويسحق سواعد الخطأة والأشرار. هذه آخذها من نشيد آخر، كما يتهيأ لي الأخذ من كل نشيد وتسبحة، لأنها كثيرة هي الآيات التي تكمل تسبحتي وتسهم في صوغ خطبتي الشكرية هذه. أجل ان الله هو الذي يدع الكافر يتعالى ويتجبر مثل ارز لبنان، ثم ينجرف وينحدر الى المحق وعدم الوجود، ذلك نراه ونلمسه عندما نستطيع ان نتجاوز كفره وجبروته بأقدام ثابتة وسريعة.

فمن هو القادر أن يشيد بعظائم الله ويتحدث بها مع المتحدثين بالإخبات؟ امن يتكلم بمعجزات الله ويجعل جميع تسابيحه مسموعة؟ اي لسان، واية قوة كلامية متنهض الى مستوى ومقام العجب؟ من الذي سحق أسلحة الفارين ورماحهم؟ من الذي سحق رؤوس التنانين في الماء؟ من الذي جعل مكان النسمة اللطيفة عاصفةً وزوبعة؟ من قال للبحر «اصمت اخرس»؟ وفي داخلك تنخفض أمواجك؟ وبالفعل هدأ الأمواج من غير أن ترتفع وتفور كثيراً في مرجل الهياج والغليان؟ من منحنا القدرة على أن نطأ الحيات والعقارب؟ التي لن تعص من بعد الأعقاب خفية بحسب قرار الحكم الإلهي، بل تنهض ظاهراً، وترفع الرأس الذي حُكم عليه أن يوطأ؟ من هو ذاك الذي حكم وأعطى عدلاً غير متوقَّع؟ من هو ذاك الذي لم يرفع العصا عن رقاب الخطأة، وبنتيجة ذلك قال انه ينبغي أن يعزز ويقوي جبهة الصديقين؟

اننا لم نُسلَّم كصديقين مبررين الى الاضطهاد، بل كخطأة مدانين لكي نُخزيَ السفاح المضطهد كمجاهدين شجعان. ومن ثم جاءتنا رحمة من الله وتأدَّبنا كما بطريق الأبوة والوصاية، منتظرين نهاية كل هذه الأشياء والكشف عنها، لكي تجد الخليقة هي ايضاً حريتها المرجوَّة ما دامت الآن، بغير ارادتها هي مستسلمة لناموس الأنين والمخاض من اجل قدرة الله الذي خلقها، ولكنها تمجد وتبتهج مع أبناء الله حين يفرحون ويبتهجون،

وإذاً فلن أدع أن تفوتني تسبيحة من التسابيح اللائقة، ما دمتُ أترجم قوة الله ولأفعلْ مع النبي ايضاً: «فليتهج القفر، وليزهر مثل السوسن» اي لتفرح الكنيسة، التي كانت منذ أمس وما قبل أرملة وبلا رجل بسبب الشتاء القاسي والظروف الحالكة الآتية من الكفر والجحود. ذلك لأن الرب رقَّ ورثى لحال شعبه، ولم يهمل ميراثه. لأنه صنع عجباً مشورات صدقٍ وحق منذ القديم — وهذه الارادة والمشورة القديمة: ان يقف مساعداً جماعة الذين يتقونه والذين يرجون رأفته وحنوه — لأنه سحق الأبواب النحاسية وحطم الأمخال الحديدية الجحيمية، ذلك حين تخشعنا وتواضعنا من أجل خطايانا.

ولكننا عدنا ونهضنا بما ان الفخ انكسر وتخلصنا نعمة افنا الذي دعانا بدعوته، وهو الذي يعزي ويبلسم الجراح لمتواضعي القلوب.

أرأيتم كيف أنشيء التسبيح بأقوال وأفكار الهية؟ ولست ادري كيف أني أزدهي واتزين بأشياء غريبة، وأصير من النبوة الروحية كأني ملهمٌ من الله. ويهون عندي كل ما هو بشريٌ غير اني أجمع وأنسِّق وأوجه كل المعاني الى الوحدة وكل ما هو من توجيه الروح القدس ذاته.

ولنستعرض، منذ القديم، عظائم الله في رجاله القديسين: انتقال أخنوخ، واتخاذ ايليا، وخلاص نوح وتخليصه الذرية الانسانية، بل تخليصه العالم كله داخل سقط خشبي، ذلك ما جرى بواسطة الطوفان وهلاك المسكونة حتى تعود الأرض فتزين بسكان متقين. ابراهيم الشيخ عندما دعاه الله، واستحق ابناً في شيخوخته برهاناً آخر على موعود تزايد ذراريه وأنساله، وقدم طوعاً ابنه الوحيد ذبيحة، وجاءته بدلاً عنه ذبيحة غريبة. ولنذكر بعد ذلك الهلاك العجيب، هلاك قوم لوط بالنار والكبريت، وما هو أغرب منه من سلامة المتقين المؤمنين من عائلة لوط وعمود الملح. ثم يوسف الذي بيع ودفع دفعاً الى العشق والغرام، فتصرف بالحكمة والعفة والتعقل، وحرر وملك، وكان يوزع قمح التموين في الجوع بتدبير كبير حكيم.

ولنذكر أخيراً موسى "العظيم" الذي استحق أن يرى الله، واتخذ الشريعة واشترع الشرائع والنواميس، وصار رباً لفرعون، كما يقول الكتاب، وكان يقود الشعب الاسرائيلي الى أرض الميعاد، ولنذكر الضربات المعدودة لشعب مصر، وخلاص المعين من أيدي المصريين، والبحر الذي انفلق بالعصا، وكان يفهم بالكلام، فاجتاز الاسرائيليون كأنهم على اليبس، وأما المصريون فغطاهم الماء حسب طبيعة البحر.

ولنستطرد الى الاعتبار بكل الأمور الأخرى العجيبة والباهرة التي استمت: عمود الغمام الذي ظلل العبرانيين في النهار، وعمود النار الذي كان يضيء لهم ليلاً. والخبز الذي كان يقع عليهم كالء السماء في القفر وطير السلوى الذي كان يتساقط عليهم لحماً طيباً اكثر مما يحتاجون، والخبز ما فيه كفايتهم. والماء الذي تفجّر لهم من الصخرة الصلدة: ماءٌ جارٍ طبيعياً، وماءٌ متحول من مر الى عذب! وشعب عماليق الذي كان يُهزم بصلاة موسى وبتشكيل يديه باشارة سرية مذهلة. والشمس التي توقفت عن المسير والحركة، والأردن الذي توقف عن الجري، والأسوار التي انقلبت بمسير الكهنة حولها وبصوت الأبواق وبعدد السبعة الذي كانت فيه قوة خاصة، وجزة الصوف المنداة والقفير المبللة، وقوة الشعر التي كانت بقوة معسكر كامل (لشمشون). والعدد القليل الذي غلب عدداً كبيراً جداً من الأعداء!

وهل بي حاجة أن أعدد بالتفصيل كل ما جرى من العجائب عجائب السيد المسيح في حضوره الخلاصي وتجسده على الأرض، وعمل تلاميذه ورسله الأطهار مما تضيق به الصحف والكتب؟

والآن سأعدد الأمور الحالية التي جرت على يد ملكنا الطاغية الفيلسوف الحكيم! تعالوا اسمعوا يا أيها المؤمنون والذين يخافون الله، لكي يعرف الجيل الحاضر والأجيال المقبلة عجائب قوة الله. ولا يمكن ان نورد هذه الأشياء من غير ان نتمثل حجم الخطر الذي تجر اليه. وهذا ايضاً غير ممكن من غير ان نلاحظ شر الأسلوب المتبع وخبثه، من أي المصادر يأتي، ومن أي بدور رداءة تنبت مثل هذه الشعلة العظيمة، اذ كان ينمّي الكفر قليلاً قليلاً كما هي الحال في سم الأفاعي والزحافات. وسندع للكتب والتواريخ تحكي المآسي عنه، لأنه ليس لنا وقت طويل مناسب ان نعرض كل هذه الجريرة الحاضرة. ونحن اذ نعرض القليل من الكثير من هذه المآسي، سنترك ما نعرضه للآتين بعدنا كمفكرة تذكارية، وسنتناول، في مقالنا هذا، من أعماله ما هو اكثر جدية وخطراً(*).

(*) في عام ٣٣٧، وبعد قليل من موت الملك قسطنطين الكبير حدثت في البلاط خيانة فظيعة ومقتلة عائلية (في العائلة المالكة) لم يستطع قسطنديوس ان يخمدها، ونجا من الموت في تلك المقتلة يوليانس فقط وهو ابن ست سنين مع اخيه الأكبر غالس، نجيا بسبب حداثة سنهما. فرباه عمه وجعله قيصراً على الغرب ولكنه عق وخان واعلن الثورة على عمه الذي مات في طريقه الى مقاتلته، فسلم الملك كله، وأراد إعادة الوثنية.

وأول شيء يُذكر هو انه بعدما تخلص من الموت في زمن قسطانديُس بطريقة عجيبة غريبة، لم يعرف شعور الفضل والمعروف لله لأجل خلاصه، ولا للملك الذي حنضه، بل ظهر شره الأكبر ضد الله وضد الملك حيث حيلت نفسه الخبيثة بمعصية الله، وبالثورة على الملك ولي نعمته.

عفوك اللّهما ربي والهي! أنت الذي تعلم المستقبلات، تلجم الكفر والالحاد، وتبين سابق معرفتك بالأمور. حقيقة انه عجبٌ غريب! عجب حقيقي، ولكنه فوق العجب! كيف تخلى وتسمح بتجربة كنيستك مرّةً ثانية بداهية جديدة أشد وأفتك من المحنة الاضطهادية التي ركبتها ثلاثمئة سنة ونيف، وما كادت تتنفس الراحة والحرية حتى تُليت من الداخل بهذا العدو الجديد الماكر الناكر الذي اعتزم بكيده وكفره أن يضرب الكنيسة من الداخل، وبيده الحول والطول، وكل الوسائل الجهنمية، قاصداً محقها وإزالتها، وإعادة كفر الوثنية القديم الذي كان يحقبه لها في ضميره الاسود ونفسه الرديئة. حقاً ان أحكامك غريبة يا رب ومقاصدك فوق ادراك البشر.

وأنت أيها الملك قسطنديُس يا وريث الملك المسيحي أيها الملك المحب المسيح أكثر من جميع الملوك: كيف قرّبت هذا وجعلته قيصراً؟ كيف، وقد انخضعت كل من حولك من الأمم البربرية، ومن طغاة الوطن وجبابرته، سواء بالأقوال والاقناع وسواءً بالسيف والقوة، وأتتك السفراء وأتاك الرجاء والراجون من كل جهة يستعطفون ويخضعون. أنت الذي كنت تقاد باليد الالهية الى كل قرار، وكل عمل وتصرف. وكانت حكمتك موضع التقدير اكثر من قوتك، وقوتك اكثر من حكمتك واكثر من القوة والحكمة كنت موضع الإعجاب في ايمانك وحسن تقواك! كيف اذن ظهرت هنا فقط جاهلاً عديم الفهم والتمييز حتى تشرك هذا العدو في المُلك؟ وأي شيطان نفخ في أذنك هذه الفكرة؟ كيف أسلمت الى الشيطان القاتل المغتال، وفي هذه المدة القصيرة، الميراث العظيم، ميراث المسيحية، الشعب الذي لمع وشع في كل المسكونة، المُلك الكيتوني الذي نما وكبر وامتد في الأرض بالاتعاب والأعراق الكثيرة؟

عفواً يا اخوة هذا التحاملُ واللوم الذي يظهر من الغيرة والأسف. فلنمض في الوقائع ولنتبصر أخيراً في النتائج.

وهنا تغشاني دمعةٌ ممزوجةٌ بالفرح، يقسرها لاحق الكلام. وتصطرع الأمور عندي كما يصطرع النهر وعرض البحر في معركة وهياج واشتباك. تملكني من جهةٍ أولى المسرة والابتهاج بنتيجة ما حدث، ومن الجهة الثانية يملكني الحزن والبكاء على النكبة التي

نُكبنا بها وما حل بنا من هول الفاجعة. انا لا أبكي من اجل المسيحيين فقط، ولا من الخسارة التي حلت بهم والتي ارى سببها الترنح والكبرياء المواجب المطهر من آثارها، ليس من أجل هذا السبب فقط اذرف الدموع، ولكن من أجل نفس ذلك الشقي، ومن أجل النفوس التي سباها الشيطان معه الى الهلاك بالارتداد عن الإيمان. ذلك أن هؤلاء الأشقياء يدعون مصائبهم الآن وما حل بهم من العذاب هنا على الأرض: انهم قوم يؤمنون بهذه الحياة وحدها، ولا يتوصلون بذهنهم الى ما وراء القبر. لا يؤمنون بالعقاب والثواب. انهم يعيشون كالحيوانات. يعيشون يومهم وحاضرهم. أما انا فأندب شقاءهم الأكبر في عذاب الجحيم الذي ينتظرهم، وفي بعدهم عن الله مركز السعادة والهناء الدائم.

فكيف بي لا أبكي حال المضطهدين اكثر من حال المضطهَدين؟ بل فلأعد متوجهاً بخطابي أيضاً الى ذلك الملك المزعوم وأقل: لله ما أشد قوة الشر! وما شدة هذا الهوى الكفري!؟ ما هو هذا الطريق طريق الهلاك؟!

كيف صار شديد البغض للمسيح تلميذ المسيح وهو الذي تابع أقوال الحقيقة التي تقود الى الخلاص؟! ما إن ورث الملك حتى ابتدأ يتكلم جهاراً بالكفر والإلحاد، كأنه كان يشعر بالخجل لكونه مسيحياً فجعل ينتقم لذلك من المسيحيين الذين ارتبط معهم بالاسم!! تواقح وتجرّأ على أمور جعلت أتباعه يفخرون بها أنه يمحو معموديته بدم غير طاهر كخنزير بري يتقلب في الحمأة، وبمقدسات وضحايا يدشن بها القصر معتمداً عرافاً شريراً ومستشارين أشراراً.

والسبب هو ما يقال: إنه حين كان يقدم الضحايا كانت أكباد الضحايا تظهر صليباً متوجاً، الشيء الذي كان يُحدث للآخرين رعباً وفظاعة وتحققاً من قوة الصليب، وأما لمعلم الكفر فكان يحدث تشجيعاً وزيادة ثقة بنفسه.

وليس في الأمر عجب ولا حرج، لأن الشياطين يعترفون غصباً عنهم بيسوع. ولعل القصد عند الله من هذا، ومن يدري؟ أنه يمكن أن يتوقف الملك عن إلحاده، لأن الله تعالى يكتشف طرقاً كثيرة وغريبة للخلاص متحركاً من محبته للانسان. ومع هذا فهذا الذي يقال ويرد ليس من الضروري أن يصدّق.

كان ينزل الى عالم المجهولات الذي هو في اعتقاد القدماء أماكن رهيبة وغير مطروقة (ولكم تمنيت لو كان ينزل الى طريق الجحيم قبل أن يبلغ مثل هذه المجهولات الخيالية

الشريرة ذاك الحكيم (المُتخرّق). لأن هذا هو نوع من السحر يتعلمون به أمور المستقبل من جن أرضيين. كانوا يعملون ذلك لأنهم يفرحون بالظلام أكثر مما يفرحون بالنور، لأنهم هم ظلمة وعالقو ظلمة الشر، ولأنهم يحتسون الاتصال بالمؤمنين على وجه الأرض. وكلما كان ذلك الوقح يتقدم في كفره ووقاحته، كانت أشباح الجزع تطارده، الأشباح التي كانت تتضاعف دائماً وتصبح أشد تخويفاً، تطرده تاركةً بعض الأصوات والأصداء غير الاعتيادية وروائح كريهة، والجبلة متورة وما أدري ما معها من تخرصات وهذيانات! وهو، اذ كانت تتملكه هذه الأمور الغريبة، كونه متعلماً متأخراً، هذه الشعوذات، كان يلتجيء الى الصليب اللواء الناجع الأول، وكان يعتصم بعلامة الصليب ضد الأحيلة والأشباح المفزعة ويتخذ مساعداً الصليب الذي كان يضطهده. والحكم قبضاً على ما هو أشد رعباً وهولاً وعجباً.

يعزز ختم الصليب ويقوى وتنهزم الشياطين وتنحل المخاوف. ثم ماذا؟! ينتعش الشر ويتوقح. وايضاً حيّلات وهجمات وتعود المخاوف عينها. وأيضاً تُرسم علامة الصليب والشياطين يهدأون. والمسحور يبقى في حيرة، والمُسارُّ الساحر يعرّف الحقيقة عن قربه فيقول: تفرّقنا من الصليب، وما خفنا من الصليب. يُغلب الساحر أشد من قبل، وهذا الذي يقوله ويكرره يوحي بالإقناع. وبعد الإقناع يقود التلميذ الى هاوية الهلاك. وما من شيء يستحق التعجب لأن خباثة القصد والنية مستعدة أن تتبع الشر أكثر من الاستعداد لاتباع الخير الأفضل.

اذن فالأمور التي قالها وعملها وأرسل بذيعها خادعاً، ومخلوعاً، يعرفها أولئك الذين يسحرون ويُسحرون. وبعد اذن مسحوراً، وشاهداً في نفسه وفي الأشياء وبعينين مليئتين شهوة السحر ومعترفاً بمن تعبد لهم.

وعلى الرغم من أنه لم يمتلىء من روح ابليس في ذلك اليوم، فلا بد من أن تستفحل شيطنته وتصير أظهر وأشهر، حتى لا يؤول نزوله الى عالم الجن، ومعاطاته الشيطنة والسحر مآلاً فاشلاً، الأمر الذي يسميه أولئك السَّحرة حالة الجَذب والخيلاء مقترفين الأسماء كما يجب. هكذا كانت الأمور الأولى.

وعندما كان يسود الضيق وينفجر الاضطهاد، عُرِّفَ شيئاً ما، قد يؤخذ مأخذ رجل حكيم في الشر وشهير في الكفر، أو تعلمه من أولئك الذين كانوا يسحرون ذهنه ويعلونه لكسب الحرب واتخاذ مقعد الصدارة في الكفر مأخوذاً أخذاً، غصباً على الرغم

من أنه مثال في السفاهة والجهالة، فهو معاكس كلياً للقصد المنشود. لأننا نحن كلما تضايقنا صرنا أشد تمسكاً بحب الغلبة، وسنقف صفاً مرصوصاً ضد الطغيان مأخوذين بحرارة الإيمان. لأن اليقين الشجاع من طبعه مقاومة فرض الأشياء بالقوة والعنف. مثلنا مَثَلُ الشعلة، كلما هبت عليها الريح، كلما ازدادت اشتعالاً. هذا الأمر لم يكن الملك الحكيم ليفهمه بتقديره فقط، بل كان خليقاً أن يعرفه أيضاً من الاضطهادات الأولى، السالفة التي جعلت المسيحية، بسرعة شديدة، قوة يُحسب حسابها أكثر من أن تضعفها، اذ قويت النفوس بالايمان، وصارت أكثر صلابة من الحديد المحمي بالنار والمسقي بالماء. واذا بدا له أن يجرد ضدنا الحرب بالمهارة والفن، وأن يلوّن القوة بالإقناع، أو أن يكون كمن يريد أن يغلف الطغيان بالحكمة والحيلة والفطنة، فيمكنه أن يكون بهذا صاحب مشروع فيه حكمة وقوة!

لقد أنكر، فيما أنكره على الشهداء فضل استشهادهم. لأجل هذا كان يخترع طريقةً لئيمة خبيثة: أن يؤخذ الشهداء قسراً من غير أن يعرفوا في سبيل من يستشهدون. يا لفظاعة هذه الجهالة! يا لجهله وغبائه اذا ظن أنه لن يكون معروفاً من أجل من تحتمل المشقات والعذاب، وأنه سيغطي الحقيقة بخزعبلاته! لأنه كلما ازداد خزعبلات وأنكر كرامة الشهداء، كلما زاد في بهاء استشهادهم وعظمته.

ثم انه اذا ظن اننا نحن نرتضي الأخطار والاضطهاد بشهوة حب المجد والخلود، وليس من أجل الحقيقة فقد خاب ظنه. انه أمر أدعى الى الرضا والسرور عند الشهداء ان يُشنقوا ويتعذبوا من أجل الايمان، ولو كان سر استشهادهم مكتوماً عن الناس أجمعين. لأن أمر ارضاء الناس غير وارد عندنا، فكل رغبتنا تنصب على الشرف والكرامة التي تأتينا من قبل الله. والفلاسفة والمحبون لله حقيقة انما يرغبون في مجانسة الخير لأجل الخير نفسه، لا لأجل الكرامات التي تأتيهم منه. لأن الذين يعملون الحسنى من أجل المكافأة وحسن الجزاء يؤلفون طبقة ثانية محموداً ذكرهم. وكذلك الذين يتجنبون الشر خوف العقاب يؤلفون طبقة ثالثة، أما نحن فموقفنا هو هذا من الخير والشر، نعمل الخير للخير فقط.

ان القضية، عند المليك الظالم الحكيم، هي ان يحرم المسيحيين من الكرامة والشرف. وهذا الأمر كان يستهدف عنده خطة النجاح. ومن دون أدنى حد من الشهامة، كما كان عند غيره من المضطهدين. فلم يكن يفكر ويخطط إلا كملك وطاغية حتى أنه يصدر قراراً كفرياً أن يقهر ويغتصب شعب الدولة، وأن يُفرض تعليمٌ طغياني فاق كل العالم.

ولكنه يجرم بحق الايمان اجراماً منكراً وبعيداً عن أي لطف وتهذيب كلياً، ويحتمل على الايمان وحسن العبادة معميّات وسفسطات غير منطقية في تبرير اضطهاده لنا. وهكذا، وبما أنه يمكن أن تمارس السلطة بطريقتين: بالإقناع وبالقوة، فقد فرّض إلى الغوغاء كل ما كان وحشياً لا انسانياً، وأباح الفوضى في الجماهير، لان الجهل فيها وركوب الغاية يكون بغير مراقبة بسبب الاندفاع الغير الواعي، والخروج عن جادة العقل والصواب. وهذا كان بغير قرار علني. وأما الأسلوب الملكي الأودع والأعدل، أي الإقناع فقد احتفظ به لنفسه. ولكنه لم يكن ليحفظه طويلاً، لأنه كما أن الفهد لا يمكن أن يغير تلونه، والحبشي لونه الأسود، وكما ان طبيعة النار الكي، وطبيعة الهوس بغض بني البشر، كذلك لا يمكن لهذا أن يغير خبثه الذي انطلق به ضدنا منذ الأصل. وكتلوّن الحرباء كان يتخذ كل الألوان في معاملة المسيحيين. فكانت قسوته وقلة انسانيته تظهر كأنها انسانية، والقسر والقهر كانا يحسبان عدلاً واستقامة، والصلاح والجودة كان يؤخذ كأنه دفاع عن الوحشية والبربرية. كل ذلك ليوحي بالانطباع انه يستعمل القوة حسناً وفي موضعها عندما كان يفشل في الإقناع.

وهذا غدا أمراً ظاهراً من أن الاقناع استدام وقتاً قليلاً، وما لبث ان اتبع مبدأ القوة الذي استدام وقتاً طويلاً، كما يحدث في أمر الصيد: إما أن نعلق بالفخاخ، وإما ان نطارد، بهدف واحد معين أن يمسكنا لا محالة. وبما أنه هكذا افتكر، وهكذا قرر، فلا بد أنه واضع في التنفيذ الأمر الثاني المؤمّن والمؤكد، مهما يكن مفرطاً في الكفر والظلم. بدأ ظلمه وقسوته فيمن هم في قبضة يده، وأهل بيته الأقربين، الشيء الذي هو معتاد عند كل المضطهدين. وإلا فليس من الممكن أن يشرع في اضطهاد من هم بعيدون قبل الأقربين، كما أنه ليس ممكناً أن يقود أحدٌ ضد الأعداء جيشاً يكون عاصياً لقائده ورئيسه. لهذا السبب تراه يغيّر كل جهاز البلاط، بعد أن صرف بعضاً منهم خفية وأماتهم، وأبعد البعض الآخرين، لا بحجة أنهم لم يكونوا يقفون موقف الموافقة من الملك العظيم بل لأنهم كانوا في جانب الملك الأعظم، (الله) وبحجة أنهم كانوا غير صالحين لخدمته. كان يستخص الضباط اختصاصاً البعض منهم في خاصته وحده، والبعض الآخر بخاصة الزعماء. كان يتقرب من هم أوفر سهولة في تغيير الايمان، لأن البعض كانوا يتراجعون من أجل الوظائف، والبعض كانوا يتجرون ببساطة كأنهم لا يعرفون إلاّ ناموس الملك. وهناك قسم من الجيش لا يُستهان به وُجد في الضلال وصنف خاضعاً للأمر الواقع. ولكن على كل حال بقي سبعمائة ركبة لم تركع لبعل ولم تسجد لتمثال الذهب، ولا ضُربت بالحيات والأفاعي، لأنهم كانوا ينظرون الى الحية المعلقة والمنحلة بآلام المسيح.

وكثيرون منهم كانوا في السلطة، وفي مراتب عالية، هؤلاء كان طبيعياً أنهم استسلموا من الخوف لأنهم كانوا يأملون في شيء أفضل. وكثيرون ممن هم أدنى رتبة، لما أهانهم الملك، صدّوه وحاصروه بآلة حصار كما من أمنع المتاريس. على ان القسم الذي صادّه لم يزعجه بقدر ما دفعه الى المطاردة والتشريد.

واخيراً قام ضد الصليب، ضد العَلَم العظيم الذي كان الصليب في اعلاه، يتقدم الجيش ويقوده هادياً مرفوعاً عالياً، وهو، في الواقع، وكما كان في نظر الرومانيين مشجعاً ومخففاً الآلام والمشاق العسكرية. وكان يسود ويفوز اكثر من كل الأعلام والبيارق المزينة بصور الملوك، والبنود الخافقة والألوان والأحرف الرمزية المختلفة، وبأفواه التنانين الفاغرة المخيفة التي كانت ترى في اطراف الرماح.

أجل أزال علم الصليب وجاء بضده! يا لها مواقف جنونية غاشمة! أيها الجاهل الأحمق الكافر الأخرق العديم العلم والتمييز! انك تنهض ضد كل هذا الاكليروس، وضد الكنيسة الجامعة التي بلغت الأقاصي ببشارة الكلمة البسيطة وجهالة الكرازة كما تقول انت، فانخدعتِ الحكماء، وأبطلت قوة السلاطين، وتجاوزت الزمن القديم والحديث؟ تنهض ضد ميراث المسيح العظيم؟ (أنت ومن أنت؟ وكم أنت؟ ومن أين أنت؟) مُلك المسيح الذي لن يتوقف ولو جن الأعداء ضده كما جننت. ملك المسيح الذي سيكمل وينهض ويرتفع. هذا الملك الذي صنعه الله وأورثه بني الانسان. هذا الملكوت الذي عليه طابع الناموس وختم النعمة والذي دشنه وكرّسه المسيح. هذا الملكوت الذي هيّأ له الأنبياء وتبطنه الرسل، واكمله المبشرون. (الانجيليون) أنت تنهض ضده وتقاومه؟ أنت تنهض ضد ذبيحة المسيح وأقدامه بأدناسك وأرجاسك؟! أنت تنهض ضد الدم المقدس الذي طهر العالم؟ تنهض ضده بدمائك وذبائحك المدنسة؟! تعلن الحرب على السلام؟ ترفع يدك ضد اليد التي سُمرت على الصليب لأجلك؟! تقدمُ له بدل المن خلاً من مرارة نفسك، وعقوقها؟ ترفع علم الجهاد ضد الصليب؟ أتهدد بتكذيب الموت، وتعلن الثورة على القيامة؟ لا تعترف بالشهداء ضد سيد الشهداء؟ تصير مضطهداً بعد هيرودس وخائناً بعد يهوذا؟ مع الفرق أنك لم تظهر المشنقة للتوبة مثل ذاك! تصير قاتلاً للمسيح مثل بيلاطس ومبغضاً لله مثل اليهود؟!

قل لي، ألم تراعِ حرمةً لضحايا المسيح؟! ألم تخشَ للمجاهدين الكبار: يوحنا وبطرس وبولس ويعقوب واستفانوس ولوقا واندراوس وتقلا والذين قبل هؤلاء وبعد هؤلاء رموا أنفسهم في أفواه الأخطار والموت من أجل الحقيقة؟! أولئك الذين جاهدوا وتجلدوا

ضد النار والحديد وضد الطغاة والأشرار، كما لو كان التعذيب في أجساد غريبة عن أجسادهم، أو كأنهم هم بلا أجساد؟! من أجل ماذا؟ قل لي يا عدو الله. أجل من أجل ألا يخونوا الإيمان بكلمة واحدة! هؤلاء هم أصحاب المقامات والكرامات والأعياد والاحتفالات. منهم تهرب الشياطين، وبهم تبرأ الأمراض. هؤلاء هم أهل الكشوف والرؤى والنبوات. أجسادهم وحدها لها ذات القوة التي لنفوسهم المقدسة سواء بلمسها أو بتقديم الكريم لها. بعض من دم هؤلاء، وبعض من آثار آلامهم تفعل كما يفعل الجسد كله. كل هذه بالقيم بل القمم العظيمة لا تحترمها، بل تهينها؟! أنت معجب بنار ايراكليس التي جاءت نتيجة مصيبة، ونتيجة ظلم امرأة، وسفك دم بيلوبس الكريم المحب الآلهة الغرباء. ومن هذه المذبحة تحدر البيلوبيون من كتفي بيلوبس والفيل[1].

وأنت تعجب بعمليات جَب = خصي الفريجيين الذين كانوا يسكرون بصوت الشبابة حين كان يُنكَّل بهم.

وأنت تعجبك تعاذيب أسرار مترا[2] والحريق العادل بالنار، وبقتل الغرباء في بلد تافرس كريميس، وتضحية[3] بنت الملك من أجل طروادة! وكذلك يعجبك سفك دم مانيكيفس من أجل أهل تيفه[4]، وكذلك بدم بنات سكيندسُس بعد ذلك في ليكتر. وأنت تمدح فتيان لاكونيا المضروبين بالسياط والدم المهراق على المذبح الذي يرقص إلهة عذراء تقية. أنت ترفع من شأن سقراط بكأس السم، وساق ابيكتيس[5] ورداء اناكسرخس[6].

---

(١) دعا تانتالوس يوماً الآلهة الى عشاء وقدم لهم طعاماً لحم ابنه بيلوبس بعد أن قطع جسمه قطعاً قطعاً كثيرة. فارتعدت الآلهة عندما عرفت الجريمة. وأكلت ديمترا (الهة الأرض) وحدها قطعة من الكتف بدون انتباه. فتوسل زفس الى ارميس أن يعث بيلوبس حياً. وتمم ارميس بواسطة فيل الجزء الناقص من الكتف (بندار A لوليب. ٦:٣٦).

(٢) اله النار عند الفرس حامي الشرعة والتصديق.

(٣) تضحية ايفيغينيا بنت أغاممنن.

(٤) مانيكيفس كان ابن ملك تيفه كريون. وبحسب نبوة سابقة لتيريسياس كان ينبغي أن يضحى لكي ينجو أهل تيفه من غضب الاله آريس. ولما لم يطق كريون أن يرى ابنه مذبوحاً أراد أن يهرب به. ولكن مانيكيفس أظهر اتفاقه مع الارادة الوطنية، بدلاً من أن يهرب، فسلم نفسه ليموت على المذبح من أجل نجاة أهل تيفه.

(٥) فيلسوف رواقي من جرابلس عاش في عام ٥٠ ق.م و١٢٠ ب.م.

(٦) أناكسرخس كان من أتباع فلسفة ديموكريت وكان يقال له أيضا الفيدومونيكوس، لأنه كان يرى أن السعادة انما تكون بعدم الحس والشعور كهدف للحياة. ومن شوقه الى الأبحاث تبع الاسكندر الكبير. وبعد موت الاسكندر حط رحاله في قبرص حيث ألقى عليه القبض زعيمها نيكوكريون، وقد كان عدوا له. فأمر ان يجعلوه في جرن ثقيل وأن يضربوه بهراوة من حديد. تحمّل العذاب بعدم شعور وكان يستخف بجلاديه قائلا: اضرب رداء اناكرخس. انك لا تضرب اناكرخس.

هؤلاء الذين كانت عندهم الفلسفة إجبارية لا اختيارية، وقفزة كليومفرتس مفركيوتس الذي بحث عنه في كلامه على النفس[١]، واعتراض بيتاغورس من اجل أكل الفول[٢] واحتقار تيانو للموت[٣].

من الحق أن ميزة النفس الشجاعة والكبيرة هي الأ يحتقر أحد رجولة وشهامة خصومه، وأن يكون عنده تقدير لشجاعة الأعداء، هذا أفضل من رداءة ورعارة خاصته وأتباعه اللازمين له.

هوذا نحن ندرس ونعرف ونقدر جمهرةً واسعة من خيار اليونانيين وغيرهم عملاً بصفة معلمنا المسيح: «قصبةً مرضوضةً لا يكسر وفتيلةً مدخنةً لا يطفئ» حتى هذه الفلسفة اليونانية التي هي قبس من نوره الكامل وشمسه العامة المضيئة الكون كله، نقدرها.

أما أنت يا هذا فلم تقتدِ بمن هم قبل المسيح مثال في العدل والاستقامة ونكران الذات والصلاح ورحت تتنكر لآلافنا وربواتنا الذين عملوا ويعملون أكثر، بما لا يقاس، ممن سبقوهم، عملوا كل حياتهم في مجال المسكونة كلها: رجالٌ ونساء بنفس الأسلوب يتنافسون في الشجاعة والتضحيات، ناسين هنا فقط طبيعتهم حيث ينبغي أن يأتلفوا مع الله بالصبر وطهارة النفس. هؤلاء كلهم شهود المسيح وأتباعه، ليسوا فقط ممن لا شأن لهم والمعتادين على التحمل لتغطية الأصل الوضيع، بل من أهل الطبقات الرفيعة العالية، رجال مشاهير بالثروة والأصالة والسلطة، يصابرون الآلام والتعاذيب كشيء جديد لكي يتشبهوا بالمسيح. هؤلاء، وإن لم يوجد كلام يفي بمدحهم بعد (لأن الإيمان وحسن العبادة ليست موضوعاً للكلام، ولأن ثمر حكمة الفم هو قليل، كما يقول أحد شعرائكم) ولكن ما هو خير وموفور، انما يكون في التعاطي والواقع العملي.

أما صاحبنا، فبما أنه قد تغاضى عن كل هذه القيم، ونظر الى شيء واحد كيف يستطيع أن يرضي الشياطين الذين كثيراً ما حطموه بما يستحق، وقبل أن يرتب الأمور

---

(١) افلاطون حول خلود الأنفس، اوغسطينس ٢٢ ،١ ٢٠١.

(٢) وجد بيتاغورس يوماً في حقل فوجد ثوراً يأكل فولاً، واذ اعتبر هذا اثماً طلب من الحارس أن يصرف الحيوان عن الحقل. ومن هنا عبارة: «وأبعد عن الفول».

(٣) ثيانو هي زوجة ملك سبارطة كليومبرتس وضعت أول حجر في باب هيكل غالكيوكو اثينا حيث كان التجأ ابنها بافسانياس مطارداً ومحكوماً عليه بالخيانة.

المتكررة يعمل على المسيحيين. وهناك مشكلات تقتضيات الحل السريع في تطوره: مشكلة الجليليين، كما كان يسمينا بهذه التسمية، ومشكلة الفرس الذين أصر على حربهم بعناد. وكانت مشكلتنا نحن عنده من الخطورة والأهمية بحيث تكون المشكلة الفارسية مزحة ولعبة أطفال. وهذا أمر لا يظهره ولا يخفيه. كما كانت شهوة الانتقام متسلطة على نفسه حتى أنه لم يكن يكف عن أن يعترف بها دائماً أمام الجميع. ولم يدرك حتى هذا الأمر من هو الحامي العاقل والحكيم، الحامي كل الشعب، لم يكن ليدرك أن الشعب الذي كان يُجرّم ويزعزع في الاضطهادات السابقة، كان شعباً قليلاً لأن تعليمنا لم يكن قد وصل الى الحدود البعيدة، وكرازة الانجيل كانت محدودة أيضاً. وأما الآن، وقد انتشر التعليم الخلاصي، وتوسع وساد في الأرض، فان محاولة تغيير مجرى الأمور المسيحية وزعزعة المسيحيين لا تعني سوى زعزعة السلطة الرومانية والمخاطرة بالشعب كله.

وماذا عن التصرف الصبياني الذي تصرف به الملك العدو، والذي لا يليق برجل ملك؟! فقد أطلق علينا اسم الجليليين ظناً منه أنه بتغيير التسمية سيغير وضعنا وصفتنا، أو أنه سيجعلنا نخجل بهذه التسمية كأنها عار كبير. وفي هذا ما يبين أن مخاطبتنا بالمسيح هو شيء مجيد وثمين، ولهذا افتكر أن يحرمنا هذه التسمية الجليلة. هذا الا اذا كان يخاف قوة هذا الاسم، كما أن الجن تخاف اسم المسيح، ولهذا كرس اسماً غريباً غير معتاد وغير معروف.

أما نحن فلن نعمد الى تغيير وتحريف الأسماء عندهم، ولن ندور في فلك آلهتهم وأسمائها المعية بطبيعتها. واذن فلن نحسدهم لا لأجل ما عندهم، ولا لأجل الاسماء، بل لنتركهم يتمتعون بجهالتهم ويتزينون بمخازيهم. واذا سمحوا فليتخذوا لنا عن ذكر فرتينا (آكل الثور) وتريسبيرس (صاحب الليالي الثلاث) الذي يلد ويولد بصورة فائقة وقد سابق في ليلة واحدة ثلاث عشرة سباقاً وولد خمسين بنتاً لفستيس وبهذه المعجزة سمي الهاً. وبما انه يريد التجديد فهناك تسميات كثيرة بشعة تليق هزئياً بملك الرومان كما توحي اليه الشياطين. وعندئذ يسمى ايدولياتوس (بدل يوليانوس. وايدوليانوس معناها عابد الأصنام).

ان مخلصنا وسيد الكل خالق الكون ومدبر الكل، وهو ابن الآب العظيم وكلمته، رئيس الكهنة الأعظم والمساوي للآب في العرش، وهو الذي، من أجلنا نحن الذين أفنا صورته، وعدنا الى التراب، وبالرغم من كل هذا، لم يكتف فقط أن ينزل الينا بصورة عبد، بل صعد على الصليب، واستجمع الخطايا لكي يميتها. وماذا أيضاً؟ بل أقتنع من

هذا كانوا يدعونه مشبعطناً، لم يكن ليخجل ويتهجم على ثالبيه والشامتين به، في حين أنه كان من السهل جداً أن يحمي نفسه من الأشرار بالقوات الملائكية، وبقوة كلمته وحدها، بل واجه الموقف بكل صبر وطول أناة وهدوء ووداعة، صرف شاتميه وصلّى من اجل صالبيه. أوَ يظن الملك انه يسوءنا ويخجلنا ان ندعى مسيحيين، أو أننا من أجل هذا، سننقطع عن الاشتغال بالخير. ان هذا، لعمري، أمر مضحك، اذا لم نقل مؤسف.

والبكم الأمر الحزن جداً والبعيد في الرداءة والسوء: هو ان يوليانوس (أو ابغوليانوس عابد الوثن) عندما لم يكن يستطيع الاقناع علناً، ويخجل من التعصب الطغياني، كان يغطي رأسه بجلد السبع، بل اذا أردت فقل، كان يغطي ذاته التي لا تعرف وجهاً من وجوه العدل، (لست ادري كيف اسمي هذا)، كان يغطي وجهه بقناع ميترس، فكان يستخدم العنف والعسف والغصب. أذكر هذا، وأترك باقي ما يقال، الى من يريدون أن يؤرخوا الأمور ويكتبوها ليكون الكلام أمراً راهناً ثبتاً. وأظن أن كثيرين سيكتبون في مأساة ذلك العصر، أو قل في تلك المهزلة. والذين يكتبون سيرون أنه من حق الايمان عليهم أن يطعنوا في هذا الانسان المتحل ويزيّفوه، حتى يبقى للأجيال اللاحقة عنه أمرٌ من الأهمية بحيث لا يُنسى أبداً. وأما أنا فبدل الإسهاب في الكل سأورد فقط أمراً أو أمرين للعبرة والمثال في أعين أولئك الذين يعجبون بأعماله كثيراً والذين يطالبوننا بمديحه والثناء عليه، ويزعمون أنه ليس من السهل أن تجد عليه مأخذاً.

هناك ناموس ملكي: لست لعمري اذا كان ملتزماً عند كل من عندهم ملكية. ولكنه عند الرومانيين ملتزم في المعروفين البارزين أن يكرَّم الملوك عندهم بصوَر يعرفها الجمهور كله. لا تكفيهم التيجان وشارات الملك واكاليل الزهور، وحاملو الحراب، وان يصفق لهم جمهور المواطنين ويهتفوا للمملكة، لا يكفيهم كل هذا، حتى يفرضوا السجود لهم لكي يظهر نحو ملكهم واحترامهم، وليس السجود لهم وحدهم بل لصورهم وتماثيلهم أيضاً، لكي يكون الاحترام أيضاً أوفر وأكمل بغير حد وقياس.

وكان الفنيّون والصناع يتسابقون أن يضيفوا الى المصوَّرات صور وقائع مختلفة من حياة الملوك ومآتيهم. كان البعض يرسمون المدن الزاهية وهي تقدم هدايا، والآخرون صور انتصارات يحملونها على رؤوسهم، ليتوج بها رأس الملك، والبعض الآخر كان يمثل زعماء الأمة ساجدين ومكرمين الملك مع شارات ذوي الرتب والسلطة، والآخرون صور صيد وأسلحة صيد، وأخيراً كان البعض يرسمون وقائع هزائم البربر والقين على

قدام الملوك أو مذبوحون في الحرب وبعد الحرب. ذلك لأنهم لم يكونوا ليكتفوا بحقائق الأشياء حتى يروا رموزها مصورة ويفخروا بها.

جاء دور يوليانوس! ماذا نوى وبفكر وأي فخ ينصب للرجال الأكثر صموداً من المسيحيين. وكما يفعل أولئك الذين يخلطون السم بالدسم خلط الكفر والنفاق في عادة تكريم الملوك. جاء ووحّد نواميس الروماتيين بالسجود للأصنام. ولهذا، واذ أضاف الى الصور، صور الشياطين، أظهرها للجماهير والمدن والزعماء الوثنيين كأنها من الصور المعتادة، حتى لا يمكن أن يُجتنب السجود لها لا محالة، ولا يمكن اجتناب شر مغبة الأمر فيها. وعلى هذا فلا بد من أحد أمرين: إما أن تكرم الأصنام مع تكريم الملوك، واما أن يُعتبر عدم السجود لها مسبة واهانة للملوك بما أن السجود هو عام.

اجتنب عدد قليل من المسيحيين الأتقياء الأذكياء غدر الوقوع في فخ الكفر المخترع بإحكام فعوقبوا بحجة أنهم أهانوا الملك، وفي الواقع اضطهدوا اكراماً لملك الايمان والحق والتقوى وحسن العبادة. وكثيرون آخرون من الجهلاء* والأغبياء وقعوا في الفخ، ولعلهم وجدوا عفواً وسماحاً لعدم معرفتهم.

هذا ما كان من شأن هذا الملك، ما بلغ به الى تزييف ملكه وفضحه على رؤوس الأشهاد. انه معيبٌ جداً أن يحفظ ملك مُلكه بالعنف والقوة، والألاعيب. والأقبح أن يغتصب الملك الناس اغتصاباً ويفرض مشروعاته بالخيانة فرضاً.

سأضيف الى ما قيل شيئاً آخر يأتي من نفس الفكرة والاستعداد والموقف، ولكنه، في حجمه، شيء أسوأ بكثير مما سبقه وأشد كفراً ولؤماً. ذلك لأن شره قد نال الكثيرين: في احدى الأعياد السنوية، وكان يوم توزيع عطايا ملوكية. اخترع الملك حيلة وخبثاً مع الجنود الذين أتوا، حسب رتبهم واستحقاقهم ليكرَّموا ويأخذوا العطايا. هوذا أيضاً تمثيلية لقطع الحرية. هوذا أيضاً مسرحية جديدة للكفر! هوذا مجال خداع لتغطية القسوة والوحشية وعدم الانسانية بمظهر الانسانية. وبالتالي تُشتم غفلة العسكر، وتستغل الحاجة الى موارد الحياة. الملك يتصدر بكل بهاء الملك، ويحتفل، ولكن ضد الايمان والمؤمنين، متفخراً بحيله واختراعاته، ويقيس ذاته ومواقفه بلون وأشكال. ولنرَ هذا المشهد:

وُضع الذهب، ووُضع البخور، والنار يقربهما، والمنادون والدعاة قريبون أيضاً. وكل المظهر يدل على توزيع الهبات الملكية بحسب القانون والعادة القديمة المعتبرة. ثم ماذا؟

كان يجب أن يطرح أحدهم البخور ويقبل التعويض والجائزة من الملك. مبلغ زهيد مقابل بذل عظيم، بذل نفوس بأسرها تهلك، وكفر وجحود فيه! يا ويل الذين يقبلون بهذا! تعساً لهذه المبادلة: ذهبٌ بخسارة النفس!

وهكذا فقد اشترى الملك الماكر جيشاً كاملاً باختراع شيطاني. والذين كانوا من جنود حماة العالم سقطوا ضحايا رخيصة، من غير أن يعلم الكثيرون منهم مصير ذبحهم وموتهم. ذلك أمرٌ في غاية الأهمية لدى الملك العبقري في الشر: كان يأخذ أحد الناس بقصد الربح فيهلك ذلك الإنسان مع الربح كله. كان يقبّل يمين الملك وما كان يدري انه يقبل يد من سيقتله! كم وكم من أناس أبرياء سقطوا في تلك الشبكة وهلكوا في تلك الأدوات الحصارية ظفرت بها يد واحدة، وارادة خبيثة في وقت واحد!

ولْيندرجْ فيما ذُكر، حادث آخر أدعى الى الأسف والاشفاق. قال بعض الذين وقعوا بجهل، في شر الملك، انهم عادوا الى بيوتهم وجلسوا الى موائدهم مع زملائهم. ولما حان موعد تناول المشروبات والتمنيات، حسب العادة، رفعوا أعينهم الى الأعلى وذكروا اسم المسيح مع اشارة الصليب. فما هو إلاّ أن تعجب أحد زملائهم وقال: ما هذا؟! تستدعون اسم المسيح بعد الإنكار؟! أيُّ انكار؟ وكيف أنكرنا المسيح؟ أجاب القوم، وهم نصف أموات من الفزع؟!

وما هذا الذي نسمعه؟! ولما قال ذلك المعترض: لأنهم ألقوا بخوراً في نار الأوثان، وأخبرهم، أن هذا يشكل إنكاراً للمسيح. انتفضوا فوراً عن المائدة كمسعورين وفاقدي العقل، يغلون غيرةً وغضباً، وراحوا يركضون في السوق ويصيحون قائلين: نحن مسيحيون، مسيحيون نحن، وأنفسنا مسيحية، نشهد الله على أنفسنا، ونشهد الناس أجمعين. نشهد الله الذي نقطنه نحيا ونموت. لم نجحدك ايها المسيح مخلصنا. ما انكرناه، ولا ننكر الايمان المغبّط. واذا اخطأت منا اليد فقط (بالقاء البخور في نار الوثنيين)، فان العقل بريء مما أحدث اليدُ بفعله، ولا يتبعها. الملك خدعنا. وما وقعنا ضحايا المال، انما ننكر الكفر، ونحن مطهّرون بدم المسيح.

وبعد ذلك تقدموا من الملك وطرحوا أمامه الذهب بشجاعة الفتيان الفائقة وكانوا يصرخون قائلين: انا لا نقبل هداياك ايها الملك ولكننا نرى أننا نستوجب دينونة الموت. الآن علمنا اننا لم ندعَ للتكريم بل للسحق والإهانة. أنعم علينا، نحن جنودك، وقدمنا ضحايا للمسيح الذي يملك علينا وحده لا غير. اطرحنا نحن في النار بدل النار

التي يبخرنا بها، اجعلنا محرقة وشحوما بدل شحم تلك الذبيحة التي قدمناها محترعين. قطع منا الأيدي التي امتدت بُطلاً الى النار، فلتُقطع منا الأرجل التي حملتنا اليك. كرم بالذهب غيرنا ممن لا يندمون عندما يأتون ليقبضوه، أما نحن فنصيبنا المسيح وحده، وهو حسبنا عن كل شيء.

هذا وأشباهه من الكلام ما كانوا يقولون وهم يناشدون الآخرين أن يفهموا الخديعة، وأن يصحوا من سكرهم، ويعترفوا بالمسيح بواسطة دمهم. فحنق الملك شديداً لهذا الموقف، وتحاشى قتلهم علناً لكي لا يجعل من عداد الشهداء أيضاً هؤلاء الذين هم شهداء بالفعل، ولكنه يفنيهم الى المنافي حامياً نفسه بهذه الطريقة ومحسوباً مقدماً احساناً عظيماً لهم بأن يجعلهم بعيدين عن حيله وأدناسه وممارساته. وماذا أيضاً؟ هناك أمرٌ عجبٌ في هذا الملك. انه وان تكن تمتلكه مثل هذه الثورات الغضبية الانتقامية، ويستعمل في كثير من الحالات نيّة الشر، ولكن، بما أنه كان ينقص عقله نضوج الرجل، فليست كل اعماله من ابتكاراته ومبادهاته، بل من اندفاعات شيطانية، لذلك فلم يكن يتمسك بقراره حتى النهاية، ولم يكن يحتفظ بسريّة خباثته. ولكنه كان مثل نار أيتني البركانية، التي يقال عنها انها تختفي في جوف إيتني[1] تطوف طوفاناً وتفور فوراناً في قعر الأرض ولكنها مضبوطة بالقوة عن الفيضان، ومن يدري لعلها شيءٌ آخر، أو لعلها زفرة من أحد الجبابرة المعذبين المقيّدين في باطن الأرض[2] فهو لذلك يُخرج أولاً صرخةً رهيبة، ويقذف من رأسه دخاناً نذيراً سابقاً بالويل الجائم العظيم، فاذا ما تعاظم عليه الثقل وضاق به حتى لا يحتمل الانحصار، اغتلى غلّه في الأعماق وانفجر من أحيته الجوفية، ثم يتصاعد الى الفوهة العالية، ويتدافع منسكباً من أحشائه، مدمراً بتياره المنقض المغضوب ما حوّله من النواحي والمناطق، هكذا (نعود من الصورة الى المثال) أيضاً فعل وتصرف هذا الملك. نرى أنه كان يمسك ذاته، الى حدٍ ما، ويخفي ما ينوي، وكان يخطط لأمورنا خديعة وشراً. الا أنه عندما كان يطفح شر غضبه، لم يكن يستطيع أن يخفي عادته الرديئة. كان يعلن الاضطهاد مكشوفاً ضد جماعتنا الالهية المؤمنة. واليكم البيان، ومن غير أن ندع ذكر الأوامر الصادرة ضد البيوت المقدسة، الأوامر التي كانت تعرض علناً أمام الجماهير، وتنفذ على حدة. ومن غير أن نذكر سلب الأوقاف والأموال

---

(١) انظر عوبل ابنياس ٣ بمروبة التجليات.

(٢) ورد في الأساطير ان انفجارات بركان ايتني تعود الى آثار مشاعل الجبار تيفون الذي ضغطه ثقلُ جبل، وقع عليه بأمر زفس (أب الآلهة) بعد صراع رهيب بين الاثنين.

وخطف وسرقة الأواني المقدسة التي كانت تهان بأيدٍ دنسة والكهنة والعلمانيون يمسكون بها، ويُجَرُّون بسببها جراً ويعذبون، والأعمدة المليئة بالدماء التي كانوا يُربطون بها بأيديهم ويُزَّرون ويُجلدون، والرماة بالقسي يجولون المدن والقرى يتعقبون الفارّين بالرمي، كما لو كانوا عجماً أو غوطاً أو برابرة. إذن ولكي لا أفصّل كل شيء، أقول من يجهل قسوة ووحشية أهل الاسكندرية الذين استغلوا فرصة الأوامر أبشع وأفظع استغلال. فقد بلغ بهم الأمر أن ملأوا الهيكل المقدس وكل الكنيسة من دمٍ ممزوج مما سفكوا من دم الحيوانات ودم الضحايا البشرية من المسيحيين، فعلوا ذلك بتوجيه وإرشاد أحد الفلاسفة الملكيين، هكذا سمي فقط؟ من يجهل سلوك وتصرف أهل بعلبك؟ من لا يعرف لأهل غزة جهالتهم الجهلاء، وعنفهم الرعناء؟! أولئك الذين كانوا ينالون إعجاب الملك وتكريمه لأنهم كانوا يحسون جيداً بهيبته وعظمته؟ من يجهل شهوة الانتقام وجنونه عند أهل الرستن؟ أهل الرستن الذين كانوا إلى ذلك الحين مجهولين مغموري الذكر، ومن بعد فعلهم وتنكيلهم بالمسيحيين صاروا معروفين جداً في كل مكان، لأن الشهرة لا تأتي فقط من الفضيلة بل ومن الرذيلة وفعل الشر.

والبكم، بعدُ من تلك الفظائع فضيحة ترتعد منها حتى فرائص الملحدين! عذارى عفيفات مصونات في خدورهن لم يشاهدهن الناس حتى من أعين الفتيان، أُتِيَ بهن إلى المسرح، وعُرِّين من ملابسهن للفضيحة والعار أولاً أمام المتفرجين، ثم شققوهن وقسموهن إلى قسمين (آه كيف احتمل منك يا مسيحي هذه الأناة التي أظهرتها عندئذ)!؟ والبعض منهم تناولوا أكبادهن بأسنانهم وأكلوها نيئاً وشبعوا بما يتفق وهواهم الشيطاني، وبعد ذلك قربوا المعتاد من عبادتهم وعاداتهم الشيطانية. وآخرون حشوا الأحشاء بطعام مهيأ للخنازير، وأطلقوا أشد الخنازير شرهاً ليرى المشهد أن لحماً مشوماً يمزق ويؤكل طعاماً مختلطاً يُرى ويُسمع به لأول مرة، طعاماً يحسن للملك أن يقدمه لشياطينه فقط، لأتباعه الذين طالما قدم لهم ولذقه قبلاً من الدم الجاري من الجنب الأقدس. كان يقبله باحترام وإياهم، وإن يكن هؤلاء الأشقياء يظهرون عدم الشعور بهذا المآتمي، وليس عندهم أي تعقل وصحو بسبب كفرهم.

وماذا نقول في حادث العجيب مرقس مع أهل الرستن. من هو غريب عن عالمنا حتى يجهل ذلك الحادث؟ هذا جرى في زمن قسطنديوس العظيم في الفترة التي كانت فيها السلطة للمسيحيين. عندئذ، ووفقاً لتلك الظروف، هدم مرقس بيتاً للأصنام، وحوّل كثيرين من الضلالة اليونانية إلى طريق الخلاص، بفعل بهاء حياته في الفضيلة أكثر مما هو

بفعل قوته في الكلام، الأمر الذي أثار به غضب وانزعاج الرستيين، أو قل انزعاج أولئك الذين كانوا أصدقاء الشياطين من أهل الرستن.

هكذا، ولما انقلبت الحال ضد المسيحيين، وهاجت خواطر الوثنيين ضدهم، لم ينجُ مرقس المغبوط من انتقامهم ووحشيتهم، لأن الجماهير ترتضي أن تضبط غيظها الى حين. مثل النار المختبئة في الحطب، حتى اذا وجدت الفرصة تشتعل وتنفجر. ولما شعر مرقس غضب الجمهور عليه، افتكر أن يفر ويهرب في البداية، لا بسبب الخوف والجبن، بل عملاً بالوصية الانجيلية التي توصي بأن نذهب من مدينة الى أخرى، وأن نتراجع بحكمة أمام المضطهدين. ولكنه لما علم ان كثيرين يُعتقلون بسببه، ويجرون الى السجون ويُضطهدون حتى الموت، عاد من منفاه وسلم نفسه لجمهور الحاقدين. وهنا الانتكار في أية أهوال وأي نكال أصابه!؟ في أي تعذيب أصعب التعاذيب لم يُتَكَّم ضده ويُفتن به في التشفي منه؟! كل واحد تفنن في شره من غير أن يحترموا صبره وتجلده، بل اعتبروه بالأحرى، تجلده هذا تحدياً لهم واحتقاراً، وازدادوا غيظاً وحنقاً.

وهكذا كان المجاهد الطوعي، الكاهن الشيخ، في ورع سنه، وفي احترام مواطنيه لدى الجميع، الا المضطهدين الظالمين، كان يقاد ويُسحب سحباً يسحبه السفلة من كل من، بل قل من كل الطبقات الاجتماعية العالية والسافلة، نساء ورجالاً شباباً وشيباً، الكل كانوا يتبارون ويبالغون في القحة والقساوة والفظاظة ضد انسان واحد في ساحة الشهادة، بحيث ويصمد فيغلب مدينة بأسرها وحده. كانوا يجرونه من ساحة الى ساحة، يسحبونه بشعره حتى لم يبق منه عضو سليم من الألم والأذى. ولم تبق اهانة وشتيمة لم تنصب عليه من أولئك الذين كانوا يتفننون فيه التعاذيب كما في ميتراء. كان يُرفع معلقاً برجليه وينخس جسمه بأقلام قصب حادة، وتجعل مأساته لعبة وطولاً جعلوا يضغطون جنبيه حتى تتأذى عظامه الى حد التكسر، ويثقبون أذنيه بخيوط صوفية دقيقة ويشرمونها شرماً. ثم علقوه عالياً في سل ودهنوا السل وجسمه بالعسل والحلوى حتى تلسعه النحل والزنابير، والشمس تنصب عليه بأشعتها المحرقة في وسط النهار. وهنا أيضاً شيء يؤثر في التذكر والتسجيل هو أن الشيخ، بل الفتى الشجاع في الجهاد، (لأنه كان يجد لذة وراحة في التعاذيب) كان يصنع اشارة الصليب ويمجد الصليب وكان يرى نفسه، من علُ، كأنه في تداس، وليس في نكبة وشدة.

هكذا كان فعل الرستيين، وبمثل هذه الفظاعة وحتى ليقال ان وحشية ايخيتس[1]

---

(١) بطل اسطوري قتل عنقاً كثيراً من الفرس في وقعة ماراتونا بقطعة من المحراث.

وفلاريس[١] هي شيء لا يذكر بالنسبة الى قسوتهم وفظاعتهم، اذا لم تقل بالنسبة الى فظاعة وقسوة الملك الدافع والمنظم لمثل هذا، اذا سلمنا جدلاً ان النبات يعود الى البذار، والغرق الى مهب الريح[٢].

وأما الأراجيف والأفاعيل الأخرى فكم كانت كثيرة! ومن أي نوع كانت؟! من لي بالوقت الكافي، ومن لي بقلم هيرودوت (ابي المؤرخين) وتدكيفيدس لكي أسلم الى الأجيال المقبلة وصف خباثة وشر هذا الرجل، وأن أنشر واكشف للأزمنة القادمة كل ما جرى في أيامه؟! إسألوا نهر العاصي كم غيّب في جوفه من ضحايا الملك الليلية! اسألوا الدهاليز والدهاميس والتجاويف التابعة للقصور بعيداً! إسألوا الأنهار والآبار والأجباب والمغاور عمّا تعجّ به من أسرار المُماتين بها! لا نذكر نقط الأولاد والعذارى الذين كانوا يُقطّعون إرباً من اجل السحر والتسلية والترويح عن النفس في ذبائح غير عادية، بل نذكر الذين قدموا أنفسهم ضحايا الاعتراف بايمانهم. ولنغض عن امور كان الملك يظهر الخجل بعد ارتكابها، ذلك اذا كان يظن أنه يحتمل بعض الاعتدال. ولكن عندما كان يحاول المفعولات يصير جلياً واضحاً ان الأرجاس والأدناس لا يليق بها ان تكشف للجمهور. هذا ما كان من فعله بأهل قيصارية المسيحيين، بأولئك الرجال العباقرة الكبار والمستحرّين في ايمانهم وتقواهم. أولئك كم وكم عذبوا ونكّل بهم وأهينوا وشتموا من قبل الملك العادل! وقد لا يجوز عنده أن نتهمه ونطعن بموقفه، لأنه كان يظن أنه اغتصب واحتل بحق من قبلهم، فبلغ به الأمر الى هذه المبادلة. وعلى ذلك فيجب علينا أن نصفح الى حدٍ ما عن سيادة الظلم والطغيان.

ولكن لا يعرف أنه في حال ثورة الجمهور ضد المسيحيين ومقتل الكثيرين منهم، كان الاكثرون مهددين بموقفهم لا يعرفون المصير. لأن رئيس الأمة، اذ كان يتبع خطاً وسطاً بين حكم الأحوال والظروف، وبين شرعة القانون، كان يختلف ويعتقل كثيراً من المسيحيين ويوبخ القليل من الوثنيين، واخيراً وبعد المناكفات الظالمة يقتل من يقتل من المسيحيين ويبعث الآخرين الى المنافي المرة والسجون وهكذا ترى كم يكون القرار انسانياً

(١) طاغية من طغاة اكراغنطس مشهور بقسوته.
(٢) ولأجل هذا يقال ان رئيس الولاية (الذي كان وثنياً في دينه، ولكن موقفه من تصرف الوثنيين كان سبيلاً يستحق المدح في كل وقت) إذ لم يتّفق أن يجري العذابات الكثيرة والمتنوعة التي كان يحتملها مسرقس الشيخ، ولا تعجب بصبره وتجلده خاطب الملك بحرارة قائلاً: اننا لسنا نخجل أيها الملك أمام كل المسيحيين ما دمنا لم نستطع أن نقهر شيخاً واحداً تحمّل كل هذه العذابات؟!

ومدهشا؟! وكان الحاكم العادل، والغير المضطهد للمسيحيين يقول: ما هذا الأمر العظيم؟ ماذا اذا كانت يدٌ وثنية (يونانية) واحدة تقهر عشرة من الجليليين أي هذا من عجب؟! أليست هذه فظاعة واضحة للعيان!؟ أليست هذه الأمور اعلان اضطهاد أظهر وأفظع من الاضطهادات المعلنة رسمياً؟! لأنه ماذا يختلف في شيء أن تظهر أنك تمتن من مضطهدي المسيحيين، وأنت تعتبر جريمةً كبرى الموقف المعتدل بحقهم، لو أن تهيء تهديدات مكتوبة ضدهم تعتبرها قانونية وعادلة؟! ذلك أن ارادة الملك انما هي ناموس غير مكتوب مستند الى القوة، بل هو أقوى من الناموس المكتوب الذي لا مفعول له عند السلطة. ولكن الذين يحترمون اعمال الملك، ويعتبرونه فينا الهاً جديداً سوياً مشكوراً وعجباً للبشر يقولون كلاّ ليست الأمور كما تزعمون. فالملك لم يعلن الاضطهاد علناً. وهذا ما يبرره من تسبيب الاضطهاد وان يكن راضياً بما يصير. ولكن، من المعروف، أنه ما من أحد وصف قط إيذرا[١] بالهدوء والوداعة لأنه يبرز بدل الرأس الواحد تسعة رؤوس، اذا كان لنا ان نؤمن بشيء من الأسطورة، أو قل الشيء نفسه عن خيميرا البتاريكية[٢] لأنه كان لها ثلاثة رؤوس غير متشابهة بحيث تصبح أكثر رعباً وهولاً، من كيرفرس[٣]، أو الحية البحرية سكيلا[٤] لأنه كان لها ستة رؤوس دائرية، وان تكن كما يقال، أعضاؤها العليا صالحة وانسانية، وفي مظهرها ليست مكروهة للنظر، لأنها كانت فتاة بعض الشبه بنا، ولكن رؤوسها الوحشية الكلبية اختلفت أساطيل بكاملها، ولم تكن تختلف في خطرها من حارفذن[٥]. أولستُ ادري لعلك أنت تجرِّم وتدين سهام الرماة، وحجارة المقاليع، ولست تدين أولئك الذين يرمون السهام ويقذفون بالمقاليع؟ بل، فتقبل بعبارة أخرى، انك تدين وتجرِّم كلاب الصيادين وسم الأدوية، وقرون الثيران، واظفار الوحوش، أما مستعملوها للنطاح والقتل والتمزيق، فهم في نظرك بريئون من السبب والتسبيب. انها لحماقة شديدة هذه المواقف، وانها لمحتاجة الى حكيم متفلسف سفسطائي يرى لزاماً عليه أن يدافع

(١) إيذرا جبار اسطوري قتله هيراكليس في بحيرة ليرني ارغوليتا.
(٢) خيميرا بنت تيفيس وايخيذنس، كان رأسها والقسم الأعلى من جسمها رأس أسد، والقسم الاسفل جسم تنين واما القسم الأوسط فهو جسم تيس، وهي حيوان هائل قضها البطل فيليرفونذس في ليكيا.
(٣) كيرفرس كلب هائل ومخيف حارس يحرس ابواب الجحيم.
(٤) سكيلا كائن هائل جبار بسبب العنف والرعب للبحارة وهي بنت لأمها. كانت ابنة جميلة عذراء بحرية. تحولت الى فخ البحارة، حولتها كيركي وامفيتريتي كل هذه من الميثولوجيا.
(٥) هو كذلك كائن بحري هائلٌ ومرعبٌ مثل سكيلا.

عن سيئاته لكي يغطي الحقيقة بقوة الكلام. ولكنه لا يستطيع أن يختفي ذاته، حتى ولو لجأ إلى كل حيلة واستعمل كل السفسطة حتى ولو تنكر كل التنكر وحتى ليحمل عصائب الجحيم وأصابع غيي[1] وصار بمهارة دورة المقلاع. بل على العكس من ذلك. فكلما سعى الى ان يهرب ويفر، كلما انكشف وافتضح أمره، وسهل أخذه في حيله وخبثه.

هذا، ومثل هذه الأمور البعيدة عن أدب الملك وجلالة المُلك، لم تكن هي وحدها التي أجراها وقام بتنفيذها، بل ان التي كان ينوي تنفيذها، كانت أخفى وأدهى وأدق إحكاماً لتليق بالملك الماكر. ولو لم تكن تلك الأعمال المنوية في ذهن الملك اكثر قساوة ووحشية لما اقتضتنا كلاما كثيراً، فهو مثل التنين المتحرك يأكل ما هو أمامه ويهيء لما بعد وان يكن يبدو هادئاً ساكناً. بل اذا شئت فقل هو كالصواعق تحرق ما تحرق، وتسوّد ما تسود، حتى يعم بلاؤها في الزعزعة والتهديم والتخريب ولا تدع البلاد بعدها إلا يباباً خراباً. وهكذا قل في هذا الملك الذي يعمل اشياء كثيرة خارج الناموس، واشياء أخرى كثيرة يخطط لها ويسجلها الى حينها مع الآمال والتهديدات معاً. وهذه كانت من الفجاجة والقسوة والبعد عن المعتاد بحيث لا تسمح لأي ذهن، غير ذهنه، أن يفتكر بها، وأن يخطط لها ويحولها الى وقائع، وان يكن قد سبقه كثيرون من الملوك كانوا مضطهدين ومحاربين للمسيحيين.

لأنه لو نظرنا الى الوراء، لوجدنا أنه لا ذيوكليتيان، فيما اضطهد به المسيحيين، وأحل بهم الضربة الكبرى، ولا مكسيميانوس الذي خلفه وزاد عليه، ولا مكسيمينس الذي خلفهما وزاد عليهما في الاضطهاد ايضاً، (والذي ما زالت علائم الاضطهاد تظهر في أجسام مضطهديه الى الآن عندنا)، كل هذه الاضطهادات وأشباهها كان يوليانس يدرسها وينوي تنفيذها كما يؤكد ذلك العارفون والشاهدون المطلعون على سره، ولكنه كان يمسكه عن ذلك قدرة الله محب البشر، ودموع المسيحيين التي كانت تذرف بغزارة وكانت الدواء الوحيد لحقد المضطهد. فقد كان ينوي ما يلي: ان يحرم المسيحيون كل حرية في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم، وأن يمنعوا من كل شيء، من الجمعيات، ومن الأسواق، والاحتفالات، ومن المرافعة في المحاكم الا للذي يقدم ذبيحة للاصنام، أو يقدم رشوة كبيرة للحكام.

---

(١) رئيس فرقة الملك قادش ملك سادوميس.

عفوَ الشرائع، وعفوَ المشرّعين، وعفوَ الملوك الذين، هم في العالم، معتبرون، مثل جمال السماء، ومثلَ نور الشمس، ومثل نسمة الهواء في تصرف الجميع وخدمة الجميع بلا استثناء، نعمةً من الله للبشر، حبّ متدفق مشترك! عفو كم ترى هكذا رتبتم حماية الشرائع والقوانين بالعدل والتساوي لجميع البشر المخلوقين أحراراً؟! تلك الحرية كان الملك العادل يعزم أن يحرم المسيحيين منها، بحيث انهم حين يُضطهدون ويُغتصبون لا يسمح لهم بالمطالبة بحقوقهم، ولا حين ينكبون بأموالهم، ولا حين يحل بهم من الجور صغيرٌ او كبير ومن كل ما هو ممنوع عليهم لا تحميهم الشرائع والقوانين! بل ان يُشرّدوا، ويكونوا في المنافي البعيدة المرة، وأن يُقتلوا، حتى لو جاز ان يمنعوا التنفس ونسمة الحياة، تلك المظالم التي تجلب لمحتمليها المجد والكرامة، وعظيم الدالة والحظوة عند الله، كما تجلب لمقترفيها الخزيّ والمهانة والدمار.

وكم كان يدّعي الحكمة في كلامه ذلك القائل والحامي، المشرّع ودائس الشريعة، أو، بعالّة الصراحة، فلنقل، انه ذلك العدو والمنتقم، كما قالت المزامير. لأن شريعتنا تقول ألاّ ندافع عن أنفسنا، ولا نشتكي، ولا نمتلك شيئاً ولا نعتبر أن شيئاً يخصنا، لكن كأننا نعيش في مكان غريب، ونحتقر الحاضرات كأنها غير موجودة، ولا نقابل الشر بالشر، ولا نفعل الشر ولا نوفر اللطم على الخد الواحد اذا لُطم الخد الآخر، وان نهب الثوب والرداء. بل ولأضف على ما ذكرت أننا يجب علينا ان نصلي من اجل الذين يظلموننا ويضطهدوننا. فكيف اذن يجهل هذه الأمور ذلك الملك الذي كان يوماً ما يقرأ الكلام الإلهي، والعلماء الالهيين، واستحق الشرف ان يدخل الى الهيكل العظيم، وكان يكرّم الشهداء بهياكل ومقامات؟

عجباً لهذا الرجل! تناول تعليم الانجيل وتكلم عنه! وما كان ليجهل أن: «الأردياء يهلكون أردأ هلاك»، ويعلم أن كل من يفكر الالحيّات يهلك، والأعظم من هذا انه يطوق ويحاصر كل الراسخين في عقيدتهم، ويحيطهم بالويلات الحاطة السوار بالمعصم! فليقل لنا الملك العادل والفيلسوف المتديّن اننا على الباطل، وانه وجماعته على الحق، فسنغضب حقه المزعوم بتقديم شهادة الدم، وشهداء الدم يشهدون على حقيقتنا في حين أن أصحابه لا يقدمون شهادة، باقل ما تكون الشهادة، على ان اكليروسهم الذي نظمه لهم في مراتب وطبقات، على نحو ما عندنا، وما تعلّمه في ديانتنا، هو صاحب عقيدة وطالب خير للناس. هل يكون الخير والصلاح والوداعة ادعاءً بالكلام دون العمل وإلاّ فليبرهنوا لنا: كيف وأين يكون العدل: أن نعذب نحن ونحمل العذاب بصبر وأن لا يرثوا لنا ولا يشفقوا علينا؟! فتأملوا ما هذا الفرق! لما كانت السلطة بأيدينا، هل حصل

شيء من المسيحيين ضدكم مثل ما يحصل الآن ضدنا؟ هل حجزنا عليكم حريتكم وحرمناكم منها؟ أية إثارات شعبية أثرناها ضدكم كما تفعلون؟ هل تسلطنا عليكم تسلطا وتجاوزنا الحدود؟ من منكم أنذرنا بخطر على حياته؟ من منكم أقصيناه من السلطة أو من مراكز الشرف والاعتبار التي تخص المتازين بالفضيلة كما تفعلون بنا الآن؟ وبالاختصار نقول ماذا فعلنا مما تفعلون أو تهددون بفعله الأبرياء والصالحين.

لنرَ ونتأمل ماذا فعل ملككم: انه وان يكن قد تحاشى اعلان اضطهاد علني على الكنيسة إلا انه استعمل وسائل جهنمية خفية: أمر، مثلاً، أطباء وجنوداً ومدرسين وخطباء، أمرهم جميعا أن يتركوا مصالحهم وأعمالهم، أو أن يرفضوا ايمانهم. وتعلّل على المؤمنين ألف علة وعلة ليأخذهم بذنب أو زلة. وهكذا أثار على الكنيسة اضطهاداً صامتاً بغير إعلان. منع المسيحيين من مزاولة الأعمال الحرة، وحُرموا من قول الحق، وأبعدوا من النقابات والمحاكم وحضور الاحتفالات وغيرها، لأن الذي كان يريد أن يقيم دعوى، كان عليه أن يقدم ضحية، ويلقي البخور على المذابح القائمة أمام المحاكم. فكان المسيحيون يُجرّون كمحكوم عليهم ويُعدمون: الفاعلون والمتهمون على السواء. ولذلك كان البعض يختفون في بيوتهم، أو يقطنون القفار أو يتيهون في الأسواق.

وهناك نساء واجهن بتحدٍ وشجاعة، اضطهاد ملككم يوليانوس وأصحابه مثل القديسة بوبليا التي كانت شماسة ورئيسة رابطة بعض العذارى المنذورات لله. اجتاز ملككم في أحد الأيام، من أمام مكان إقامة تلك الأخوية، وسمع الترتيل الآتي ترتله أولئك العذارى: «أصنام الوثنيين ذهب وفضة، لها عيون ولا تبصر، لها آذان ولا تسمع، لها ألسنة ولا تتكلم، لها آناف ولا تشم، مثلها فليصرْ صانعوها والمتكلون عليها» (مز ١١٧: ١٢) فاعتبر الملك أنهن يرتلن ضده وضد أصنامه التي يحوي أن يحلها على الإله الحقيقي، فأمر أن يسكتن. ولكنهن رفعن اصواتهن ورتلن: «ليقم الله ويتبدد جميع أعدائه ويهرب مبغضوه من أمام وجهه، كما يباد الدخان يبادون، وكما يذوب الشمع من أمام وجه النار» (مز ٦٧: ١) فغضب وأمر بإحضار رئيسة الأخوية، ولم يحترم شيخوختها، بل أمر أحد حرسه أن يضربها على هامتها بكلتا يديه، فهشم رأسها ومضى تاركًا تلك المسيحية الشجاعة مضرجة بدمها وعادت ترتل مع جوق العذارى.

ماذا نذكر من فعلكم، ايها الوثنيون وفعل ملككم ورئيس كهنتكم الجديد: «هياكل في كل مكان ونار ودم وذبائح وشحوم ودخان ومواكب واجتماعات، ورائحة الدخان والدسم من شحوم الذبائح! وصرنا لا نستطيع أن نستنشق هواءً نظيفاً».

ولكن أرى أنه ينبغي لي العودة الى حق الكلام، واستعمال لغة الأدب الذي اراده ويريد أن يمنعنا منه نحن المسيحيين هذا الملك الفيلسوف. لأنه من كل ما تعدّى واقترى به علينا وما تجاوز فيه كل شرعة وحق وعُرف وقانون، يأتي هذا الجور الأكبر أعني به حق الكلام والتعليم باللغة اليونانية، واني أعجب بكل من هو معجب ومسرورٌ بقيمة الكلام، أن يكون في صف هذه الفئة المختارة المحبة للكلمة التي لا أنكر أنا أني اليها منتمٍ وبها متعلق. وعندي، وعند كل صديق لي أنّ قوة الكلمة هي تلك القوة التي احببتها واحبها من كل قلبي أعني الأقوال الالهية أو اللاهوتية والرجاء الوطيد والآمال الثابتة تحقق المرجوات. لستُ ادري من أين جاءك أن تحرم المسيحيين حق الكلام والتعليم ايها الأحمق والأجهل من كل الحمقى والجاهلين؟ ولم يكن ما جاءك من هذا الأمر الغريب تهديداً بل تشريعاً.

أجبني من اين خطرَ لك هذا القرار والى ماذا يهدف هذا القرار وعلامَ يستند هذا الابتداع والابتكار؟ أنتَ تقول ان الأدب والأدباء منكم، وان حق التكلم باللغة اليونانية هو حقكم فقط، لأنكم تحترمون الآلهة وتعبدونها. ولنا نحن المسيحيين الجهل وعدم المعرفة. واذا كان لك وحدك هذا الإيثار والاحتكار في معرفة واستعمال اللغة اليونانية فقل لي: أليست الحروف الأبجدية اكتشافاً وابتكاراً من الفينيقيين؟ أليس الأرجوان اكتشافاً من أهل صور الفينيقية؟ واكثر عباداتكم والتكم التي تعبدونها أليست من الخارج مع علم النجوم والفلك والتوقيت والسحر وتفسير الأحلام والفأل والتنجيم وسائر ترهاتكم وشعوذاتكم. ألست مقتنعاً على كل علومكم وفلسفاتكم وأساطيركم؟

لقد كان ملككم الحالم أحلام الاسكندر الكبير في احتلال العالم، وتكوينه من جديد قد تعلم منّا نحن وكان عازماً أن يؤسس مدارس تعليم ابتدائية ومتوسطة وثانوية، وأندية علوم لغوية، ومدارس تربية وتعليم ديانة في مراتب اعتراف، وقسمة الشعب الى موعوظين ومؤمنين (مصلّين)، وأن يجعل معموديات خاصة ومعمدين وقندلفات ليتدرجوا على مثالنا، ووظائف اكليريكية تراتبية. وكان عازماً كذلك على تأسيس ملاجئ، ومآوي عجزة ومضافات، وأماكن عبادة، وبيوت عذارى ومؤسسات خيرية لمساعدة المحتاجين وكل ما يعرفه فينا وعندنا من عمل الخير؟

هذا ما كان ناوياً عمله الملكُ الحكيمُ ومشترع العقائد. ولكنه لم يكمل شيئاً، ولم يبرز مشروعه الى الوجود. على أنه لا بأس أن نعرض صور المسرحيات والتعديدات والتشكيلات الوثنية. نتصورها بواقعها ووصفها ونعرف كيف تكون طريقة الوثنيين في

عباداتهم وتعليمهم وكيف تكون خاتمة اجتماعاتهم لنرى كيف تتحرك البدعة والخرافة عندهم حسب قول افلاطون في جمهوريته. فلنتغلغل الآن الى دار غبطتهم وسعادتهم وما يعملون لكي نمزج ونتلذذ مع القوم فيما يمثلون ويتخرّفون، كما يجري في المسرحيات والتمثيليات الكثيرة، ولا بأس أن نضيف الى قول بولس الرسول: «افرحوا مع الفرحين ودموعاً مع الباكين: «ترميراً مع المزمرين» والضحك مع الدموع أمر يعرفه الشعراء الحالمون في كل واد. والآن لنتصور المسرح جاهزاً مهيئاً ولست أدري ماذا يرتبون أن يسمّى بيت لاجتماعاتهم: ينادي المنادون ويجأرون بالصياح. الشعب يجتمع، ويحتل المقاعد الأولى بينهم المتميزون ببياض شعورهم وسنهم وخبرة حياتهم. ثم ماذا؟ يتزينون بشرائط وعمائم واكاليل من الزهور والزينة. لأنه تأكد لي أن هؤلاء إنما يستهدفون الأبهة وما هو فوق المعتاد عند الناس.

ثم ماذا بعد هذا؟ يكون لهم خطباء بُلغاء تُملى عليهم الخُطب، ويتفحصون الرقوق والكتب اللاهوتية والاخلاقية. ولكن قل لي، رعاك الله اية كتب ولمن من الكتّاب هي؟ يروق لهم أن تنشد أمامهم سلسلة مواليد الآلهة وانسابها لإرسيودس، وأخبار الحروب والزعازع التي توصف فيها، وأخبار العمالقة والجبابرة بأسمائها وأعمالها الرهيبة. أخبار كوتس وفرياريس واينكلدس والتنانين ذات الأرجل. والآلهة الحاملة الصواعق والجزائر القصية التي تحفيها مع نباتها وأقوامها. ومقابر الذين صادفوهم وأماتوهم، والأودية والهاويات السحيقة والبحار والمحيطات التي يجتازونها والغورغونات (نصفها سمكة ونصفها امرأة) التي فيها. ثم فليأت بعد ذلك أورفيفس بقيثارته وشبابته وأناشيده التي يجتذب بها كل سامع، ولتتردد في آذان زفس كل الأقوال العجيبة والعظيمة والمعاني اللاهوتية:

«يا زفس يا عظيم الآلهة المحتفي بزبل الغنم، وأرواث الخيل والبغال والمزابل التي منها، كما اظن، تظهر نسمة الحياة، وصنع الحياة عند الآلهة. لأنه ليس ممكناً أن يكون الأمر على غير هذا المفترض. وليس لنا غير هذا الخطاب نخاطبك به».

وبعد أن تقول الإلهة هذه الكلمات ترفع فخذيها حتى تُدخل في سرها العاشقين لها والمعجبين بها. ثم يأتي اله يبلع كل الآخرين، ثم يردها الى الآلهة ليكون زفس أب الآلهة والبشر. هذه الأقوال يقولونها أمام السامعين المعجبين بلاهوتهم، ثم يخترعون لها الترجمات الرمزية والخيالية. وأما الخطاب والموعظة فاذ يسقط من واقع الحال فليدخل عميقاً في أعماق ومهاوي النظريات التي ليس لها نهاية.

أين تجعل هوميروس أكبر كاتب الغزليات والمآسي عندك؟ لأنك ستجد في أشعاره الرائعة مآسي ومهازل، منها ما يستحق الرثاء ومنها ما يستحق الضحك! كيف يتصالح أوقيانوس (ابن السماء والأرض ووالد كل الآلهة القديمة) مع تيثيس (ابنته) بواسطة إيرا المتزينة بطريقة زنائية. وبما أنه من الخطورة أن يتقاتل هذان الإلهان لزمن معين، أو يتصالحا بين الأرض والبحار (بين اليابسة والرطبة)، اذا احتاج الأمر الى ذلك، لكي لا يُدمّر الكون بتفوق الواحد على حساب الآخر. وما هي الرابطة العجيبة بين مجمع الغيوم (زفس) وإيرا الموقرة عندما تقنعه أن يعمل ما يقبح ذكره في وضح النهار، وان يكن الشعراء يمالئونهما بأشعار فارغين، فما تباتات نديّة ويستنبتونهما الأرض الريحان والأقحوان؟

من أين هذه الأمور وكيف الكلام عنها؟ وكيف تصور إلهك إيرا ذاتها، أيها الوثني، التي هي أخت زفس العظيم وزوجته، والتي تظهر احياناً معلقة بالفضاء وبالغيوم وتنزل بسلاسل حديدية، وتكرم بأرجل وأيدٍ ذهبية او كأنها بيضاء وتسبي كل جمهور العشاق بحسنات زفس، حتى يعترف الجميع أن حبه لكل النساء ينقص عن حبه لها؟!

ومن أين جاء الخوف من أنه، اذا قامت قيامة الآلهة من أجل الحليلة الزانية السبارطية، وبوقت السماء ينهد امام الأرض، وينتقل البحر، وتنكشف عالك الجحيم، ويأتي الى وجه الدنيا كل الذين كانوا مختفين منذ زمن طويل؟ ما هي غمزة الأجفان، وارتجاف شعور رؤوس الآلهة التي تجعل جبل الأولمب يهتز من أساسه؟

وماذا أيضاً؟ فليعلّم المعلمون اللاهوتيون الوثنيون الشعب الوثني العقل والحكمة، وليدخلوه في سر العفة والانضباط. وهذا هو المعلم الاكبر الذي يقنعهم بهذه المبادئ، حاضرٌ قريب، هو الذي يصيّر كل شيء، ويحلل كل شيء في سبيل النساء، هو زفس، النسر، العاشق الأحب لفتيات فريجية (حيث يطيب الشراب في الولائم للآلهة، ويُسقاة الخمر بين يديه غلمانه الأحب اليه) وإيراكليس ايضاً الثلاثي الأمسيات (تريسيرس) الذي ضاجع في ليلة واحدة بنات تيستيس الثلاثين، واستولدهن البطل الثالث عشر الذي لا أدري كيف لا يحسب مع الآخرين؟ ولنصرف التذكر عن خبر غضب أريس، وعن سكر ذيونيس، وحقد أرتميس على الغرباء الأجانب، وعن غش لوكسيا (ابولون)، وشراهة زفس الذي يركض وراء مشاهير الحبشة من أجل غداء دسم مع باقي الشياطين، وكذلك قوتا الذي اغتصبَ أحد الحارثين ثوره، والنير في رقبته، وأكله بشراهة: وتحتفل بعد ذلك اسمه كل الذين يتقشّفون للصيد والقنص. ولكن قل لي يا هذا اني لهؤلاء

الوثنيين، بمثل هذه الاعتقادات والتعاليم، أن يثبتوا أمام اعتقاداتنا وتقاليدنا؟ كيف يكونون مثلنا نحن في الحب والقرابة والصداقة؟ كلُّ انسان من الأناسي اخ بغير تمييز ونريد للقريب ما نريده لأنفسنا؟ والجرم والجريمة عندنا ليس فقط في أن نكون فاعلي شر، بل في مجرد النية السيئة والخبيثة، ونجازى على الغضب كأنه فعل حادث. وعندنا أن التعقل والتهذيب أمر سام بحيث تضبط العين عن النظر الرديء واليد القاتلة مرفوضة، والعنف مرفوض الى حد استحقاقنا العقوبة والدينونة على مجرد الغضب. والقسم يُعدُّ من الفظاعة وفداحة الخطأ بحيث يكون مجرد التلفظ به ممنوعاً. وعدم القنية والمال شيء فوق الغنى كله، والشراهة عندنا للأكثرين أم الرذائل. وأما الشهوة الجسدية فقد أمات الكثيرون أجسادهم من أجل النفس الخالدة، وصارت فيهم العفة شيمة. وصار ناموسهم في الفضيلة واحداً، وهو أن لا يُغلبوا أمام الأمور الحقيرة الصغيرة. والأهم من كل شيء هو أن ندين الأسباب قبل أن ندين النتائج الحاصلة من الخطيئة، ونقف للشرائر بالمرصاد من بعيد كما لو كانت تياراً جارفاً شريراً من الصعب وقفه والتصدي له.

قل لي من أين، ومن أي بشر سمعت انهم يقابلون الشتيمة بالمدح والاكرام، والمسبة بالحلم والترجي والترضي مقتنعين في أنفسهم أنه الكلام القبيح لا يضر دون الحقيقة، وعندما يُضطهَدون يصلون من أجل مضطهديهم ولاعنيهم، وملخص القول أن يغلبوا بصلاحهم كل شر، وأن يحولوا الظالمين الجائرين الى حالة أفضل؟

ضد يوليانس – الخطاب الثاني

هوذا قد أتممتُ، بعون الله، مقالي الأول وختمته. فقد أبنت، بما فيه الكفاية، سوء خُلق هذا الانسان، بكل ما فعل وتصرّف به ضدنا، وبكل ما كان ينوي فعله في المستقبل مخترعاً ومبتكراً على الدوام أموراً جديدة.

اما الآن فاني استهدف بمقالي هذا شيئاً آخر، لعله لم يخطر لأحد: هذا بحث، عند الله أجل وأبره وعندنا أرضى وأسرّ، وللأجيال المقبلة أجدى وأنفع. أجل سأضيف الى ما ذكرت من سابق خطابي بحث تدابير الله وتقاديره العادلة، التي فيها تتأرجح المساواة والضر صعوداً وهبوطاً، تقع على البعض مباشرة في هذا العالم، وتمهل الآخرين شيئاً قليلاً. ذلك تقدير الكلمة الصانع الحكيم، وذلك هو تصرفه في عنايته بنا، وهو خازن أمورنا وشؤوننا في مخازن حكمته وتدبيره. أجل هو الذي يعرف أن يوقف المصيبة بالعطف والشفقة، وأن يلجم القباحة والوقاحة بالزجر والعقاب، أعني بقواسات التربية والتأديب التي يعرفها جيداً.

فمن ذا يستطيع أن يفسر تفسيراً صريحاً ضَرْبَ الكفرة المعادل بالأمراض، وبالأوصاب الظاهرة والمتنوعة، وأنواع المصائب والعاهات التي كانت نسبة ما اجترموا وأحلوا بها الحرام. ومن ذا يفسر وقائع المجاعات الغريبة، والجهر بالاعتراف والندامة الغير النافعة، أثناء حلول المصائب والأهوال بأصحابها، في شدائد الليل والنهار؟!

ماذا حلّ بمن تعدوا على بيوت الله، وبمن جدفوا وأهانوا الموائد المقدسة، وثاروا وهاجوا ضد الأسرار المقدسة الرهيبة، ولم يعرفوا معنى الشفقة في تعذيب المؤمنين والتنكيل بهم. لقد نزل بهم الويل أعظم البلاء من غضب الله ونقمته!

فلنصرف النظر عن هذه الأمور والوقائع باختيارنا. لا، لأننا، لا نؤمن بما نرى وبما نسمع، ولا لأننا نرد كل ما يحدث الى صدفة وحركة طبيعية، كما يخدعها البعض بغير حساب، ولكن لكي لا يظهر في أنني أهدر الوقت في أمور غير هامة، جانحاً الى ما هو

أعظم منها وأهم. سآتي إذن على ذكر الأمر العَجَب الذي حدث شهيراً للملأ والذي لا يشك به حتى غير المؤمنين من شهوده!

كان الملك (جوليان) يثور ضدنا، بجنون متزايد مستديم متصاعد، طارحاً إيانا في أمواج بحر بعضها فوق بعض. وهو الذي كان يثور ويجن جنونه ضد نفسه قبل غيره، قدامَى الأقدمين، وجدف على روح النعمة مشبهاً بأربعام، في عرض الصورة الموافقة، أو مثل آخاب ملك اسرائيل، الملكين اللذين تجاوزا الشريعة تجاوزاً كلياً، أو قبل مثل فرعون المصري أو نبوخذ نصّر ملك أشور، لأنه جمع في نفسه وسيرته شر كل هؤلاء الملوك الأردياء. فقد جمع في ذاته جحود يربعام، ودماء آخاب، وقسوة فرعون، ومحرّمات نبوخذ نصر، هكذا جمع كفرهم جميعاً.

وبعدما استنفذ كل ما في نفسه من أنواع التنكيل بنا، راح يفكر شيئاً جديداً. وأخيراً أطلق ضدنا جنس اليهود مستغلاً جهلهم وسخافتهم، واستهاج فيهم عنصر حقدهم القديم علينا من أفاعيل شره وخبثه، وأوحى اليهم، على أساس كتبهم ومخفيّاتهم أن الوقت قد حان ليعودوا الى بلدهم، ويعيدوا بناء الهيكل، ويؤسسوا دولة آبائهم، مخفياً مخططه الماكر تحت شكل حسن الفكر والنية.

ولما ابتكر هذا المكر وأقنع اليهود، افتكر الكثيرون أن يعيدوا بناء الهيكل، وتضافرت أيادٍ كثيرة، باستعداد وعمل ناصب حتى تطوعت النساء منهم ليس فقط بتقديم الحلي والذهب بل بنقل التراب بمآزرهن الى خارج، غير مشفقات على الملابس الفاخرة والأجسام الناعمة. لأنهن كن يعتقدن أنهن يُطهرن بهذه الطريقة حسب التقوى، وان كل شيء هو دون قمة العملية وفي خدمتها. ولكنهم، فجأة، اندفعوا الى الخفايا متوارين متوسلين، كأنما صدمتهم عاصفة عنيفة، أو اهتزاز أرضي، والكثيرون أمسكوا بأيدي بعضهم البعض وولوا هاربين. وقال البعض منهم ان الأبواب المنفتحة كانت تنسدُّ في وجوههم بقوة مجهولة غير منظورة كعلامة اندهاش للكافرين وعلامة إيناس للمؤمنين. ولكن الخبر الذي يقوله الجميع ويؤمنون به هو أنهم كانوا يتزاحمون ويتنازعون الدخول، حين خرجت نارٌ من الهيكل فأحرقت البعض منهم وأبادتهم (كالذي حدث بهلاك الصادوميين، وبعجيبة ناداب وأبيود) والبعض الآخرون شوهتهم النار وتركتهم عموداً حياً تذكارياً لتهديد الله وغضبه على الخاطئين.

هذا اذن ما حدث، ولا يشكُّ فيه أحد. كما لا يُشك في كل أعمال القدرة الالهية الأخرى. على ان الأمر الأعجب من هذا كله، والأشهر من هذا كله، هو أنه ظهر نور

في السماء بعلامة الصليب، كان باهراً بحيث أن من كانوا يسبونه قبلاً من الملحدين صاروا يجلونه ويكرمونه وصار الصليب علامة الظفر الأقي ضد الكفار وفوق كل ظفر وانتصار.

بماذا تُرى يضادُّنا حكماء وفلاسفةُ هذا العالم؟! الفلاسفة الذين يطلقون لحىً طويلة، ويَظهرون متباهين بجلابيبهم الفلسفية الأنيقة؟! هيّا كلّمني بما عندك أنت يا من تدبج المقالات الطوال وتنشىء التواريخ والأخبار المكذوبة، وتتشدق مترفعاً الى أعلى تقرأ السماويات وتستنتج من حركة النجوم الولادات والمستقبلات! قل لي كم آلهت من كائنات وكم آلهة والاهات صيّرت من الموجودات وكم صنعت من أصنام وأزلام وعبدتها؟ من أين لك معرفة النجم العجيب الذي جاء من المشرق الى بيت لحم يقود ويهدي مجوساً الى الإله المولود؟ أنا أقول لك شيئاً من السماويات: ان ذلك النجم أظهر حضور المسيح مسخراً من القوة العلويّة، هذا هو آية ظهور المسيح.

هذا ما هو من أمر السماويات من فوق ومن أمر الطبيعة التي تئن وتتمخض معنا بموجب التناسق العظيم واتفاق الكل. أما ما هو أسفل فيأتيني به صاحب المزامير اذ دمرت مدناً بأسرها (كما هي حال تلك المدن القديمة التي هلكت بكفرها ومآتمها)، والأمم التي هلكت بما فعلت ضد الصالحين، منها ما غرق في اليم، وأخرى خسفت بالزلازل، حتى نستطيع أن نكمل تلاوة المزمور: «هلك ذكرهم مع الدوي» فقد هلكوا أشأم هلاك. وكان سقوطهم (هلاكهم) من الهول والشدة بحيث ان جيرانهم فرحوا وشمتوا بهلاكهم وكفرهم، ويُحتاج الى زمن طويل من أجل اصلاح تلك المدائن وعودتها الى حالها. اذا وجد من يجرأ ويدعي ذلك، أعني مغامرة إعادة بنائها.

هكذا تصرفت الأرض والسماء لاظهار العبرة بعجائب إلهنا في قصة الهيكل واليهود! أما الملك فكان يسجل تلك الأحداث ولم يعتبر بها، ورغب عن التقدس بعلامات الآلام والصليب! واذا شئتم فاستدعوا، حتى هذه الساعة، شهود تلك العجيبة يدلّوكم على علامات الصليب التي انطبعت على ملابسهم. وحسبما يذكر المؤمنون والوثنيون، فكل من سمع الخبر، يقول انه رأى نوراً حدوث عجيبة عنده أو عند جاره، أعني أن الثياب امتلأت وترصعت بالنجوم، أو انه رأى ملابس ثريبة صارت ملونة بألوان غريبة فوق العادة بحيث لا يشابهها طراز أو تصوير. وماذا حدث إثر ذلك؟ كان القوم من الدهشة والعجب، مما رأوه، بحيث أجمعوا جميعاً، على أن يدعوا إله المسيحيين، ويستغيثوا به، ويتضرعوا اليه بكثير من التوسل والتعظيم. وكثيرون منهم أسرعوا فوراً، وبدون تأجيل،

الى الكهنة ورجوعهم الى يقبلوهم أعضاء في الكنيسة، وأن يشاركوهم في أسرارها بعد أن يتقدسوا بمعموديتها.

وبينما كانت الأمور هكذا واذا بالملك، يجنح به جنون العظمة، يهب كالثور المسعور في تصوراته وأحلامه، فيصل به الأمر الى أقصى كوارثه. تصور أنه قابض على أمور المسيحيين جميعاً، وانخدع بنصر واحد أحرزه في بلاد الغرب، فحلم باكتساح مملكة الفرس والعالم بأسره. اتخذ نوعين من الجيش: جيشاً مسلحاً وجيشاً من الشياطين كان يثق به أكثر من جيش القوة والتسليح، وكانت له بجيش الشياطين ثقة أكبر. وهكذا حرّك حملة على الفرس مستنداً على أرضية سطحية وهشّة من التهور والفجاجة، دون أرضية المناعة والاعتماد عليها. وهكذا دق طبول الحرب متشبهاً بالامبراطوريين تراجان وادريان الشجاعين فعلاً والحكيمين. ولم يذكر كاروس وفاليريانوس اللذين نالا جزاء تهورهما، ولقيا مأساتهما عند حدود جبال فارس اذ قد اندحرا وتحطما في أوج عزهما.

جمع كل قواته، واستجمع كل عزه وجبروته، وقدم الضحية للأصنام، وهب الى الحرب ليدمر كل قوته. المجد لك ايها المسيح الكلمة يا سرّ العالم بأسره! لقد كان العالم المسيحي بأسره معرضاً لتسلم الشيطان لو أصبح هذا الملك سيد الموقف يوم ذاك!

أما المراحل الأولى من مشروعه فقد كانت خطوات جريئة طبّل لها وأذاعها كثيرون من أقرانه ومشيريه. لأنه بعدما اجتاز بلد أشور عند مجرى الفرات حيث يمتزج بالدجلة اكتسح المجسم والتطميات، واحتل بعض الحصون من غير مانع ومقاومة وذلك بفضل سرعة الحملة والمهاجمة، وراح الجيش يتقدم الى الأمام الهوينا، في حين كانت المراكب تنقل الأغذية والمتاع بواسطة النهر. وبعد زمن ليس بالقليل، انقضّ على طيسفون التي كان يعتبرها غاية شوقه ونصره.

ولكن من هنا بدأ يتراجع القهقرى كمن تزل الرمال تحت قدميه، أو كالمركب الذي صدمته عاصفة ونكصته الى الوراء. ذلك أن طيسفون كانت حصناً منيعاً صعب المنال مصوّنةً بسور من مشويّ الآجر وبخندق عميق، ومستنقعات من ضفى النهر. ويزيد طيسفون منعةً حصنٌ آخر يسمى كوخي مشيد وحصين بالمناعة الطبيعية والفنيّة، ويتصل اتصالاً وثيقاً بطيسفون حتى ليظهر الحصنان كأنهما مدينة واحدة يقسمها النهر شطرين. وهكذا فلم يكن بالإمكان لا أخذها بهجوم عام، ولا إجبارها على المفاوضة بالحصار، حتى ولا اجتياحها بالفن (لأن المهاجم عرضة للضرب، من علٍ ومن الجهتين). وبعد

وتلك جعل هذا الحصن الأخير في حوزته بهذه الطريقة. احتجز جزءاً كبيراً من الفرات الذي هو اكبر الأنهار، ومرّر السفن الصالحة للإبحار من قناةٍ مرعية فيه (ولا تزال آثارها القديمة الى الآن) ونقلها بواسطة القناة الى نهر دجلة سالمة آمنة. وبهذه الطريقة اجتنب الخطر الآتي من الحصنين. ولكن، فيما هو يتقدم ظهرت قوة فارسية عقبتها قوات متتالية انضافت اليها، فلم يجد من الصواب أن يجابهها بهجوم عام، وان يتعرّض للخطر بدون ضرورة قصوى، وان يكن من الممكن لتلك القوات ان تتماسك بجفوفها. ولكن الفرس كانوا يرمون السهام والمقاليع من التلال والمضايق حيث كانت السفن تسعى لتمر، واحتلوا، منذ أول وهلة، المعابر الرئيسية واوقفوا بسهولة تقدم الملك الى الأمام. عندئذٍ وُجد في أعظم الضيق وعُدِمَ الحيلة والوسيلة، ولم يجد مهرباً. وهوذا داهية جديدة تداهمه وتغير الموقف:

رجلٌ معروف بين الفرس مثّل دَوْرَ زوبيرس لدى كورش في حصار بابل[1] بحجة أنه على خلاف مع ملك الفرس، وادعى أن بينهما أشياء وأشياء عظيمة وهامة. وقد اكتسب بهذا الخداع ثقة الرومانيين، جاء يوماً الى الملك الفهيم وخاطبه قائلاً: لماذا كل هذه الأشياء أيها الملك؟ ثم ألا تفكر بسطحيةٍ وبشاشةٍ في امر عظيم كهذا؟ ما هذا القمح المحمول في المراكب، ما هذا المحمول الزائد؟ كل هذه تعلم العسكر الجبن وعدم الشجاعة! لأنه ما من شيء صعب محاربته وأدعى الى النزاع والخلاف مثل شهوة البطن. واذن فاذا وثقت بي فدع هذا الأسطول ودع سبب انحلال عسكرك الشجاع. اما أنت فسأكون أنا دليلك الى طريق سهل وأمين (وانا الخبير بل الأخبر من كل الناس في أرض الفرس). ومن هناك ستنقض على منطقة العدو، وستعود ظافراً حسب رأيك وهواك. واما نحن فستكافئنا بعد بيان نصيحتنا.

ولما قال له هذا أقنعه بكلامه، لأن الخفة والغفلة سهلة الاقتناع، بل قل ان العمل الالهي وراء هذا. وهكذا جاءته النوائب جميعاً. اما المراكب فقد حرقتها النيران، ونفد القمح ولم يوجد. وذهبت الآمال الباطلة، وذهب القائد بموعوداته، والأعداء يحيطون به من كل جهة، ولم يعد يسيراً التقدم الى الأمام، وقد قلّت الأغذية. اما الجيش فقد تملكه

---

(١) هو رجل فارسي ظريف، تفاهم مع داريوس الأول الملك الذي كان على حصار بابل عشرين شهراً من غير نتيجة. هذا قطع اذنيه وجدع أنفه وجرح جسمه، وتقدم من البابليين بهذه الصورة الشقية ليظن به الضرر من قبل الملك. ولما نجح في كسب ثقة الملك نبوخذنصر الثالث عينه حارساً أبواب المدينة فتحها يوماً وسمح بدخول المحاصرين.

الضيق والسأم والنقمة على الملك. لم يعد هنالك رجاء خيرٌ أبداً. والرجاء الوحيد الذي بقي، والأفضل من كل رجاء، في تلك الحالة، هو التخلص من الملكية الشريرة والقيادة الشريرة، أي من الملك الشرير.

هكذا كانت الأمور الى هذا الحد. ولكنْ ما حدث بعد ذلك فقد اختلفت فيه الاقوال: البعض، متفقون في قولهم ممن شهدوا المعركة، وممن كانوا غائبين عنها. والبعض يخالفونهم. فقد قالوا ان الملك قتل بيد رامٍ فارسي فيما كان يهجم على الأعداء بغير انتظام وتعقل يدور هنا وهناك بصورة هوجاء رعناء فأصابته طعنة رمحٍ قاتلة.

ويروي البعض الآخرون أن الملك ارتقى الى تل عالٍ ليرى الجيش من علٍ وليتحقق من أهمية الحرب التي يضطلع بها. ولما تبيّن وفرة عدد الجحافل وأنها كانت أكثر مما توقع، قال، ويا طول ما جاءه أن يقول: كيف نعود بكل هذه الأعداد الى أرض الرومان؟ وبعد هذا تحرّش واحد من العسكر، وما استطاع أن يكظم غيظه، فرشقه بحربة في صدره غير مهتم لنجاته منه. وجاء في رواية البعض أن الذي رشقه بالحربة هو أحد المهرّجين الذين كان الملك يرافقهم ويصطحبهم في رحلاته ومغامراته وولائمه. وجاء في أثبت الروايات ان الذي قتله هو عربي عسكري مسيحي من بني طي. ومهما يكن من أمر فقد جُرح الملك جرحاً رغيباً قاتلاً خلاصياً (لأنه فيه كان الخلاص والراحة للعالم كله). وهذا الأمر الخيّر بينما كان ذلك الغبي يدعي أنه يعرف كل شيء يجري هناك فاته علم الضربة القاتلة في صدره.

كان منطرحاً على جانب النهر متروكاً معذباً من الجرح. ولم تفته الخيانة والتفكير الشرير، في آخر اللحظات بأن يؤله ذاته، كما تأله آخرون قبله، وخلّدوا في التاريخ خلوداً كاذباً. فافتكر بأن يوعز بطرحه في النهر ليُقال انه اختفى وغاب ولم يمت موتاً. ولولا أن أحد خصيانه الذي كان يضمر له الحقد، وأدرك حسابه من هذا الايعاز، امتنع عن الفعلة والجريمة لكان، ومن يدري، الى الآن يُعبد كإله مثلاً وفاتناً البسطاء والموهومين بألوهيته دون الاله الحقيقي. ولكنه، في آخر لحظة ونسمة، تغرّقت من دمه وملأ حفنته ورش الدم في الفضاء قائلاً قولته الشهيرة: «أيها الناصري لقد غلبتني» وهلك الى الأبد.

وتولّى المُلك بعده فوراً ايوفيانوس الذي رُفع ونُصّب ملكاً في المعسكر ذاته، لأن خطر الواقع والوقائع كان يفرض تعيين قائد وزعيم يدير الأمور. وهو رجل شهير معروف بالمؤهلات كما أنه معروف بالإيمان الصحيح والتقوى، كان فعلاً جديراً بالملكية.

طلب من الجيش العودة الى الوطن وجعل ينظر كيف سينجح بأمان وتأكيد، كما لو لم يكن وريث مملكة، بل وريث انكسار.

ولو لم يكن الفرس معتدلين في حالة النصر (ومن طباع الفرس الاعتدال في حال نجاحهم لو لعلهم خافوا وحسبوا الأمور حساباً آخر) وأقدموا على ما هو فوق المتوقع من عقد معاهدة جاءت في صالح الروم كثيراً لما أبقوا على حامل مشعل في ساحة القتال. أخذوا قسماً كبيراً أسرى وهؤلاء أثبتوا جدارتهم وشهامتهم حتى في البلاد الغريبة.

وكان هم ايوبيانوس أن يخلص الجيش الذي هو عصب الرومان. وفعلاً فقد كانوا عصباً وقوة للدولة ولو أنهم اخفقوا، ومَرَدُّ إخفاقهم إلى سوء قيادتهم لا لجبنهم وعدم مقدرتهم. فقد رضوا بالاتفاقات المهينة والغير اللائقة بعزة الرومان وشرفهم. ولو أراد أحد أن يعفي يوليانوس من تهمة هذه الاتفاقات المخزية ويحملها لإيوبيانوس لكان فاقد الرأي والعقل وغير حاسب حساباً صحيحاً لما حدث. فالقمح لا يحسب حساب حصاده بل حساب من زرعه، وكذلك الحريق اذا اشتعل لا يُحسب حساب من أطفأه بل من أشعله. وهكذا فقد لاق ان نستشهد بما قاله هيرودث في طعنة سابقة ان الخذاء سكّفه ايستيليوس واتنعله أريستغورس الذي خلف السلَف.

والآن ماذا بقي إلا أن يعاد الجثمان الى الرومان وان يكن صاحبه قد سبب كل هذه النكبة. وعلى كل حال بما أن لنا ملكاً مات قبله وهو عمه قسطنديوس، وقد مات في طريقه الى محاربة هذا الشقي العاصي يوعيليا فلننظر أيضاً هنا الفرق بين ميتة الملكين، اذا كانت ميتة يوليانوس تؤدي به الى الخبطة أو الى جهنم الشياطين.

أما الدفين الأول فقد سبقته جمعة وهتافات ومواكب وزياحات ترتيل طول الليل ومشاعل ومصابيح كما نعتقد نحن المسيحيين فيما ينبغي أن يكون في تكريم المؤمن المنتقل. ويُحمل النعش في احتفال حماسي مهيب. وجاءت المسموعات الداوية في آذان كثيرين تقول انه عندما كان الجثمان يجتاز جبال طورس محمولاً الى المدينة العاصمة القسطنطينية والشهيرة بالملوك السابقين، كانت تسمع من قمم الجبال أصوات كأنها أصوات ترتيل ملائكي؛ ذلك جزاء عدلٌ لحسن العبادة والتقوى وتكريمٌ جنائزيٌ صالح للملك الراقد!

أما نحن فنذكره من قريب، والده[١] الذي وضع، رحمه الله، قاعدة الأسرة المسيحية

---

(١) يعني عمه قسطنديس (المعرب).

الملوكية، كما ثبت أساس الإيمان وميراث العقيدة الذي وصل اليه، فقد كرمنا جثمانه بعد أن ملك بالعدل وأنهى حياة برارة وصلاح، وسلم الينا الدولة. لما اقترب الجثمان من المدينة العظمى المالكة، كيف لي أن أصف تكريمه بمرافقة الجيش كله والقوات المسلحة، وكأنه حي، وتعبير المدينة بتكريمه وتقديره، المدينة الأوسع شهرةً فيما وجد من المدن وما سيوجد.

أمّا يوليانوس الوقح والبعيد عن اللياقة فكان، في موكب دفن الملك، متزيناً بالأرجوان الملوكي الجديد، متعظماً ومتفخاً، كان لا بد أن يشكل بوجوده جزءاً من هذا الموكب التكريمي، مجبراً أو غيرَ مجبَر. لأن الجيش، مع انه كان مظلوماً بهذا النظام الجديد، إلا أنه كان يحتفظ للملك المائت باحترام أوفر (ونحن من طبعنا التأسي للمصائب القريبة) كان متألماً ورائياً للملك المحبوب، وغير مطيق عدم تكريم الملك الفقيد كملك، (وكانا جيشين وملكين متحاربين) فقد أقنع الجيش يوليانوس الجاحد أن يستقبله، وأجبره ان يتقدم الجثمان بحسب العادات الملوكية اللائقة والمعمول بها. وهكذا كان، بعدما خلع شارة الملك عن رأسه وانحنى للملك كما يُفترض رافقه مع كل ضباطه الى القبر في كنيسة الرسل القديسين الذين استقبلوه والذين يشفعون بالملوك الصالحين الذين لهم كرامة من كرامة الرسل عند الله. أجل على هذا الوجه كان دفن ملكنا.

أما يوليانوس، وماذا يقال في يوليانوس؟ أولاً ان حملته العسكرية ضد الفرس كانت بمظهر مُخزٍ. نهض يجتاز، وهو راكب، جموعاً وأحياء وهتافات وأصوات غوغاء مما يذكره الكثيرون الى الآن. وأما عودته فكانت أيضاً أخزى. وفيمَ الخزي؟ كان يرافقه مهرجون مخلون وكان موكبه يسير في مصايب التمثيل والتهريج ترافقه أغاني الشبّابات والنايات متضحوكاً عليه من انكاره الايمان، ومن انكساره ومن موته. وأية مصايب وأية مصائب لم تكن موجودة ماثلة للذاكرة والعيان؟ وماذا بقي مما لم يسمع ومما كان يُشمت به ويعير من أخصائه من فنون المسبات حتى وصل الى مدينة الطرسوسيين. ولست أدري وبأي قول أعبر كيف احتملت تلك المدينة ذلك الحكم والمصير الإهاني بدفن ذلك الشقي فيها؟ هناك أقيم له ضريح حقير وقبر دنس وهيكل وثني أدنس، وغير جدير أن تنظره عيون المؤمنين.

هذه القضايا أرّختها كأكبر وأهم مطاعن ونقائص هذا الانسان الملك من غير أن يفوتني أن أذكر أنه قدم مكافأة وأجراً لاثنين أو ثلاثة من مماثيه في الفكر وحوله، من أصحابه في الكفر والدنيّة. واعتمد عليهم في المعاونة والإدارة، إلا انهم، وفي مدة قصيرة،

لم يوفروا شيئاً من النهب والسرقة في برّ الرومان وبحرهم. وقد بالغوا في النهب والسرقة والجشع حتى زادوا على ذوي المئة يد[1]. أما مراتب إدارة قطاعات الدولة الكبرى فلم تكن تعطى للصالحين بل للقساة المتوحشين. وميزان توزيع المراتب هو التجاوزات والمخالفات وارتكاب المعاصي والسيئات.

وما القول في المحاكم والأحكام التي كان يترأسها ويُصدرها. كانت محاكمه تُنقل وتتغير في الليلة الواحدة كتبدُّل الرمل أو كتموّج الماء. كان يكيل الظلم لمن يشاء ويبعث من يشاء الى مهول ايليسيّ[2] والى مجد رادامانثس[3].

وكيف لا نمتدحه بالقدرة والسمو عن الشهوات، كما يمتدحه بعض أصحابه والمنتفعين منه؟ وهو الذي كان يملأ القصر بالصياح والصراخ والإرعاد كأنه هو الذي كان يعذّب بدل المعذّبين. ومن يجهل وفود أبناء الريف والفلاحين حين كانوا يأتونه ملتمسين معونةً وقضاء حاجة، ويرجونه رجاء الملوك، كيف كان يلكمهم لكماً ويرفسهم رفساً برجليه حتى كانوا يخرجون من عنده شاكرين إذ لم يصبهم أشد مما حل بهم من سوء استقباله ومعاملته لأولئك المساكين.

وماذا نقول أيضاً في كبرياء وتعظم هذا الانسان الباهر الهازئ، بمقالدنا، كيف كان يظهر مسابقاً العجائز وهو يوقد نار المذبح؟ أو لعل أجمل من ذلك أن نرى انفتاح فكي ملك الرومانيين يظهر بهما منظراً بشعاً مثيراً ضحكاً كبيراً ليس فقط لدى البعيدين عنه بل أيضاً الذين كان يظنهم قريبين منه معجبين به وبعمله؟ ثم يسمح الجثة الينا انها لعنت المسرح الذي كان يعلم مناظر الشذوذ والقباحة وهم يستعملون الماء بدل المرآة![4] وكيف هنا لا نعجب بالأقنعة وحركات المقل التي كان يقوم بها علناً نحو الزانيات اللواتي كن يُجبنه بمثلها مغضياً الفسق والفجور تحت شكل السر؟

وهذه الأمور كشفتها الخبرة وسيادة الدولة والسلطة. وأما أنا شخصياً فقد كنت أراها فيه من بعيد ومنذ زمن بعيد أي منذ كنا معاً في أثينا. لأنه جاء الى هنالك بعد الذي حدث لأخيه (غالس حكم عليه بالاعدام) طلب المجيء الى أثينا واخذ إذناً من الملك. أما

---

(١) ثلاثة جبابرة من الميثولوجيا القديمة: بياريس وكوتس وغيس.

(٢) هو مكان جهنمي خيالي يقع في اقاصي غرب الأرض بعد الأوقيانوس، وهو مرقد القدماء.

(٣) هو ابن زفس وامه اوروبا شقيق مينس وقاضي الأموات في الجحيم.

(٤) فرجيل الاسوعيات ٦.

دافع مجيئه الى اثينا فكان مضاعفاً: الدافع الأول شهرة اليونان ومعاهدها التعليمية. أما الدافع الثاني فهو سري في نفسه ومعروف لدى القليلين هو أن يعاشر مقدمي الضحايا الوثنية والخداعين من ذوي أفكاره ومفاهيمه بقدر ما كان للوثنية من حرية.

ولم أكن أعرف يومئذ أن أكون ساحراً ونبياً لأعرف هذا الرجل على حقيقته، وان يكن منذئذ من ذوي الطبيعة السيئة المكشوفة في دائرة هذه الأفكار والمبادىء. ولكن الذي حملني على أن أتنبأ عنه شذوذ طبعه واختلاله الزائد. لم يكن قذاله (قفا الرأس) المرتخي يظهر لي علامة جيدة، وكذلك الكتفان المقوستان المرتفعتان، وعيناه المتحركتان المتفتنتان باستمرار وبشيء من الفضول الجامح والجنون، والقدمان الغير الثابتين والمفرّتان المرطيتان دائماً، والأنف المتصعر بالسباب والاحتقار، وتعبير الوجه بالضحك القائد دائماً الى نفس النتيجة والمعنى، وضحكاته المندفعة وغير المنضبطة، وغمزاته غير ذات القصد، وكلامه الذي كان يتوقف وينقطع بسكتةٍ واحدة، وأسئلته المضطربة والفارغة، وأجوبته الأسوأ منها.

ولكن ما بالي أصف كل شيء على حدة. ان واقعه دل على ذلك مجملاً. ولو حضرني بعض الذين كانوا معنا يومئذ لما وجدوا اي عسر في الشهادة. ولقد قلت لهم يومئذ: «يا له من شر كبير تتعهده دولة الرومان في شخص هذا الانسان!» تنبأت عنه وتمنيت أن تخطىء نبوءتي. واذن لكان ذلك أفضل من أن تمتلىء المسكونة بأمرها بمثل هذه الفظائع والشرور، وان يظهر مثل هذا الانسان الجهنمي الذي لم يظهر مثله من قبل، ولا ظهر مثل شره على الأرض حين ضجت الأرض بأهوال الطوفانات والحرائق والبراكين وافزات الأرضية، ولا ظهر مثله بين الرجال القساة المتوحشين الذين لفظتهم الطبيعة فيما سبق. قد جرّ على ذاته نهايةً مستحقة ولائقة بحياته وعمله. وهنا، وفي هذه الحال من حال هذا الرجل، لم يظهر الرب طول أناته وحلمه، حيث كان كثيراً ما كانت طول الأناة والحلم، لدى خائفي الرب، مدعاة لكثير من الحزن والأسف ولدى الخاطئين مدعاةً للتمادي في احتقار عقاب الله المقسط، كأنه لا حكم ولا وجود لمن يراقب أعمال الناس، بل كان الجميع في حكم القدر، الأمر الذي يولد الذهنية الشريرة التي تغلف الأمور الكبرى بغلاف الخطر.

«من قبل الرب كان ذلك وهو عجيبٌ في أعيننا» وبعزة الفرح نتوجه الى الملك والشامتين بنا من أصحابه قبلاً قائلين: أجل هذه هي تعاليمنا نحن الجليليين. هذه الأساطير والحكايات حسب زعمكم، هي لنا نحن الذين لا قدر ولا كرامة لنا. هذه ما

نؤمن بها نحن الساجدين للمصلِب والمصلوب. هؤلاء هم تلاميذ الصيادين الجهال وغير المثقفين كما يزعم أصحابكم الوثنيون! هؤلاء هم المسيحيون الذين يجالسون العجائز ويرتلون معهم! هؤلاء هم الذين يستنزفون قواهم، وهم نصف أموات، من طول التقشف والأصوام. هوذا نحن المسيحيين الذين نقطع الليالي تسبيحاً وقرآناً قد غلبناكم وتفوقنا عليكم! أين المتعلمون وأين حكماء هذا العالم؟ نعم يلذ لي أن أتخذ هذا القول القَفَري من أحد الجهلاء عندنا، كما تزعمون أنتم. أين ضحاياكم وطقوسكم وأسراركم؟ أين مجازركم الظاهرة والخفية؟ أين هذيان للمستقبل؟ أين بال المجمدة الشهيرة في المسكونة بأسرها التي عمّت العجائب بقليل من الدم المدنس؟ أين مادي وفارس وشرائعهما؟ أين هي الآلهة التي تقدمتكم وشايعتكم وحاربت أمامكم ومعكم في الحروب؟ أين السَخَرة الذين قاموا ضد المسيحيين وهددوا بأن يمحوا الاسم المسيحي في قليل من الزمن؟ تكذّبوا وولّوا جميعاً وعبروا كرجاء الكافرين الملحدين.

لنذكر حزقيا ملك اليهودية حين جاء ضدّه ملكٌ غريب وأحاط معسكرُه الكثيف بأورشليم، وتشدّق بكلام مضّاض، وجدف على الملك وعلى الله ذاته، وقال انه لن يخلص المدينة من يده مخلص. فجاء حزقيا الى الهيكل ومزق ثيابه، وذرف الدموع الغزيرة، ورفع يديه الى السماء واستغاث بالله شاهداً على تجاديف سنحاريب، والتمس من الرب عقاب ذلك الطاغية على ترفعه وتهديداته. «أرأيت يا رب كم هزىء بك هذا الملك الغريب وأنت الإله وحدك ملك اسرائيل، أرأيت هذا فلا تسكت عنه». ولم يخيّب الرب سؤاله، فارتد الملك هو وتهديداته تحت ضغط قوة غريبة وغير منظورة، بعدما خسر قسماً عظيماً من جيشه، واضطر الى الرجوع وحل الحصار عن المدينة، وخاب أمله فيها كلياً.

هذا ما فعله حزقيا، وهو الحافظ بالقوة الكثيرة، وملك أورشليم العظيمة الذي كان بإمكانه أن يصد العدو بقواته الخاصة. أما نحن الذين يعوزنا السور والسلاح وكل وسائل الدفاع كل هذا ترجوه من الله رجائنا وحده، بعدما تعرينا من كل مساعدة بشرية، من لنا مساعداً غير الله يرد عنا بالصلاة، تهديدات المهددين، ووعيد المتوعدين؟ ونحن الميراث العظيم لله، الأمة المقدسة، والكهنوت الملوكي.

أهذه هي مكافأتك للمسيحيين مقابل فضلهم عليك بخلاصك الذي انعكس، على كل حال، عليك وعليهم سوءاً؟ وهذا ما أعطيته مقابلاً للرب الملك؟! لما كان الرب

يضبط غيظه ضدنا قليلاً، ولم تنفد غيرته كلها، كانت يده مرفوعة على أعدائه الكفرة، يوتر قوسه ويهيئها، كان يتوقف ويمسك غضبه عن الانفجار حتى يعلن اولاً كل صبره ومكره بنا، كما هو من حكمه وتمييزه، فإما أن يخلص من يصبر عليه بالتوبة، وإما أن يعاقبه بعدل. واذا طال بنا الوقت، ونحن ننتظر حكمه وعدله، نروح نتذمر ونشتكي، وتطلق الأصوات اليه تعالى، فطوراً نستدعيه كسيد وحاكم، وطوراً آخر كأب صالح نناديه بصوت عظيم، وتارة بالعتاب والاحتجاج والتبرر أمامه كحال المتألمين والمعاتبين. «لماذا طرحتنا يا رب الى النهاية؟» لماذا انفجر غضبك على غنم رعيتك؟» وكذلك: «تذكر جمعك الذي اقتنيته منذ القديم، الذي حفظته بآلام ابنك الوحيد وأهلته للعهد الجديد العظيم، ورفعته الى السموات بالسر الجديد وعربون الروح. وكذلك: «ارفع يديك واحطم تجبر المتجبرين لحقهم، وتذكر كم فعلوا من الأفعال الرديئة ضد قديسيك وافتخروا وافتروا على أعيادك» وأيضاً: الى متى يا رب يرتفع الخطأة، الى متى يفتخرون ويُذلون شعبك، ويجلبون السوء على ميراثك ويقترعون المكر ضد الناموس؟ وأيضاً: «صرنا موضوع افتراء وشتم لجيراننا، وأمثولة عند الوثنيين وهزءاً لجميع البشر». وردّدنا: «الكرمة التي نقلتها من وثنية مصر الحالكة ونمت بحسن وبهاء وعظمة، ثم غدت بلا سياج، وحرمت رقابة الله التي كانت تحرسها منذ امس وما قبل، وتُركت الى رحمة العابرين فرعاها الخنزير البري، وافسدها وحش الغاب».

هذا ما كنت افكر به سابقاً، وكنت اصرخ الى الله. والآن فبماذا أُبدّل تلك الأصوات؟ اني اندب اذن هلاك الكافرين، واغدو محباً للمبغضين واقول: «كيف افقروا وفقدوا فجأة. هلكوا بسبب عصيانهم الناموس. اختفوا كغبار تخفيه العاصفة، وكرماد يذريه الريح، وكندى الصباح، وكسهم مرشوق، وكرعد مباغت وكبرق يلوح فجأة ويختفي.

واذا اقتنعوا بما ترى الآن وتركوا ضلالهم وسكرهم طالبين الحقيقة من جديد. أيكون لهم عبرة ومنفعة من سقوطهم، وإقالة من عثرتهم. لأن العقاب كثيراً ما يجلب الخير والإحسان للذين يتحملونه. ولكن اذا هم بقوا على ضلالهم واتبعوا أصنامهم، فلا تعود بهم الى الرشد ولا أية مصيبة ولا أي تأديب. هذا النبي أرمياء يرثي اورشليم ويكثر من رثائها، حتى ليتقدب الجماد الى رثائها معه، ويستهيج الدموع من الجدران عليها. أما هؤلاء الكافرون الهالكون فأي ندب يليق بهم ومن أين لي الندب والدموع؟ أو مَن ترى يستطيع أن يرثي الحاضرات، تاركاً للعقاب المقبلات بسبب الجهالات التي اظهروها من

ابتعادهم عن الله، وعبادتهم الخليقة دون الخالق، ولم يكتفوا بهذا، بل قاوموا الذين يعبدون الله.

هذا اذن هو ما يؤثره الله: قلب الحرية والقدرة والسجود. ومن يدري إذا كان الله الذي يحل قيود المأسورين، ويصعد من أبواب الموت، وهو الذي لا يريد موت الخاطئ، الى أن يرجع ويحيا، وهو الذي أنارنا نحن الذين كنا في ظلمة الموت وظلاله؟ من يدري اذا كان سيتعهد يوماً ويتدرك برحمته هؤلاء الضالين ويرعاهم بعصا رعايته، جاعلاً اياهم تحت تأديب عصاه الحديدية؟

أما أنا فسأتحول أيضاً الى لازمة تشيد النصر فأقول: «سقط بعل ومُحِقَ داجون، وتحول سارون الى مستنقع، وخزي جبل لبنان. لن يقولوا فيما بعد للطفل أن يتراءى على جميع الأصنام الغير المتحركة ولن يسألوا الهة عقرون، أو اذا كان يوجد شيء مضحك أكثر من هذا.

لن يفتشوا بعد عن الأكمات والأجمات والذرى والمرتفعات الظليلة الحرجة، ولن يضحوا بعد أبناءهم وبناتهم للشياطين الأمر الذي كان الأنبياء قبلاً يقرّعون بني اسرائيل من أجله. ولكن ما لي وهذا؟

سأتناول الأمور الراهنة والخاصة بنا. لن يتطلعوا من بعد، بخبث ومكر، الى هياكلنا المقدسة. ولن يدنسوا من بعد مذابحنا بالدم المدنّس، المذابح التي تقام عليها التقادم السرية المقدسة الغير الدموية. ولن يعيبوا أقداسنا بمذابح الملحدين. لن يقتحموا الحرمات، ولن ينجسوا القرابين خالطين الطمع بكفر الوثنية. ولن يشتموا رؤوس الكهنة البيضاء وحشمة الشمامسة وورع العذارى وعفافهن. ولن يخلطوا دم الخنازير بأحشاء القديسين المقطعة لكي يشبعوا بالطعام والأكباد معاً. ولن يلقوا ناراً في قبور الشهداء لكي يغطوا ويخفوا كراماتهم. ولن يسلموا بقايا القديسين الى النار ولن يذروها في الريح حتى يحرموا الغير من قداستها وكرامتها. لن يسرعوا فيما بعد سبّة الأساقفة والكهنة والأنبياء والرسل أيضاً حتى المسيح نفسه، في مجالسهم القاسمة. لن يقيموا الاحتفالات ضدنا ويمنعونا من التعليم.

اعطني اقوالك الملوكية الـ ـفائية، وافكارك وخواطرك التي لا بد منها. لنرى ماذا يقول الصيادون والريفيون البسطاء؟ بدّل نحن أناشيدك بأناشيد ثبتنا عاموص. فليرتل حراً طليقاً داوود النبي الذي صرع جوليات الجبار بحجارة المقلاع السريعة، والذي غلب

بوداعته الكثيرين، وبتناغمه الروحي شفى شاول من دائه. ليطفيء النور حامل المشعل. ولتسرج العذارى العاقلات الشريفات سرجهن لأجل استقبال العريس، وليتشح المتجمّع بحلة الزنا. والبسوا العدل ايها الكهنة وحُلل المجد والبهاء، واجعلوها لكم بديلاً عن روح الكسل، والبسوا ثوب المسيح العظيم الغير المخيط. إلبسوا حُلتنا الخاصة.

فليصمت واعظك، واعظ المخازي وليصرخ واعظنا بالكلام الملهم. بكل كتبك السحرية النبوية الكاذبة، ولتُفتح الصحف النبوية والرسولية فقط. أُوقف مراسيمك واحتفالاتك الليلية المظلمة والمخزية، وسأقيم انا بدلاً عنها السهرات الروحية الشريفة البهية. سدّ معابرك وطرقك الموصلة الى الجحيم، وأنا سأمدّ لك الطرق المستقيمة الواضحة الملفّة الى السماء. ان الله بكلمته حل الظلام، وبكلمته أبدع النور، وثبت الأرض، وبسط السماء، ووضع النجوم في مواضعها ووزّع الهواء، وحدّد حدود البحر، وكوّن الأنهار، وأعطى الحياة للبهائم، وصنع الانسان على شبهه، وكسا العوالم بكساء الكمال. وبكلمته الآن حل ظلام الليل الطويل الذي أحاق بنا، وأعاد كل شيء الى النور والنظام والانسجام. لن تسود فيما بعد، شياطين الشرهين البطالين. لن تعيد، فيما بعد، الخلائق المسجود لها كآلهة تحت شكل التكريم. انهر البطل تريبتولمس[١] وكيليفس[٢] والتنانين السريعة. اخجل من كتب لاعوتيك العابر اورففس[٣]. تقبل هدية الوقت الحاضر الذي يغطيك بالخجل. واذا كانت هذه أساطير وصنائع خيالك وتصوراتك فسأكشف أسرارك وخفاياك الليلية.

لن تتكلم السنديانة، فيما بعد، ولن تتنبأ بالمستقبلات فيما بعد: الخلة الكبيرة الفضفاضة. لن يأتيّ الوحيُ جيئا فيما بعد، من حيث كان يأتيها من الأساطير والمذيقات. أما كستاليا فستصمت وتخرس، ويوجد ماء، ولكنه لن يتعلق بالمستقبلات، بل يضحك ويستهزئ بالناس. وهل يكون وجود لتمثال ابولون الأخرس؟ وهل لدفني وجود فيما بعد على أنها نبات الغار الذي يُرثى في الأساطير؟ ولن يوجد ذيونيسس (وهو ابن ارميس وأفروذيتي ذكر وانثى معاً) ترافقه جوق من السكارى، وسُترك العظيم في الملك المتأثر جداً يفسق أعباد ديونيسس. وأيضاً تذكر سيميلي[١] تضربها الصاعقة فهلكها.

---

(١) بطل القصة الاسطوري الذي ساعد ديمترا ان تجد برسفوني.

(٢) ملك اليقسيا المضيف ديمترا.

(٣) بطل وشاعر اسطوري، وهو ابن ابولون لعلم الشبابة من ربات الفن وهو مؤسس عبادة الفسق والموبقات عند ديونس.

وأيضاً تذكر إيفستُس الأعرج ولكنه المسرع الى معانقة الزواني، وجهه أسود شديد السواد. وماذا أعدد وأعدد من كثرة الخلق وأساطيرها؟ ولكني سأدع كل هذه الى المسارح والشعراء الذين يكرمون هذه الآلهة. أما أنا فسأنهي مقالتي ببعض النصائح والتوجيهات:

أيها الرجال والنساء، الشباب والشيوخ أيها الموجودون في هذا الهيكل وكل الذين خلصهم الرب قبلاً من عبادة الأوثان، وخلصهم مؤخراً من ثورة الوثنيين ضدنا ومن النوائب الحالة بنا والمرتقب حلولها، اسمعوا مقال انسان ليس متربياً على مثل هذه الأمور وهو خبير بها وعليم بقدر ما يجري كل يوم من الأحداث، وبما عنده من إحاطة بالروايات القديمة والكتب والوقائع الجارية. اسمعوا بالنتيجة ماذا القول: انه أمرٌ معجز ونجاح كبير ألا ينسحق الإنسان تحت وطأة المصائب، وحقٌ هو الكلام القائل: من يحبه الرب يؤدبه، ويؤدب الرب كل ابن يحبه، والذي يهتم به. والله تعالى جعل العصمة من الخطأ فوق الطبيعة البشرية. وأما اذا أخطأنا وعوقبنا حتى شفينا ينبغي علينا أن نستمر في وجدان التربية الإلهية، ومع الله على الخط التربوي، وأن نجتنب عقوبةً ثانية مرتبة على خطيئة ثانية.

ولذلك فلنظهر نحن عملياً اننا أصحاب وجدان متحسس دائماً بالقيادة الالهية. فلنظهر أنفسنا أننا على مستوى ما حققناه وبلغنا اليه. فلندافع عن أنفسنا ولنحتجَّ عن المصيبة التي أتاحتْ علينا، بأننا لم نسلَّم الى ايدي الوثنيين كمجرمين وفاعلي شر، بل اننا تأدبنا بتأديب الرب كأولاد الله. فلا تُنسِيَنَّ العاصفة إبانَ الصحو والهدوء، ولا المرض أثناء الصحة، ولا السبي والأسر غداة عودتنا بالسلامة الى أورشليم، ولا تنسي مصر بعد خروجنا منها. لا نعد الى الخطيئة بعدما تركناها. لا لا أيها الأبناء لا، حسبما يقول النبي ابليا ناصحاً ابنائه الذين أخطأوا الى الله، لكن فلنعلم أنه أسهل علينا أن نستعيد عافيةً فقدناها، من أن نحافظ عليها بعدما استعدناها (لأنه في الحالة الأولى يمكن أن يأتي التعقل بالعافية، وأما في الثانية فان الاهمال والكسل يتلفان العافية). ونعلم أن الأجسام عندما تمرض تشفى بالطب وقاعدة الطعام، ثم تضعف قليلاً قليلاً بالإهمال والشراهة وتعود الى المرض ذاته. فاذا عرفنا هذا الأمر، وعلمه الواحد منا للآخر فلنصغِ ولنصرف الوقت بالانتباه والتعقل.

وقبل كل شيء أيها الإخوة، لنحتفل، من غير أن تأخذنا خفة الفرح جسدياً، لا بفاخر اللباس وأشكاله، ولا باللهو والسكر الذي يثمر، كما تعلمون، المجون والمعايب والشهوات. ولا نحتفل بتزيين الطرق بالزهور، وموائدنا بفائح الروائح والفضائح. ولا أن

تزين مداخل المنازل بالأقواس والزينة، ولا تنور المنازل بالأنوار الباهرة، ولا نملأها بأصوات المطبلين والمصفقين، لأن هذه هي احتفالات الوثنيين في رؤوس الشهور. أما نحن فلا نكرم الرب بمثل هذا، ولا نعظم من شأن الأيام الحاضرة بأمور لا تليق، بل فلنحتفل بطهارة النفس وبهاء الذهن وصفائه، وبسرج تنير كل هيئة الكنيسة أعني بسرج إلهية، بأشواق روحية وأخيلة ومعانٍ رفيعة توضع بمواضع البرهان على المسرجة الشريفة العالية وتضيء المسكونة بأسرها. أما أنا فيصغر عندي، من أجل هذا الاحتفال، كل هذا النور وسائر الأنوار التي يضيئها الناس جميعاً. وعندي أيضاً طيبٌ أثمن منه أطياب كل العالم، هو الطيب الذي يمسح به الكهنة والملوك لأنه ثمين ومن نوع آخر ومن صنع صانع فاقد المثال. ولكم تمنيت، وأتمنى أن تصل رائحة هذا الطيب الذكي إلى حضرة الله! وعندي مائدة أخرى أعني تلك المائدة الروحية المؤلهة التي هيأها الرب لي ضد الذين يحزنونني، عليها أستريح ومنها أتغذى وأتخذ بها دالةً عند مقدميها، تطرد مني كل الأهواء والشهوات. وعندي أزهار مزهرة أكثر من كل الأزهار الربيعية الدائمة، هي من أزهار حقل الرب المبارك أعني الكهنة ورعاة الكنيسة ومعلميها المعطّر ذكرهم، ومن أفراد الشعب كل من هم أتقياء مختارون. بهؤلاء أريد أن أتوَّج وأسير في موكبهم المقدس بعد أن أكون قد جاهدت الجهاد الحسن، وقطعت الشوط حتى النهاية، وحفظت وديعة الإيمان مثلما قال الرسول بولس. لأتخذ التسابيح بدل الصنوج، والترتيل الجميل بدل الأغاني المعيبة، والأصوات المتكررة هتاف شكر ومسرة بدل الخافقات المسرحية، تعقلاً وجدية بدل الضحك، وبدل السكر كلاماً موزوناً متعقلاً، وبدل الفجور حشمةً ووقاراً. وإذا كان لا بد أن ترقص حباً بالعيد والاحتفال، فأرتقص، لا كرقص هيروديا المخزي المعيب الذي كانت حصيلته دم النبي يوحنا، بل أرقص كرقص داود عند نقل تابوت العهد، الرقص الذي كان رمزياً يوافق خفة حركة المسيرة والكثيرة المنعطفات مما يتفق ومشيئة الله. وهذه هي إذن أولى نصائحي وأعظمهن.

ثانياً أريد أن أقول شيئاً مكرراً وصعب التقبُّل بعض الشيء لدى الكثيرين. فقد يشتفي غليل إنسانٍ يأتي إلى السلطة أن يرد السوء بمثله، وخاصة عندما يكون معذباً عن قيما تحمل من الآخرين، وقليلاً ما يقتنع بكلام يقطع الغضب بالنجام. فأرجو ألا تستعمل الفرصة فرصة طمع بالآخرين، ولا تتمتع بشهوة السلطة تمتعاً، ولا تكنْ قساةً جائرين على الذين ظلمونا، فلا نفعل بهم مثلما فعلوا بنا. ولكن ما دمنا قد فزنا بالتغيُّر، فلنكن من الرغبة في اجتناب المصائب، بحيث نمقت كل ما من شأنه أن يحدث ردّات فعل انتقامية.

وإذن فينبغي الا نراجع الغضب ونخوض فيه، ولكن بما أننا لا نستطيع أن نتقاضاهم كل شيء، فلنسامح في كل شيء، فلنكنْ أعلى وأرفع من أولئك الذين ظلمونا. ليتضح للملأ ماذا يُعلّم الشياطين تلوثيين، وماذا يعلمنا المسيح وكيف يربينا المسيح. اجعل لنغتنم الفرصة للتعليم.

فلْنغلِبْ بالوداعة على الذين تسلطوا وتعسفوا. ولنكن محبة الانسانية هي تلك التي تسمح وتصفح ولْنكنْ فيها قوة الوصية الانجيلية. لأننا نعلم أنه وبالكيل الذي نكيل به يُكال لنا. فاذا حلت قسوة التعذيب بأحد منا فلْنترك اولئك المعذِّبين الى الله والى المحكمة التي هناك. ولا تختفِ بايدينا نحن انفسنا، العقاب الآتي على الذين عذّبونا. ولا نجرهم الى المحاكم، ولا نخرجْهم من أوطانهم. ولا نلتمس جلدهم بالسياط، وبالاجمال لا نقابلهم بشيء من معاملتهم لنا. بل فلنحملهم، بمثال مسلكنا أودع منا وأفضل.

اذا عذب لنا ابنٌ أو أب، أو امرأة، أو اي قريب من أقربائنا، صديق أو أي عزيز من أعزائنا، فلْنظهر للكل أن لهم أجراً مأجوراً في كل ما تكبدوه من عذاب، وذلك بأن نقنعهم باحتمال العذاب متجلدين صابرين. بل فلْنهنئهم بهذا كما نهنئهم بأعظم هدية. واذا شئت فنقول شيئاً أعظم من كل ما هو من ايجابيات هذه المواقف. ان مضطهدينا، في هذه المرحلة، يثيرون الضجة والنقمة في الجماهير وسائر الأوساط المدنية، في المسارح، وفي الأسواق، وفي الأندية والمحافل والمجتمعات! الاضطهادات القديمة السابقة كانت تلقى استحساناً وتحبيذاً، أما هذه الاضطهادات الجديدة فتلاقي بالاستهجان والفضيحة حتى عند المشتركين فيها. والأغرب والأعجب من كل هذا أن الآلة نفسها تنقلب وتهوي مع كل ضجة وصرخة ونقمة. لقد طال غشها وخداعها للناس، والآن انكشف الغش والخداع. والذي كان بالأمس ساجداً لها صار اليوم سابا وشاتماً. وماذا لنا ان نطلب اكثر من هذا؟ هذا ما هو الآن من جزاء أولئك الأشقياء ونعته قليل من كثير. ولكن يأتي يوم نرى فيه الشاتمين لي، واستاذهم الاكبر (الملك)، يدينون شرهم وعاقبتهم، عندما يدان ويعاقب كل شر فعوه، وكل خبث وقعوا فيه.

لندع أمر العقاب المعد للخطأة والظالمين، بحسب عقيدتنا وكتبنا المقدسة. ولْنأتِ الى أقوالكم وتهاويلكم أنتم الوثنيون التي تروق لا لخيال الشعراء وحدهم، بل للرجال الفلاسفة من أمر العقاب، في نهر نار الجحيم وبيريفليثن ونهر التنهدات في عذابه الاشرار. هناك يُعذّب تانتلس بعطش لا يرتوي، وتيتيوس بالصقور تنهش كبده باستمرار ولا تنفد الكبد، وإيكسيون الذي حُمل على عجلة ملتهبة لأنه اهان إيرن. ومنكم

يوليانوس، كما أرى، سيعد مع هذه الجماعة، وقبل الكل، سيعاقب بالعطش يحرقه، والماء يبلغ حد لحيته، وسيُشد الى الصخرة معلقاً لتنهش كبده الصقور، العقاب الذي يستوجبه. والذي هو قليل من كثير اذا كان الجزاء والعقاب على قدر الخطايا والآثام.

اليك اذن اهدي هذا الخطاب كمكتوب على عَجَل يا صاحب الجلالة والحكمة وبما تخاطب به. هذا ما أنشأناه وما نقوله لك نحن الذين حرّمتَ علينا العلم والكلام، ونسبتنا الى الجهل والغباوة، وأنت أغبى الأغبياء وأجهل الجاهلين. أرأيت أنه ما كان لنا أن نصمت الى النهاية، ولا نلتزم الصمت والسكوت بموجب أوامرك، بل جهرنا بصوت حر وكشفنا طيشك وخفتك وقلة عقلك؟ واعلم هذا، كما أنه ما من حيلة أو آلة تستطيع أن توقف شلالات النيل الهادرة من الحبشة الى مصر، أو أن تحجب أشعة الشمس، وان اكتنفتها برهةً بعض الغيوم، كذلك لا توجد حيلة ووسيلة تلجم لسان المسيحيين عن نقدك وكشف معايبك. خذ هذا الكلام من باسيليوس وغريغوريوس ضدّيك ومناضليك في مشروعك كما حسبت أنت، وأوحيت الى الآخرين أن يعتقدوا مكرماً ايانا بكل ما هددتنا به، ومعمّماً ايانا في مسالك التقوى وحسن العبادة لوفر فأوفر. وأنت تعرفنا ايضاً من اليونان أننا بارزان ومعروفان بالمسلك واجادة الكلام، وبالاتفاق العميق فيما بيننا. اكرمتنا الاكرام الأخير وأبقيتنا الى آخر الكل. وكأنك تركتنا كهدية انتصار للشياطين، هدية عظيمة وجليلة، اذا نحن استقبلناك بعد رجعتك من بلاد الفرس، أو لعلك تأمّلت ان تجرنا الى هاويتك خاب قألك.

لن تجدنا أقل نبلاً وشهامةً من فتيان الأتون الذين كانت النار عليهم بَرْداً وسلاماً، وغلبوا الوحوش بالإيمان واستشهدوا بشهامة وطيبة خاطر، مع أمهم الشجاعة ومع الكاهن الشيخ، الأوفر شجاعة، واظهروا أن حصن الايمان هو أقوى الحصون ومُمتنع على كل اقتحام وهجوم، ولن تلقانا اقل نبلاً وشهامةً من الشابين اللذين اختبرت أنت ايمانهما وثباتهما على صخرة العقيدة: الواحد منهما شتم آلهتك وقلب المذبح، فاقتيد منهماً ودخل المحكمة كغالب منتصر، وبعدما هزأ كثيراً بزيك وأقوالك خرج بتيه عزة كأنه عائد من وليمة فاخرة. وأما الآخر فبعد أن جرّحوا كل جسمه بعظم فرس، حتى لم يعد فيه تقّس من الجراح، كان من الاخلاص مع نفسه لموقف العز والشهادة وعدم الاستسلام أمام معذبيه بحيث أنه حين رأى موضعاً من جسده ليس فيه جراح تحدّى المعذّبين بقلة الأمانة لواجبهم لأنهم أبقوا من جسده مكاناً غير مجرح، وبالتالي غير شريف وناشدهم الاّ يوفروا حتى أظفاره من التجريح.

هذا هو مقالك في أكاذيب وترهات بورفيريوس الذي ألَّف كتبه ضد المسيحية، والتي ابتهجت بها كما لو كانت صوتاً إلهياً. ماذا فعلت إذ اضطهدت المسيحيين ونكبت الأمة وزعزعت دولة الرومان؟ بملكك المشؤوم؟

وأخيراً فهذا الخطاب هو عمود ورمز شؤم ننصبه لك نحن على مفارق الطرق في الزمان الآتي، أعلى وأشهر من عواميد هرقل، لأن أعمدة هرقل إنما نصبت في مكان واحد، ويراها العابرون من أمامها فقط. أما هذا العمود فسيكون معروفاً ومنظوراً من كل جهة لأنه متنقل ومتحرك في كل مكان وزمان ليفضحك أنت وأعمالك، ويعلم كل أحد ألاّ يتجاسر على ثورة مثل ثورتك ضد الله لكي يعرف عاقبة الأشرار ومنقلب الظالمين.

اللاّهوت واللاهوتي

للقديس غريغوريوس اللاّهوتي

لقد تكلمنا سابقاً عن النقاوة المفروضة في اللاّهوتي، ومن أيّ نسيج انساني هو، وفي اي مجال يتفلسف، وكيف ينبغي أن يكون، والى من يتوجه ومتى وكيف؟

وقلنا انه ينبغي ان يكون عفيفاً نقياً مستنيراً ذهنه بالمعرفة. ويجب ان يسود الهدوء داخلنا نحن حتى لا نتأثر بالحركات الخارجية، ولا تضيق أنفاسنا كما تتقطع أنفاس المصابين بضيق الصدر. وان نتفلسف بقدر ما نفهم، وبقدر ما يفهمنا السامعون.

بعد هذا كله، وبعد أن نقلع الأراضي الالهية، يجب ألاّ نلقي البذار بين الأشواك وفوق التربة الصخرية كما يقول الكتاب المقدس. بل هلم لنتكلم بجد عن اللاهوت، ونجعل كلامنا عن الآب والابن والروح القدس بمسرة الآب، واسهام الابن في العمل معنا، والهام الروح القدس الينا: لا بل قل حتى ينيرنا الضياء النابع من الاله الواحد الذي ينقسم وان كان واحداً، ويبقى واحداً، وان انقسم. وهذا هو العجب!

ان الله تعالى يأمرني أن أصعد الى الجبل لأدخل الغمامة ولأقترب منه جل جلاله. وها أنا أصعد بكل رغبة، وبكل انتباه. اجل، اني أصعد برغبة ومعاناة، رغبة في الرجاء، ومعاناة من الضعف. من كان منكم مثل هارون فليتقدمْ وليصعدْ معي، وليقفْ الى جانبي، وليقبلْ ذلك حتى لو بقي خارج الغمامة. واذا كان مثل ناداب وأبيوه أو واحداً من المشيخة فليتابعني وليقف بعيداً حسبما يتهيأ له. أمّا اذا كان واحداً من أولئك الغير المستحقين الغير الأنقياء والغير المؤهلين لحده للرؤية، فخيرٌ له ألاّ يقترب لأن اقترابه خطر عليه. أما اذا كان نقياً مؤقتاً فليبقَ في الأسفل، وليسمع الصوت والبوق أي التعليم الأولي عن الإيمان، ولينظرْ الى الجبل الذي يدخّن ويبرق. وهذا المشهد هو تهديد لأولئك الذين لا يستطيعون أن يصعدوا، كما انه مثار العجب لديهم. وإذا كان بينكم وحش خبيث غير أليف وغير قابل للاّهوت والكلام النظري، فلا يعلنْ بالمجيء بخبث وطبع فاسد، ولا يختبئ في الأدغال، ويتهيأ لأن يقفز فجأة ليخطف كلمة ما، أو رأياً ما،

ويبتلع الكلمات الصحيحة ليمسخها ويحورها بالكذب والتزييف. ليقف مثل هذا بعيداً عن الجبل، وإلا فيرجم ويُسحق وسيفنى كشرير. لان كلام الحق هو حجارة من صوان على رأس المتوحشين. واذا كان فهداً في تقلب اللون فسيموت هو وتقلباته. واذا كان أسداً ثائراً – يزأر ليأكل واحداً منا أو يعطل كلمة من كلماتنا، واذا كان خنزيراً يدوس جواهر الحقيقة الجميلة، أو ذئباً ماكراً وبارعاً في مراوغاته، أو ثعلباً في نفس خبيثة يكيّفها حسب الحاجة والبيئة والظروف، ويتغذى بالجثث الميتة ومن الكروم، أو ضبعاً من الضباع القذرة المفترسة اللحم الآدمي والجيف، فلا يكن فينا واحد من هؤلاء، ولنكتبْ ما تقوله الوصايا المقدسة على ألواح جديدة حتى يكون الناموس بسيطاً يفهمه الذين في أسفل الجبل وليكون سرياً للذين بلغوا الى القمة.

ولكن ماذا دهاني أيها الأحباء ويا مساريَّ في عشق الحقيقة؟ لقد أسرعت لكي أفهم الله، وهكذا صعدت الى الجبل، وشققت الغمامة. لقد انسحبتُ من المادة، ومن كل ما هو مادي، واستجمعت قوى نفسي. وعندما بسطتُ نظري لم أكد أرى قفا الله جل جلاله، مغطىً بالصخرة، بالكلمة الذي تجسد من أجلنا. ولما انحنيت قليلاً رأيت، وماذا رأيت؟ لم أرَ طبيعته الإلهية التي تعرف ذاتها، أعني بكل تأكيد الثالوث الذي هو داخل الحجاب الأول تستره الشيروبيم، بل طبيعته الخارجية التي تصل الينا. اذا ادعيت أن اعرف منه شيئاً حسب فهمي، فاني عرفت عظمته، أو ما يسميه النبي داود، جلاله الذي يتكشف على المخلوقات التي خلقها ويسوسها. اننا نعرف من الله ظاهره، أو بالأحرى علاماته، ونراها كما يرى أصحاب العيون الكليلة ظلال الشمس وصورها فوق سطح الماء، لأن نورها ذاته يخطف أبصارهم ويُزيغها ويعطل الأحداق. أجل هذه حال من ينطق باللاهوت!...

أما بلغ موسى أن يكون إله فرعون؟ وبولس؟ بولس الذي سما الى السماء الثالثة وسمع كلمات سرية، وصل الى حالة ملائكية أو حالة رؤساء الملائكة، وبلغ مرتبة فائقة جداً، وصار أقرب الى الله. ومع ذلك بقي بعيداً جداً عن الله، وبعيداً عن ادراكه الكلي، اكثر مما لا يقاس عن بعده عنا، وسيبقى بعيداً عن الله، وفي مثل بعد الأشياء المركبة المشدودة الى أسفل.

لنتذكر على قول أحد اللاهوتيين اليونانيين الذين تكلموا بالفلسفة الالهية، وهو قول بالغ الأهمية في نظري. يقول هذا اللاهوتي الفيلسوف: يَعْسُرُ علينا أن ندرك الله كما يصعب التعبير عنه. اما أنا فأضيف انه من الصعب جداً أن نعبر عنه، ومن الأصعب أن

ندركه. لأن ما يدركه المرء قد يستطيع أن يعبر عنه بصورة ما، وان كانت غير مفصحة فعلى الأقل يكون فيها بعض الوضوح للسامعين الذين يملكون آذاناً معدّةً للسماع وعقولاً ضعيفة. أجل يبقى من الصعب جداً على من يتكلم من خلال كثافة الجسد ان يستوعب بفكره موضوعاً مثل هذا الموضوع، مهما يكن من الفصاحة والبيان. فإدراك الحقيقة هو أمر صعب جداً لمثل هؤلاء. ولا أدري اذا كان ممكناً للطبائع العليا الروحية، كونها أكثر قربى من الله وهي تستضيء بنوره، قد يجوز أن يدركوه لا كلياً بل بصورة أكثر كمالاً ووضوحاً من الصورة التي لنا نحن. البعض من الملائكة يدركون أكثر والبعض يدركون أقل كل على حسب رتبته.

فليبقَ الموضوع المتعلق بالملائكة في هذه الحدود ولنبحثْ ما يتعلق بنا. ليس ما هو من لاهوت الله فقط يفوق كل عقل وكل إدراك، بل ان الخيرات والمكافآت المعدّة للصالحين، حسب وعد الله، هي من السمو والخفاء بحيث لم تبصرها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطرْ على قلب بشر. بل أيقنْ بهذا أنك لا تدرك من الخليقة الا الظلال عندما تسمع قول المزمور: «اني أرى السموات عمل أصابعك القمر والنجوم التي أنت أسستها». ذلك وفقاً للنظام الثابت الذي يوجهها ويقودها. واذا كنا لا نراها الآن فسنراها وندركها فيما بعد. ولا شك ان الكائن قبل كل هذه العوالم وفوقها، هو غير مدرك وغير محدود لأنها منه أتت. ولو كان وُجد قبله احدٌ، فمَنْ هو ذاك؟. ان كرازتنا ليست فارغة وايماننا ليس باطلاً. ولسنا نعتقد هذا الاعتقاد. وها أنا أوضح الأشياء بتواضع. ولكن حتى لا يُجعلَ التواضع سبيلاً للإلحاد والدس على العقائد، وحتى لا تعالي يا هذا على حسابنا وتقول ان موقفنا موقف جهل بالنسبة الى الله. فالفرق كبير بين الاعتراف بالوجود والاقرار بالتقصير عن معرفته.

ان الجمال والنظام الطبيعي يعلماننا أن الله موجود، وأنه هو الذي خلق الكون وهو الذي يديره. اننا نرى المخلوقات المنظورة المثبتة جيداً تسير وتتحرك وتدور وكأنها لا تسير ولا تتحرك ولا تدور. ان نظام كل هذه الاشياء التي نراها يحمل الخالق الى فكرنا. لأنه كيف يمكن أن يخلق هذا الكون، وأن يتماسك اذا لم يكن الله قد أعطى للكل الأصل والتماسك؟ ان الانسان عندما يرى قيثارة مصنوعة باتقان وفن وتناسق، أو عندما يسمع صوتها فانه لن يفكر إلاّ بمن صنع القيثارة وبمن يعزف عليها، ولن يذهب فكره الاّ الى هذا العازف حتى ولو لم يكن قد رآه، كذلك يذهب فكرنا فوراً الى الخالق الذي يحرك الكون ويثبته. ان فكرنا يتجه اليه مع العلم أنه لا يستطيع أن يستوعبه. وما أجحد

من لا يسلك به فكره هذه الطريق ولا يتبع البراهين الطبيعية! أجل ليس إلهاً ما تخيله خيالنا، وما تشكل في خاطرنا، وما حاكه فكرنا. لو صحّ أن إنساناً وصل الى غاية الحكمة، من أهل أن يملك مثل هذه الموهبة العظيمة؟ من فتح له العقل وأدخل الروح بحيث تمكن من ادراك الله بالروح الذي يبحث ويعرف أعماق الله. هذا لا يحتاج الى اي نمو وتقدم ما دام فيه الصلاح الفائق العلو الذي يسرع اليه الفكر وتسرع اليه الحياة بكمالها.

كيف تتصوّر الالهيات اذا كنت تقبل بكل البراهين العقلية؟ او الى أي حد يرفعك البحث العقلي أيها العظيم في الفلاسفة واللاهوتيين والمفاخر باللامحدود؟ أتعتقد أن الله مادة؟ اذا كان كذلك، فكيف يكون غير محدود، وغير ملموس وغير منظور وغير محصور؟ ألعل هذه الصفات هي صفات مادية؟ يا لفساد هذا الرأي! ليست هذه طبيعة ما هو مادي. ألعل الله مادة بغير هذه الصفات؟ ان هذا القول مردود وثقيل، ويعني ان الألوهة لا تملك شيئاً أكثر مما نملك. ألا يهون عندنا الأمر الإلهي اذا كنا نستطيع أن نصفه؟ كيف لا يجوز الانحلال على المركب من عناصر مادية؟ لأن التركيب يسببه التضاد، والتضاد بسبب التباعد والانحلال، والانحلال هو أمر غريب عن الله كلياً وغريب عن الطبيعة الاولية. لا تباعد في الله ولا انحلال ولا تضاد وبالتالي لا تركيب. لذلك لا جسد لله حتى لا يكون هناك تركيب. وهكذا يصل العقل الى هذه النقطة متدرجاً من الأعلى الى الأدنى.

اذا كان من الممكن ان يدرك الانسان الله، أو كان ادراك الله ممكناً، فكيف تصبح العقيدة بان الله يدخل الى الكل ويملأ الكل وفقاً للآيات الكتابية: «ألم أملأ السماء والارض؟» و«روح الرب ملأ المسكونة» لأنه إما أن يزول الكل ليتحرك الله في الفضاء، في الفراغ وهكذا يهان الرب ما دام يتخذ جسداً، ويفقد كل ما خلق، واما أن يدخل كجسد في الأجساد، الشيء الغير الممكن، واما ان يمازج ويكون بين الاشياء الأخرى كالسوائل التي تتمازج. في مثل هذه الحالة الجسد ذاته يقسِّم وينقسم عن الأشياء الاخرى، الأمر الذي هو اكثر من عجب وصبياني اكثر من نظرية ابيقور عن الذرات. وهكذا فان نظرية الأجساد تسقط كلياً أمامنا اذ لا جسد لها وتفقد وجودها. واذا ادعينا ان الله غير مادي، أو كما اعتقد البعض، عنصر خامس يدور دائرياً، فلن نختلف الآن حول هذا الموضوع حتى لو كان الله شيئاً هيولياً أو جسداً خامساً. أو اذا ارادوا ان يقولوا انه غير جسدي، في نظريتهم عن الفساد الذاتي واعادة الجبلة. فاذا اعطوا له هذه

الصفة فما هي علاقته مع الأشياء التي تتحرك وتدور اذا كان الخالق يتحرك ويدور معها كما تتحرك المخلوقات؟ ولكن نتساءل أيضاً من هو الذي يحركه ومن يحرك الكون، ومن يكون ذاك ومن يحركه؟ وهكذا دواليك بلا نهاية...

كيف يمكن أن يكون خارج المكان كلياً اذا كان يدور؟ فماذا ادعينا أنه شيء آخر مختلف عن العنصر الخامس أو أن له جسداً ملائكياً فمن أين نعرف ان الملائكة لها أجساد وما هي نوعية هذه الأجساد؟ وكم هو (الله) أسمى من الملائكة؟ أيكون الملاك خادماً لله؟ واذا كان أيضاً شيئاً أعلى، فان أسراباً من الأجساد لا تعد تدخل في هذا النطاق وان سديماً من الترهات لا يتوقف أبداً في أي مكان.

فحسبُ تعليمنا، اذاً، الله لا جسد له. وحتى هذا التعبير «غير جسدي» لا يمكن أن يمثل أو يصور جوهر الله. وكذلك التعابير: غير المولود، لا بدء له، غير متغير، غير بالٍ وكل ما يقال عن الله أو ما يتعلق بالله. في الواقع ما هو الشيء الايجابي لمعرفة الطبيعة الالهية أو أقنوم الله الذي تقدمه لنا هذه الصفات: «لا بدء له غير متغير غير محدود» الخ. حتى ذاك الذي يملك عقلاً الهياً والمتقدم في النظر والبصيرة والراسخ في العلم، حتى ذاك يعجز عن احتواء معرفة ماهية الله مهما يتفلسف ويبحث وينقب. وكما انه عندما نريد أن نعرض كائناً ما، لا يكفي أن نقول ان له جسداً وانه يلد. ونحدد محيطه، بل يجب أن نحصر الكائن ذاته، لأن الانسان والثور والحصان وغيرهما لها أجساد تولد وتفنى. وهكذا من يبحث جانبياً طبيعة الكائن لن يقف عند هذا الحد فقط بايراد ما ليس هو بل ما هو. ومثلُ هذا مَثَلُ من يسأل: كم تساوي خمسة × ٢ مضروبة باثنين فيجيب انها لا تساوي لا ثلاثة ولا اربعة ولا خمسة ولا عشرين ولا ثلاثين ولا أي شيء من هذه الأرقام حتى ولا يقول انها تساوي عشرة ولا يقنع فكر من يسأله ليتعلم. انه لأسهل وأوجز أن تبرهن ما ليس بالشيء، ذاكراً ما هو، من ان تنقض كلّ ما ليس هو لتبرهن ما هو. ان هذا جليٌّ لكل انسان.

ما دام الالهي غير جسدي فلنبحث شيئاً آخر. أيوجد الالهي في مكان ما ام انه غير موجود؟ اذا كان حقيقة غير موجود في مكان ما، فلا بد لفضول الباحثين أن يسأل عن امكانية وجوده لأن الغير الموجود لا يوجد في مكان. واذا كانت هذه الأشياء التي لا توجد في مكان ما غير موجودة، واذا كان موجوداً في مكان ما، فلا بد، ما دام يوجد، انه يوجد إما في الكون وإما فوق الكون. لكن اذا كان موجوداً في الكون فوجوده يكون إما في قسم من الكون، أو في كل الكون. فاذا كان موجوداً في قسم واحد فسيوصف

بصورة مصغرة، أي من خلال هذا القسم. أما اذا كان موجوداً في كل مكان فسيوصف بصورة أكبر لأن الحاوي اكبر من المحتوى. اذا كان الكون ينحصر في الكون فلن يكون هناك اي مكان الا وقد وُصف. هذا اذا كانت الألوهة وسط الكون فأين كان الله قبل أن يخلق الكون؟ هذا السؤال يوقع في حيرة عظيمة. واذا كان موجوداً فوق الكون، ترى الا يوجد شيء يفصله عن الكون؟ واين هو ما هو فوق الكون؟ وكيف يفهم الكون الأعلى والكون الأدنى ما دام لا يوجد حد ليفصلهما ويميز بينهما، أم أنه يجب أن يكون هناك متوسط حاجز ينتهي به الكون وفوق الكون؟ أيمكن ان يكون هذا المكان غير المكان الذي نهرب منه منذ أول حديثنا؟ لا يمكننا قط أن نقول ان الالوهة موصوفة ومفهومة بالفكر لان الإدراك هو نوع من الوصف.

لماذا ذكرت كل ما ذكرت بطريقة غريبة على الكثيرين من المستمعين؟ وما لي أتكلم أنا بالطريقة الكلامية السائدة الآن؟ هذا النوع من الكلام[١] يحط من قيمة الكلام الرصين البسيط، ويدخل بدلاً منه الكلام المعربس المتعرج؟ وكما أن الشجرة تعرف من ثمارها كذلك نعير الظلمة التي تولد مثل هذه الآراء الفاسدة من خلال الكلمات القاتمة. أنا لم أفعل ذلك قطعاً لكي أظهر بأني أقول أشياء عجيبة، ولأظهر اني أملك حكمة فائقة مؤلفاً مشاكل صعبة وحالاً بها رموزاً وتأويل، (هذه العجيبة العظيمة هي خاصة دانيال النبي) بل فلأوضح ما ابتدأت به في كلامي وقلته: ما هو ذلك؟

ان العقل البشري لا يمكن أن يستوعب الالوهة ولا ان يتخيلها بكليتها وهذا ليس من غيرة الله على ذاته ومن أثرته لنفسه. لأن الله ليس فيه أثرةٌ ولا هوى، وهو الصالح وحده والسيد الذي لا غيرة فيه، وخصوصاً وهو فوق كل مخلوقاته: بل ان أهم الكائنات العقلية والروحية أي الملائكة انما خلقت من فيض صلاحه، ولم يخلقها أيضاً بحبه للمجد والتكريم. فلنحترمه ونكرمه لأن الله كائن مكتفٍ بذاته، وانه يعلو عن الحسد والغيرة وحب المجد، وان هذه أمور غريبة عن كل انسان متواضع وذي ضمير حي.

اذا كانت الطبيعة البشرية غير قادرة على ادراك الله، فيمكن الذين هم أقرب اليه أن يعرفوه بأحكامه التي لا يستقصى أثرها. هذا اذا وجد بشر قديسون يستسيرون فوق سيرة الأناسي.

---

(١) علم الكلام هو علم اللاهوت (المعرب).

أما نحن الذين نقيس، بقياسات صغيرة، الأمور الصعبة الرؤية، فيجب أن نفهم هذا الأمر في العلاقة مع الله وتدرجنا في الوصول اليه كما يأتي: ان الحالة يجب أن تكون دائماً حالة جد وجهاد مستمر في الفضيلة وتنقية الفكر حتى لا نحصل من جهة، بسهولة على ما نبتغي، لان ما نحوز عليه بسهولة يضيع بسهولة، ويكون في موضع اللامبالاة منا، على اعتبار أننا نحصل عليه ساعة نشاء، ومن الجهة الثانية، حتى لا نصاب بما أصيب به كوكب الصبح الذي سقط لأنه تكبر أمام الرب القدير، وانفصل عن النور، وهَوَى ساقطاً من كبريائه سقطة مهينة. وأخيراً نعي أن الألوهة غير مدركة لأنها اكليل الجهاد والحياة الفضلى المنيرة. هذا الاكليل ينتظر أولئك الذين يتنقون في هذه الحياة ويتوقون الى الله والى المشغوفين به.

لهذا السبب يحول بيننا وبين الله هذا الظلام الجسدي كما حالت الغمامة قديماً بين المصريين والعبرانيين.

وأنا أفهم بالآية: «جعل الظلمة خباءَه» انه يقصد بالظلمة هزالة الجسد التي من خلالها يمكننا ان نرى شيئاً فشيئاً. فليتفلسف الذين يريدون ان يتفلسفوا حول هذه الحقيقة. وليْسيروا في مسار فكرهم قدر ما يستطيعون. فنحن المقيّدون بهذه الأرض الذين لبسنا هذا الجسد السميك نعرض مضمون ما قاله ارمياء النبي: كما أن المرء لا يستطيع أن يتجاوز ظله مهما يسرع، وأن يرى الأشياء المنظورة دون مساهمة الهواء والنور، كذلك لا تستطيع الأجساد أن تدنو من المعقولات بدون الخواص الجسدية. حتى ولو تمكن العقل أن ينفرد كلياً بذاته ويحاول أن يلامس الأمور غير المنظورة وكل ما هو من طبيعته. وستدرك ذلك ممَّا يأتيك برهانه:

أليس الهواء والنار والنور والمحبة والعدالة والعقل والكلمة وما شابهها هي التسميات الأولى للطبيعة؟ كيف ستدرك الهواء بدون خواصه: التحرك والانتشار؟ كيف ستدرك النار بدون المادة المحرقة وارتفاعها الى فوق، وبدون شكلها ولونها؟ كيف تدرك النور مفصولاً عن الهواء ومستقلاً عن نبعه الذي يولد منه ويأخذ شعاعه؟ كيف ستدرك العقل دون حامله؟ كيف ستدرك الكلمة؟ وهل هي غير ذاك الشيء الذي يستريح في داخلنا أو يطوف خارجنا؟ أتردّد أن أقول ان الكلمة اذا كانت غير ذلك تنحل. وما قولك بالحكمة وكيف نفهمها. وهل هي غير امكانية البحث في الأمور الالهية والبشرية؟ وما قولك في العدالة والمحبة؟ هل هما سوى قابليتين صالحتين الأولى ضد الظلم والثانية ضد البغضاء وهاتان الفضيلتان تعظمان أو تصغران. وامتلاكهما أو فقدانهما متوقف على مسلكنا، لا

بل انهما لنا كالصيّاغ بالنسبة للأجساد. أيجب أن نبتعد عن الأجساد ونرى الألوهة، هذا شيء محدود ويعطينا فكرة وصورة بسيطة. بأية آلة سينظر المرء الله من خلال الجسد؟ يتعب عقلنا بالابتعاد عن الجسديات بحيث يبحث بضعفه أموراً تفوق قواه. لأن كل طبيعة عقلية تشتاق الى الله الخالق والمصدر الأول. إلا أنها تعجز عن ادراك ذلك للأسباب التي ذكرت. يظهر ان الشوق يتعبها لذلك تقشعر وتنكفيء على ذاتها، وتراعي المنظورات. فإما أن تؤله واحدة منها بسبب جهلها وأما أن تعرف الله من خلال جمال الأشياء وتناسقها.

البعض يسجدون للشمس والبعض للقمر والبعض الآخر للكواكب العديدة والبعض للسماء ونجومها. البعض ألّه العناصر اي التراب والهواء والنار والماء لأنها ضرورية وبدونها لا يمكن أن توجد الحياة على الأرض، والبعض ألّه بعض الاشياء الجميلة. وهناك من أقاموا لأمواتهم تماثيل لأنهم في حزنهم يريدون أن يروهم، وباقامة هذه التماثيل يكرمونهم. وفيما بعد رأى اللاحقون ان تكريم هذه التماثيل هو واجب وان كان أصحابها غرباء عنهم وسابقين. وصارت العادة أمراً شرعياً يفرضه الناموس. ثم تملّقوا الأقوياء ومدحوا السلاطين وأعجبوا بالجمال فأدخلوا مع مرور الأيام عبادة الممدوح وربطوا هذه العبادة بنوع من الأسطورة ساهمت في خداع البشر.

ان أهل الحس أيضاً اعتبروا الشهوات آلهة وأعطوها كرامات إلهية: كالغضب والقتل والدعارة والسكر وكانوا يجدون المبررات لخطاياهم فألّهوا وألّهوا وما أكثر ما ألّهوا! البعض جعلوا آلهتهم تحت الأرض، والبعض الآخر جعلوها فوق الأرض، والبعض أصعدوها الى السماء. يا للسخرية! لقد اعطوا لكل صنم اسماً. هذا حتوه الله وذلك الشيطان. وكانت هذه الأصنام مصنوعة بصورة فنية فيها من الزخارف ما يغري. وجعلوا الدم سبيلاً لتكريمها. كما توسلوا الفسق والدعارة والخدعة والقتل والضحايا البشرية الى تكريمها. ولا بدع فحريٌ بهذا النوع من الآلهة هذا النوع من التكريم المخزي. ولقد مجدوا وعبدوا الحيوانات المفترسة والزحافات وركعوا لمثل هذه الأصنام فصاروا سخرية لأنفسهم، ولم يعد فرق بين قذارة العابدين وقذارة المعبود. ان الذين يعبدون الأصنام هم جديرون بالاحتقار. لأنهم وهم المزينون بالمواهب الالهية فضلوا التافه على الحقيقي، والسيء على الصالح، وهذا من عمل الشرير الذي أساء في سبيل الشر. وهل يفعل الشرير غير ذلك؟ وهو انما يفعل هذا حتى يصبح مركز قوة، ويسرق الكرامة ويستر الشهوات الفاسدة. وهكذا جرّ البشر التائهين المفتشين عن إله بشوق

ممسكاً بأيديهم كما يمسك الأعمى بيد من يحاول أن يحدد طريقه، فألقاهم في الهاوية، وشتتهم في أماكن مختلفة من ديار الموت والفناء.

هكذا فعل هؤلاء. أما نحن فان منطقنا يقودنا لطلب الله فلا نقبل أن يكون العالم بدون سيد يحكمه. ان عقلنا يبحث ويفتش في المنظورات، وبملامس الأمور الحسية الأولية، فلا يقف عندها لأنه لا يليق بالعقل أن يعطي السيادة على المكونة لمن هم مساوون في الحواس وانه يتخذها سبيلاً يقودنا الى مَن هم فوق المحسوسات ومن هم مصدر وجودها. من الذي نظم الكائنات السماوية والأرضية وكل ما يتحرك في الهواء، ويعيش في الماء، وكل ما كان قبلها، اي السماء والأرض والماء والهواء؟ من الذي جمعها وفصلها؟ كيف تتجاذب وتفترق؟ اني أعجب بمن قال وان يكن من غير اهل الايمان: من يوجه الحركة التي لا تنتهي، ولا يمنع حركتها شيءٌ؟، أليس خالق الجميع هو الذي يزرع العقل فينا ويوجه كل شيء في الحياة، لكن من هو هذا الخالق؟ أليس هو مكونها ومعطيها الحياة؟ لا يمكننا أن ننسب هذه القوة الى الصدفة. ولو قلنا أن الصدفة خلقتها ترى من الذي يمسكها وينظمها؟ وهكذا فان العقل المغروس فينا، وهو الناموس الأولي فينا والسيد المشترك بين كل البشر هو الذي يرفعنا من المنظورات الى الله. فلنعد الى بداية حديثنا.

لم يكتشف احد قط ولن يكتشف ما هي طبيعة الله وما هو جوهره. ومن يرغب فليفتش وليبحث وبهذا عني من تمكن أن يحقق ذلك. ولكن متى سيجده؟ ان الانسان يجد الله عندما يتحد بالله الذي جاء منه. آنئذ ستصعد الصورة الى الرسم الأولي الذي تحاول أن تجده. واعتقد ان الآية التي تقول باننا سنعرف الله جيداً وعلى قدر ما يكشف لنا هو، هي فلسفتنا العليا. ما نعرفه الآن نقطة صغيرة تصل الينا كانعكاس صغير لنور عظيم. اذا قال الكتاب المقدس ان أحداً عرف الله فانه يعني انه عرف قليلاً. وهذا القليل يكفي لأن يجعله اكثر اشراقاً من كل انسان آخر لم يحصل على هذا الاشراق. وهذا التفوق اعتبر كمالاً لأنه قيس لا على الحقيقة بل على التقريب.

لذلك فان عاموس النبي رجا أن ينادي الرب. وتحقيق ما اراد كان بالرجاء، رجاء استدعاء الرب لا رجاء معرفته. أما اخنوخ فقد انتقل انتقالاً، إلا انه لا يظهر اذا كان قد ادرك طبيعة الله، أو سيدركها. والله كذلك اصطفى نوحاً ليخلص هو واهله ويبقى بذاراً من العالم بالفُلك الصغير. وهذا لا نعرف على اي مقدار عرف الله. ان ابراهيم البطريرك العظيم تبرر بالايمان وقدم ذبيحة عجيبة ترمز الى الذبيحة العظيمة غير الدموية الا انه لم

ير الله كإله، بل استحقه كانسان، فامتدح على قدر بره وادراكه. وكذلك يعقوب رأى بحلمه سلماً سماوية وملائكة تصعد وتنزل عليها، ونصب العامود الذي يرمز الى الحجر الذي مسح من أجلنا وأعطي له اسم «شكل الله» تكريماً لمن رآه. لقد تصارع هذا الأب العظيم يعقوب مع الله كما يتصارع مع انسان، وبقيت في جسده آثار الصراع التي دلت على انحدار الطبيعة المخلوقة، كما دلت على تقوى البطريرك الذي أعطي اسم اسرائيل بدلاً من يعقوب أي اسماً عظيماً مكرماً. ولم يفاخر بهذا الاسم الذي هو رمز شكل الله، لا هو، ولا غيره، من الأسباط الاثني عشر.

ان ايليا كما نعرف من التاريخ لم ير طبيعة الله بل ظلالها وقد رأى هذه الطبيعة لا في الرياح العاصفة ولا في النار ولا في الزلزال بل في النسيم العليل. من هو ايليا؟ انه الانسان الذي رفعته مركبة نارية نحو السماء حتى يظهر أن الانسان البار هو فوق البشر. كيف لم تعجب بما ذُكر في سفر القضاة من القاضي مانواي اولاً ومن بطرس التلميذ ثانياً؟ الأول لم يحتمل رؤية شكل الله. لذلك يقول «لقد هلكنا يا امرأة إذ رأينا الله» ذلك لأن البشر لا يمكنهم أن يتحملوا لا الظهور الالهي ولا الجوهر الالهي. وكذلك بطرس التلميذ عندما أظهر له المسيح ذاته في المركب وطلب منه ان يغادر مع أن بطرس كان أشد حرارة من الآخرين ليعرف المسيح جيداً لذلك طوّبه السيد وجعله اميناً على الأمور الكبرى. وما قولنا أيضاً في أشعيا وحزقيال وكلاهما رأيا الرؤى العجيبة؟ ماذا نقول عن بقية الأنبياء؟ أشعيا رأى رب الصباؤوت جالساً على عرش المجد محاطاً بالسيرافيم ذوات الستة الأجنحة يمجدونه وهم يحجبون وجوههم بأجنحتهم. رأى جمراً مشتعلاً ولامس الجمر فاه بملقط الملاك لينقى ويكون كاملاً للنبوة. أما حزقيال فيصف المركبة الالهية من الشيروبيم والعرش الذي فوقها والجَلَد الذي فوق، وما ظهر من الجلد وبعض الأصوات والحركات والأعمال. لا أدري اذا كانت كل هذه الرؤى صارت ظهوراً واحداً في النهار. هذا الظهور الذي لا يمكن أن يراه إلا القديسون، أم انها رؤية حقيقية حصلت في الليل. أو صورة نبوية كُشف بها عن المستقبل كحاضر أو أمر آخر غير مدرك؟ إله الأنبياء وحده يعرف ذلك وكذلك أولئك الذين أعطوا من فوق. ومع ذلك لا هؤلاء الذين تكلمنا عنهم، ولا أي انسان آخر من رتبتهم أدرك الألوهة، ورأى أو وصف طبيعة الله.

اذا كان بولس يستطيع أن يعبر عما رأى وسمع في السماء الثالثة، وبالصعود حتى ذلك المكان يمكننا أن نعرف شيئاً اكثر عن الله، فلماذا لم يخبرنا عما هنالك اذا كان

يعرف شيئاً من غاية الاختطاف؟ ذلك لأن بولس نفسه لم يدرك شيئاً. بل ترك لنا أن نكرم بصمت ما قد عاينه وذكره. هذا اعتراف بولس المناضل العظيم ومعلم الحقيقة انه سمع كلمات سرية لا ينطق بها. أرجو أن لا تنظروا الي نظرة من يبالغ في معالجة هذه الموضوعات الإلهية. وقد اشارت الحكمة الالهية للتلاميذ بقول السيد لهم: انكم لستم تطيقون الآن كلامي ولكنكم ستطيقونه فيما بعد. ويوحنا السابق للكلمة، الصوت الجهوري للحقيقة، قال ان العالم الحاضر لا يمكنه أن يستوعب هذه الحقيقة.

اننا كمن يحاول أن يغرف ماء البحر بالوعاء، عندما نحاول بالحكمة البشرية أن نعرف الكائنات ونبحث المعقولات بالحواس التي تحملنا الى هنا وهناك وتضللنا وتخدعنا، ولا نتمكن بعقلنا العاري أن نبحث الموضوعات العادية وأن نقترب أكثر فأكثر من تحقيقه، وأن تكون أفكارنا وفقاً للأشياء التي ندركها. كلما اردنا أن يكون ادراكنا للحقيقة عن الله اكثر كمالاً، كلما كانت الحقيقة اكثر صعوبةً ومشاكلها معقدةً، وكذلك طرق ادراكها وفهمها. لأن كل اعتراض مهما يكن صغيراً يقطع الطريق والسير نحو الحقيقة، ويمنع الطريق عن الكلمة وعن كل حركة الى الأمام كما يمنع الجياد عن حسن السير أولئك الذين يمسكون اللجم بأيديهم، ويحولون طريقها بحركة واحدة. هكذا نرى ان سليمان العظيم الذي فاق كل من سبقه بالحكمة، وكل من عاصره لان الله وهبه عقلاً وسعة معرفة أكثر من كل الناس، أصابته الحيرة والدوار حين استعمل كل حكمته لمعرفة ما ينقصه وخصوصاً في الأمور الالهية. اني لا أتجاسر أن أقول ان بولس يحاول أن يقترب من طبيعة الله لأن الاقتراب مستحيل. انه يحاول أن يفهم أفعال الله، وبما أنه لا يجد مخرجاً للمعرفة ينتهي الى الحيرة والعجب ويمثل ايضاً كلمات داود النبي «ان احكامك يا رب حيرتني» ويسمي أحكام الرب عمقاً لا يُدرك. ويعترف ان قوانا لا تقاس بسر الله.

ما هو تكويننا؟ كيف نتحرك؟ كيف ازدوجنا بالموت؟ كيف أنحدر الى اسفل، وفي الوقت نفسه أتجه الى فوق؟ كيف تنحصر النفس في الجسد؟ كيف توزع الحياة وتشترك في الوقت نفسه بالآلام؟ كيف يكون العقل أحياناً محصوراً وأحياناً غير محصور، يبقى في داخلنا ويتابع الكل بحركة سريعة؟ كيف يستحصل الكلمة ويشارك في التفكير ويتقدم بواسطة الهواء ويدخل بين الأشياء؟ كيف يساهم في الحس ويجمع ذاته خارج الحواس؟ وقبل ذلك كيف صرت في مصنع الطبيعة أول جبلة وأول تشكيلة؟ وكيف يصير التشكيل النهائي وكيف نصير كلاً كاملاً؟ كيف ينتهي الغذاء وكيف نتغذى؟ من

هدانا الى الثداء امهاتنا والى بدء الحياة؟ كيف يتغذى الجسد بالطعام اما النفس فالكلمة؟ ما هي الجاذبية الطبيعية والعلاقة بين الآباء والأبناء وكيف ارتباطهم بالحنان؟ كيف يتشابه البشر؟ كيف تكون الطبيعة البشرية واحدة في كل البشر وكيف يختلف الواحد عن الآخر في المزاج والطبع ويكونون مختلفي الصفات؟

كيف يكون الكائن ذاته مائتاً بالموت ومخلوقاً بالولادة؟ مثل مجرى النهر الدائم. هذا ويمكننا أن نتفلسف ونفكر كثيراً في مجال أعضاء الجسد والتناسق الموجود بينها. كيف تتحد وتتباعد حسب ناموس العقل والطبيعة؟ تمتزج وتفترق تَحْتَوي وتُحتَوي؟ وكذلك القول في الأصوات والأسماع: الصوت يخرج بواسطة الأوتار الصوتية ويصطدم بالهواء، أما السمع فيقبل حركات الهواء ويتصدى لها وكيف يلتقيان؟ وكذلك القول على أوسع من هذا في البصر الذي يتصل بطريقة لا يمكن التعبير عنها بالارادة. وبما انه يتحرك مع الإرادة يحدث مع البصر ما يحدث مع العقل، أو بالأحرى للبصر الامتياز الذي للعقل. لأنه بالسرعة التي يمتزج بها العقل بالمعقولات كذلك البصر يمتزج بنفس السرعة مع المنظورات. وهكذا قل عن الحواس الأخرى التي هي مخازن لما لا يفتش عنه العقل. وكذلك راحة النوم وما ينتابها من الأحلام وعن الذاكرة والذكريات، وعن الغضب والخوف وعن كل شيء في هذا الانسان، هذا العالم الصغير.

أتريد أن أعدد لك الفروق التي بيننا وبين الحيوانات بعضها؟ لنفكر في طبيعتها ووجودها واغذيتها ومواطنها وعاداتها وكل حياتها! كيف يعيش بعضها وحيداً وبعضها مجتمعاً؟ بعضها يأكل العشب وبعضها يأكل اللحوم، بعضها مفترس وبعضها أليف، بعضها رفيق صديق وبعضها وحش متأبد. بعضها ذكي وبعضها مغفل بليد. بعضها سريع العدو وبعضها بطيء. بعضها متنقل وبعضها ثابت في موطنه. تأمل في أحجامها وجمالها وقبحها وتعايشها معاً. تأمل في ضعف بعضها وقوة البعض الآخر. تأمل في طبائعها وصفاتها المختلفة. بعضها يزحف زحفاً وبعضها ذو قوائم. بعضها بري وبعضها بحري، بعضها مزين وبعضها بلا زينة. بعضها تعيش أزواجاً وبعضها لا تتجانس. بعضها يلد كثيراً والبعض الآخر قليلاً. البعض ذو أعمار طويلة والبعض قصيرة الأعمار. وانه ليأخذنا العجز والكلل اذا سردنا كل ذلك...

فكر بالحيوانات البحرية المتحركة داخل المياه كأنها تطير وسط العنصر المائع السائل، وتتنفس هواءها الخاص، واذا تنفست هواءنا نحن تعرضت للخطر وهلكت! فكر بعاداتها وغرائزها وتجمعاتها وولاداتها وأطوالها وجمالها وحبها لمكان معين.. فكر بأسراب الطير

وتنوعها وتشكلها وألوانها. بعضها أخرس وبعضها يغرِّد! لمن تغني ومن أعطاها هذه الأناشيد؟ من أعطى للعصافير الأوتار الموسيقية لتغني ألحانها؟ انها تندفع وتتحمس وتهتز عندما تحركها شمس الظهيرة، تملأ الأحراج والأجواء بأناشيدها وترافق عابري السبيل، عندما تبسط أجنحتها وسط النسائم وتوقع صفيرها نغماً جميلاً! كيف يحب الطائر المبدي (الطاووس) المتكبر الجمال والمتجدد تيهه بجماله اذا اقترب منه أحد، أو اذا اقتربت منه الانثى تزيّن ويقوّس ظهره، ويبسط جناحيه اللماعين كالذهب المليئين بالنجوم، وبمشية متباهية يعرض جماله على العشاق؟ الكتاب المقدس يعجب بفن الحياكة عند النساء ويقول من أعطى النسوة ثوب الحكمة والعلم المتنوع؟ انه حيوان عاقل مع حكمة فائقة تصل حتى السماء.

ألا تتعجب يا صاحبي من الحكمة الطبيعية للكائنات غير العاقلة؟ كيف الضفادع تنمو وتتوالد؟ وكيف تصبح الأشجار ميناء هادئاً ومقراً لأعشاش الطيور ومناسبة لغذائها: من علّمت النمل والعنكبوت محبة العمل المتقن؟ اعتبر بالنمل كيف تشكل خلاياها وتجعلها متماسكة: غرف سداسية الزوايا تتكامل بالتبادل، ويقوم في الوسط جدار بحيث تحاط الزوايا بخيوط مستقيمة وذلك في دهاليز مظلمة بلا هواء. كذلك العنكبوت تحيك بيوتها من عناصر رقيقة، وبطرق كثيرة تمد خيوطها وتستعملها لاصطياد الضعيف من الهوام والحشرات تبتلعه الى اجوافها طعاماً شهياً! أي اقليدس استطاع أن يقلدها، وهو الخبير بالخطوط؟ وكم اجتهد وعانى ليبرهن عنها؟ أي بلاميدس علم الكراكي أن تتحرك بنظام مثالي، وبطيران متنوع، وزرافات مختلفة؟ أي فيداس وزفكيس وبولفنتوس واغلوفونتس عرف أن يبحث ويصور صوراً فائقة الجمال؟ أي ذيذالوس هندس الرقص الكنوسي الموقع للعروس الجميلة؟ أين الدياميس الكريتية بمداخلها ومخارجها الصعبة وتعرجاتها المتشابكة جداً من أهراء النمل ومخازنها وما يروى عنها!؟

اذا تأملت بالتالي وتفهمت ما قلته عن الحيوانات، واستنتجت من ذلك حكمة الله ابحث بعد ذلك عن انواع النبات، والناظر اليه يشعر بالفرح. ثمارها نافعة جداً، وأوراقها مصنوعة بفن عجيب. تفحّص أنواع الثمار وتنوعها وخصوصاً جمالها الفائق. تأمل في الزهور وروائحها وعبيرها. انظر الى مباهج الألوان وخواصها وكذلك تشكّلات الصخور وزخرفها وروعتها. كل هذه وضعتها الطبيعة أمامك كمأدبة مشتركة بحيث تتعرف الى الله عن طريقها.

تعال لنقيس عرض الأرض وطولها! أليست الأرض الأم المشتركة للجميع. تعال لنفتش خلجان البحار المرتبطة بعضها ببعض وبالأرض. انظر الى جمال الغابات والأنهار والينابيع الغنية التي لا تنضب الصالح منها للشرب وغير الصالح تجري فوق الأرض، والتي تجري في باطنها والمعدنية التي تفيد صحة الانسان وتشفي العلل والأسقام!. قل لي كيف صارت كل هذه الأشياء. ما هو هذا النسيج العظيم البسيط؟ كيف تأسست الأرض. أية عربة تحمل الشمس وتديرها؟ وعلى أية قاعدة تقوم؟ ومن وضع هذه القاعدة؟ المنطق يفترض أن الله هو الذي أسس وهو القاعدة. كيف تنبسط السهول وتشمخ الجبال وتتشكل السفوح أشكالاً مختلفة، وتعطي الخيرات للبشر؟ لا يجد المنطق أساساً للأرض إلا إرادة الرب. بعض المساحات من الأرض صارت معمورة والبعض الآخر غير معمور، سهولٌ، وهضابٌ، وتلالٌ، وجبالٌ، وجرودٌ وصرود قاحلة غير معمورة! ألا يوحي كل ذلك بعظمة الله؟!.

اذا كان لي أن أعجب سعة البحر، فاني سأعجب بسكينته وانحصاره ضمن حدود! واذا ما عجبت بسكينته عجبت بسعته وكلتاهما خليقة بالاعجاب. من الذي جمعه؟ ومن الذي حصره؟ كيف ينتفخ وكيف يتوقف كأنه خجلٌ من الأرض؟ كيف يبقى كما هو وهو الذي يستوعب كل انهار الأرض؟ لا أعرف ما أقول أمام سعة هذا المخلوق العظيم؟ كيف يمكن أن يحصر الرمل هذا الماء العظيم؟ ماذا يقول العلماء المختصون بالطبيعة؟

مهما يقولوا فقولهم كنقل ماء البحر في الكأس. أليس أولى بنا أن نمثل الكتاب المقدس الذي عبر عن هذا بكلام قليل: «بأمره أحاط سطح المياه». الأمر أمسك العنصر السائل مقيداً. كيف ينقل القارب الخشبي الملاح من البحر الى الارض مدفوعاً بالرياح؟ ألا يعجب عقلك ويذهل عندما ترى هذه الأمور؟ كيف تتصل الأرض بالبحر تحقيقاً لحاجات الانسان وهما من طبيعة مختلفة الواحد من الآخر؟ ما هي المصادر الأولى لهذه الينابيع؟ فتش أيها الانسان علّك ترى وتجد هذه المصادر؟ من الذي شقق مجاري الأنهار في السهول والشعاب واندفقت بمياهها دون عائق؟ كيف يحدث أن يحقق العجب من ضدين: لا البحر يطوف ولا الانهار تتوقف؟؟ من أين هذه المياه الغزيرة العجيبة؟ أليست هذه عجائب الله؟ على السواء في الأوقات المناسبة وكما يجب ولا يترك العنصر السائل! يكفي برهان الطوفان في ايام نوح.

من الذي صنع السموات وزرعها بالكواكب؟ هل يمكنك أن تجيبني؟ بل أجبني، رعاك الله هل بمكنك ان تقول لي ما هي السماء، وما هي النجوم، وأنت تجهل ما

تحت قدميك، لا بل لا تستطيع أن تقيس ذاتك؟. ومع هذا تهتم بأمور تفوق طبيعتك، وتفتح فمك أمام أشياء لا تقاس؟ فلنسلم أنك عالم بدورات الفلك، وتعاقب الفصول، وتتالي الأصباح والأمساء، ومنازل الأبراج والكواكب وكل ما يعده العلم من اعجابك، هل تستطيع أن تدعي أن هذا ادراك للكائنات، وانما هو مجرد ملاحظة حركات توضح لك بالمران الكثير؟ هكذا مثلاً، تعلم الكثيرون أحوال القمر مبتدئين تعلمهم بالملاحظة. فاذا كنت يا هذا عالماً كبيراً واختصاصياً بهذه الأمور، وتطلب بحق أن يعجب بك الناس، فقل لي من أين جاء هذا النظام وهذه الحركة؟ كيف ترسل الشمس أشعتها الى كل الدنيا، والى كل عين، وكيف تختفي بأشعتها النجوم، وكيف تتوارى الكواكب بعضها وراء بعض؟ «وللشمس نصب خباءً فهو كالعريس الخارج من خدره تبتهج كالجبار» (مز ١٨:٦). وأنا لا أرتضي أن توصف الشمس بكلمات غير كلماتي: ان للشمس قوة يمكنها أن تسيطر بحرارتها على العالم من أقصاه الى أقصاه «من أقاصي السماء خروجها والى أقاصيها دورانها وليس من يتوارى من حرها» (مز ١٨:٧) ولا شيء يستطيع أن يهرب من تأثيرها، وكل عين تمتلىء من نورها، وكل حي من حرارتها. تدفىء ولا تحرق، لأن حرارتها معتدلة كلها نظام وتناسق، موجودة في كل شيء وكل شيء يشملها لأخذ حاجته.

قال أحدهم «ان الشمس في المحسوسات هي، مثل الله في المعقولات». لكن من الذي هندسها منذ الأصل؟ من الذي يثبتها بكلمته ولا يتحرك وحسناً وصفها أحد الشعراء بقوله: «انها لا تكل ولا تمل من الانارة وتوزيع نعمة الدفء». ماذا تقول نتوقف عن الكلام هنا عند حدود المادة والمنظورات؟ أم اننا بعد أن رأينا خيمة موسى الرامزة الى العالم كله الى نظام المنظورات وغير المنظورات، تتجاوز الحجاب الأول، وتتخطى المحسوسات لنحدق بايماننا في القدسات أي في الطبيعة العقلية السماوية؟

جاء في المزامير: «الصانع ملائكته أرواحاً، وخدامه لهيب نار» والصنع يعني الضبط والحفظ بالكلمة التي بها صارت. والأرواح السماوية تسمى ناراً أولاً: لأنها طبائع عقلية، ثانياً لتقاوتها. أنا أعرف أن الجوهر الأولي كان يسمى بهذه الأسماء. فلنحسب الأرواح بدون أجساد او في حالة تقرب جداً من حالة اللاجسد. أترى كيف لا نتقدم في فهمنا ونحن نعرف أن هناك ملائكة ورؤساء ملائكة وعروشاً وسلاطين وقوات، ومراتب وصفوفاً ومقامات وقوى عقلية، ونعرف أنها طبائع نقية خالصة ثابتة في الخير، ... تحركها ... وأنها تشكل دائما جوقة تطوف حول العلة الأولى؟ كيف

يمكن للانسان أن يتخيل هذه الأرواح التي تستنير بالله باشعاعات نقية، وبدرجات مختلفة وفقاً لطبائعها ورتبها؟ كيف تندمج بالخير، ويصير بعضهم نوراً ويستطيع أن ينير الآخرين ناشرين وموزعين نور النور الأول، ويصيرون خداماً لارادة الألوهة، أقوياء بالقوة الطبيعية التي لهم والمعطاة من الله، يطوفون على الكل وهم حاضرون في كل مكان ليقدموا خدماتهم بكل رغبة تعينهم في ذلك خفتهم الطبيعية. البعض منتشر في أقسام مختلفة من المسكونة. والبعض خصصوا لأماكن معينة من كل العالم كما أراد ورتب لهم مَن عينهم، يقودون الكل الى وحدة الاتفاق مع خالق الكون. يمجدون عظمة الله، ويرون مجد الله أزلياً يتمجد الله (ما دام أنه لا يضاف اليه شيء وهو كلي الكمال) ويهب للآخرين الخير بل لنرى نحن مجده ونكرمه.

وأخيراً فاذا كنت قد وفقت في محاضرتي وكنت خليقاً بتقديركم فذلك حسبي، وهو عطية من الثالوث الأقدس. أما اذا كنت دون توقعكم فيكون الكلام قد حقق غلبة أيضاً، لأنه كان يحاول أن يبرهن أن العقل لا يستطيع ان يدرك الطبيعة الملائكية فكم بالأحرى طبيعة الله التي تفوق كل شيء؟.. له المجد والاكرام الى ابد الدهور آمين.

الفيلسوف آرْن

سأتناول الفيلسوف آرْن بالمدح لأنه فيلسوف بالحقيقة. وسأكيل له الثناء كيلاً. ذلك من حقه علينا لأنه محبٌ للحكمة، وأنا خادم للحكمة. وكلامي هذا متجهٌ الى خدمة الكلمة، والى فن الكلام في فلسفة إعجابي بهذا الفيلسوف، واظهار جوانب الاعجاب به. وعلينا في هذه الحياة، إما أن نتفلسف، واما ان نحرم الفلسفة عند أصحابها اذا اردنا ألاّ نُحسب بعيدين عن الخير كلياً، وألاّ نُتّهم بعدم التفكير، مع اننا من ذوي العقول. فلْنلجأ اذن بالكلمة الى الكلمة.

أجل سنُجزل المديح الى هذا الانسان الانسان، وما عليه هو، إلا أن يتماسك ويثبت في وجه المدح والتقريظ، وليحتمل نتائج الشهرة في الآفاق. وأما نحن، فالله عالمٌ، بأننا لا نثني عليه لنرضيه بالمجاملة من حسابنا، (اننا نعرف طموحه وشهامته ومكانته)، وهذه الكلمة، لن تزيد مع ذلك شيئاً في قيمته، هذا اذا لم تقلل قيمته بسبب هزالتها وركاكتها. بل لنستفيد نحن أنفسنا من تحريك الكلام في جوانب الفلسفة وأغراضها، وخصوصاً اذا كان اهتمامها وهدفها رفع مستوى الحياة وتحسينها. وحسنة الفلسفة هي، قبل كل شيء، مدح الأمور الخيّرة، لأن المديح يسبب الغيرة والاشتهاء، والغيرة تسبب الفضيلة، والفضيلة تجلب الغبطة والارتياح وهي غاية المرغوبات، وفي غايتها تتجه كل حركة وعمل.

اذن يا أكثر الفلاسفة كمالاً وامتيازاً، لا بل يا أكمل الشهداء، شهداء الحقيقة.
لتعذرني على تقصيري وضعف حكمتي الموجودة فقط في حدود الكلمة المتّقنة
ة الخارجية الأنافة! تعال، وأنت الخبير في الفضيلة النظرية، كما أنت خبير في العملية. أنت الذي يبحث ما يخصنا – مسيحياً – بطريقة فريدة غريبة بنزاهة القصد والاخلاص والتجرد! تعالَ ايها الكلب (الكلبي)*، لا بالإهانة (حاشا) بل بالجرأة والأمانة للمبدأ، ايها الكلب، لا بالنباح، بل بحماية الخير والتهر على النفوس، وبما عندك من المداعبة والتدليل لأصدقاء الفضيلة، والنباح ضد الغرباء عن ساحتها وحرمتها.

(*) من اصحاب فلسفة المدرسة الكلبية.

تعالَ وقف الى جانب الكهنة! تعالَ الى هذه المائدة السرية. تعالَ الى جانبي حيث أقيم معهم سر الشكر الالهي. وشفيعك الى هذه المنزلة هو خدمة الكلمة، والحياة الطاهرة، والتقية التي حصلت عليها بالجهاد والتعذيب. تعالَ لأكللك بأكاليلنا، ولأعلنك بصوتٍ واضح جليٍّ، لا في أولمبيا، ولا في مسرح اليونان الصغير، ولا كظافر في ينكراتس، أو في حلبة المصارعة، أو في العدْو، أو كمن ينال جوائز صغيرة على مسابقات صغيرة. تعالَ لأكرمك لا كتكريم أبطال الأساطير وشياطينها، وأمام البشر الزائلين، بل أمام الله والملائكة والكنائس كلها. أكرمك كغالب للكذب والبهتان والترهات والهرطقات. اكرمك تكريماً لله الحي الذي يعلّم الاستشهاد بالآلام، والملكوت السعيد هو الجوائز لعذابك وصبرك!

وبعد، ايها السامعون، لماذا وقمتُ هذه المخاطبة بهذه الصورة؟ فلأجلكم بإيجاز، وبما هو معروف عنّا: ان هذا الرجل مكافح صادق عن الحقيقة، ومدافع عن عقيدة الثالوث حتى الدم، ومطارد لمن نطردون ونضطهدون. انه هو مطارَد، ويتألم راضياً، وليس كمن يتألم، راضياً، أحدٌ يستطيع أن يغلب المضطهدين. وبصورة أعم اقول ان هذا الانسان ممتاز بين الأناسي، وأكثر جلالاً من الأجلاء. جليل بعيد عن جلال أصحاب الأساطير والقصور والتماثيل والكبرياء المهترئة. جليل، لا من جلالة الملوك الذين يوزعون الجلالات والكرامات. الجلال عندي هو جلال التقوى والمسلك والارتفاع نحو الصلاح الأول الذي أخذنا منه وجودنا. فبطلنا هذا ليس مجاهداً فحسب، بل من معدن الشهادة ومن نبع ماء الشهداء، لذلك نرى مثال الفضيلة مثالاً طبيعياً فيه. انه مواطن مسكوني من جهة اختصاصه الفلسفي (ان الفلسفة الكلبية هي عالمية ولا تقبل الانحصار في نطاق محدود). اما من جهة الهوية فهو اسكندري، من المدينة التي تحسب مثل مدينتكم، أو تأتي بعدها في المحل الثاني فوراً*. وميزة الاسكندرية دفء المناخ، بل دفء الايمان المسيحي وحرارته وغيرته، والغيرة هي استقرار الايمان وثباته وقعته.

بعد أن تربى وتثقف في ذلك المحيط، وعندما رأى أن الوقت قد حان ليختار طريق الحياة المناسب قرر شيئاً منهجياً عظيماً جداً. قرر عملاً بطولياً وفوق كثير من الأمور بل فوق كل الأمور الحياتية: احتقر اللذة والملذات والسلطان الذي يمارسه المتنفذون، احتقر

(*) بعد الفلسفة يأتي الكرسي الاسكندري. بل يأتي مساوياً له، بل قبله لان الاسكندرية كانت في الرتبة الثانية من الامبراطورية الرومانية. ولكن لما صارت القسطنطينية رومية الجديدة صارت الاسكندرية في الرتبة الثالثة.

كل هذا معتبراً الملذات العذاب الأول، والثروة منتهى الفقر، والقوة منتهى الضعف، وتنكر للأرض والأرضيات. جعل الفلسفة مشرقة في سيادة الأهواء، ودخل عالم الخير والصلاح بعزم وتصميم. وعندما اتخذ هذا القرار، عاد ففكر أيضاً أيختار الفلسفة الغريبة التي تتلاعب بظلال الحقيقة، وتوشحها بأغطية واهية، أم فلسفتنا المتواضعة بمظهرها، السامية بمضمونها والتي تتجه بنا الى الله. اجل اختار فلسفتنا وفضلها دون أن ينجرّ بذهنه وراء الكلمات الأنيقة والجمل المنمّقة التي يفاخر بها الكثيرون من الخائضين في فلسفة اليونانيين. والشيء الذي بحث عنه أولاً هو معرفة الطريق الأكثر تفهماً وفائدة له وللمسيحيين جميعاً، لأنه كان يوفق بين الفردي والعام، وعنده أن هذا التوفيق بين الخاص والعام هو ميزة لكمال النفس المتفلسفة. فما من أحد منا يولد من أجل ذاته فقط، بل من أجل الآخرين الذين جبلهم خالق واحد من أجل مصير واحد.

لقد رأى أن الحياة التوحدية هي حياة ذات طابع خاص وغريبة ومختلفة عند الكثيرين، الا انها حياة عظيمة وسامية تفوق البشر، وهي حياة مناسبة لأولئك الذين يستطيعون أن يحققوها. اما الحياة الاجتماعية المعتادة فعلاوةً على أنها مجال لممارسة الفضيلة، فانها تشمل الجماعة البشرية كلها. وهي اكثر قرباً من التدبير الإلهي الذي كون الكون وربطه بالعلاقة الاجتماعية وبوحدة المصير. ثم نظرَ أن اليونانيين يعتبرون العظيم مَن لبس الجبة وأطال اللحية! فماذا فعل آزن وكيف استعمل الفلسفة؟ اتبع طريقاً وسطاً بين زي أولئك وبين حكمتنا، فأخذ عن أولئك الشكل والمرح، ومنا الحقيقة وسمو التعليم.

لذلك عرض، شعراً، مدارس المشائين والاكاديميين والمدرسة الرواقية المحترمة، والمدرسة الأخلاقية الطبيعية مع الذرات، واللذة لأبيقور ودفعها بعيداً ورفضها. كان يحتقر في المدرسة الكلبية الجادة، إلا أنه كان يمتدح بساطتها، وصار ما هو عليه بعد ذلك كلباً ضد الكلاب الحقيقية، وفيلسوفاً حكيماً ضد الجهّال، ومسيحياً من أجل الجميع. وهكذا غلب أولئك الوقحين المتشابهين بالملبس والمظاهر الخارجية، كما غلب نوعاً ما التجديد عند البعض مظهراً ان التقوى لا تكون في هذه المسائل الصغيرة، ولا الفلسفة في المظهر، بل في ثبات النفس ونقاوة العقل، والميل الصادق الى الخير، لا فرق في اللباس والمظهر الخارجي، ولا في التوحد، أو حياة المجتمع (نوح في الماء وفوق الماء، وكالعليقة المشتعلة بالنار ولم تحترق، ومثل سلم بعقرب العضب)، فلا تتأثر بشيء من شر الآخرين في المجتمع كالماس الذي لا يتأثر بمن يطرقه، وتحسّن حياة الآخرين. وما دون ذلك من العلوم لا قيمة له الا بمقدار ما يخدم المعلم الإلهي.

فما هي اذن القضية التي اهتم بها؟ هي الدفاع عن الإيمان أمام الحكام، ومجابهة الملوك الباسلة، مثل داود الالهي الذي جابه الملك ولم يخجل. قضية الفيلسوف هي الحد من ثرثرة المواطنين الثائرين، والحد من سلطة الأسياد المتسلطين، واستقرار بيوت المتخاصمين، الحد من غلاظة الجهل، ومن كبرياء المثقفين، ومن تعالي الغني، وعقوق النعمة، وشر الفقر، وتهور الغضب، والاستغراق في اللذة، والضحك الذي لا يتوقف. أجل همه ايقاف الانزعاج، والخرافات الشبيبة وشذوذها، وجبن الشيخوخة، ووحدة الترمل، ويأس اليتم.

تُرى ألا يتمنى كل عاقل حكيم ان يشغل عقله ويصرف ذهنه الى هذه الأمور بدلاً من التفكير في السحر والحروف والطلاسم وعلم النجوم وسواها؟!

اذكروا أن كل الذين يعملون ويهتمون بالهندسة والدوائر والفلك لن يفيدوا الحياة بشيء ولن يفسروا سر الكون بأسره. ان ما ذكرته هو أسمى بكثير وأعلى من كبرياء ابيستيتس وفضول ديونيسيس وابلاغة كيرابيس. ونتحاشى ان نمس أولئك الكتابيين احتراماً لمتمنى الرجل الإلهي، لذلك فلنضف الى الصفات الأخرى التي كان يلتزمها، العقل والعفة والتواضع، والمسلك الرضي، ومحبة الفقراء، ونجعلها في كلية واحدة تمثل حياة هذا الانسان العظيم. ونلتفت بعد ذلك بعين الواقع الى الحدث الثاني الذي يجب ان توليه الاهتمام الأول فيما يتعلق بالعقيدة وموقف هذا الرجل:

مرت بنا فترة كانت فيها الكنيسة هادئة ومرتاحة بعد زوال هرطقات سمعان ومركيون وكابرلوكراتس ومن دار في فلكهم من الهاذرين والمتشدقين الكفر والمروق. وقد كانوا جميعاً يقسّمون الوحدة الالهية ويجدفون على الاله الخالق. اختفى هؤلاء جميعاً وصاروا في عالم النسيان، ولفهم الصمت الأبدي. وأما بدع متنالي الخبيث ومانندس المظلم وثّنائي الوقح المعاند منذ سقبلس الآثم الشرير، كل هذه البدع تراجعت واضمحلت: منها ما اندمج في فكرة أخرى مضادة، ومنها ما نبذ وسقط وأهمل، ومنها ما صُرف النظر عنها لضعفها وتفاهتها، ولم يعد شيء يزعج الكنيسة والحمد لله لأن الاضطهادات والقضاء على الهرطقات جعلتها اكثر اشراقاً وبهاء بالشهداء والصفاء والنقاء.

لم يمر وقتٌ طويل على هذا الهدوء حتى هبت زوبعة ثانية ضد الكنيسة من جديد! هي زوبعة الكفر والظلم الثائرة من لجيوب الشياطين الكبيرة، واللسان الناطق ضد المسيح والعقل المتغطرس الذي نادى بتجزئة الألوهة (فيلـ ٣–٢) نعني به آريس الذي ظهر بالفعل أفظع من يهوذا الخائن وأحق وأولى بهذا الاسم لتوقحه على المخلص. وقد نال في

آخر حياته جزاء ما فعله في بدايتها. هذا المبتدع الأكبر بعد ان ابتدأ في الاسكندرية، ودرس الشر هناك، صار كنار متوحشة ولدت من شرارة صغيرة اجتاحت القسم الأكبر من المسكونة. الا أن آباءنا القديسين وعدداً كبيراً من الأتقياء الذين اجتمعوا في نيقية اخمدوا نار هذه الهرطقة، ووضعوا الحدود اللاهوتية في دستور ايمان صحيح،

لكن، وايضاً، يتسلّم ملكٌ خبيث شرير حكم البلاد، وأيضاً يعود الشر الى الحياة الكنسية وتتفتح الجراح في جسد البيعة المقدسة، ذئاب الوثنية الخاطفة تهجم علينا من كل جهة لتفترس ابناء الايمان. كهنة يتسلحون ضد كهنة، ومواطنون يهجمون متهوّسين ضد مواطنين، وملك يطلق الحرية للإلحاد، ويشترع ضد الايمان الصحيح، وحوله حثالةٌ من اشباه الرجال ومن اشباه النساء يعيثون باسمه فساداً، وجرى ما جرى، ويا لهول ما جرى! من يستطيع أن يصف التعذيب والتنكيل الذي لحق بالمؤمنين وصفاً مفصلاً: النفي واباحة الثروات والممتلكات، والتشهير والتشريد والفرار الى الصحاري والقفار جموعاً مجمعة هجرت المدن لتعيش في العراء في أصعب الحالات من المطر والبرد والقفر! من يصف التعذيب والاعدام، ومواقف الأساقفة والفلاسفة من الرجال والنساء والشيوخ؟ من لي بوصف التعاذيب تعدياً فوق تعذيب، وفوق رغبة الملك.

واخيراً انتهى الاضطهاد الكبير بهلاك الملك الملحد يوليانوس الجاحد، وانتهت حرب فارس. ولقي الملك جزاءه عن دم الألوف الذين أماتهم. أتريدون أن أحرك الدموع بوصفي لما كان يجري على مسرح الأحداث آنذاك؟ قاربٌ كان يحمل كاهناً شيخاً في عرض البحر لا ليخلصه، بل ليهلكه. يا للمشهد! يا للمأساة! كان المركب في عرض اليم، وكانت الجموع ترقبه من الشاطيء البعض بنية سيئة والبعض بالاشفاق والندب والنواح. كيف أستطيع أن أصور بكلمات موجزة هذه المأساة؟: أوقدت النار، واحترق المركب واحترق معه حَمَل الضحية. النار امتزجت بالمياه فساهمت كلتاهما في عذاب المؤمن التقي، والعنصران تقاسما الجسد، وارتفعت النار العجيبة فوق ماء البحر. واقترب أحدهم من الحرقة فوجد مشهداً محزناً لا يصدَّق: مركب بدون قائد، وحطام دون عاصفة بحرية، والشيخ رماد، لا بل لا وجود لبقية ضاعت فوق المياه. وهكذا نال الكهنوت دفناً جديراً به، ونهاية مغبطة. مع أن هذا النوع من الموت كان يجب ان يكون نصيب الكفرة. هذه هي رحلة هذا البحار التقي وهذه كانت نهايته. لم تنحدر نار من السماء أشد احراقاً من هذه النار ولكنها لم تكن نار عقاب لإهلاك الذين قاموا بهذه الأعمال! (كنار ايليا).

أيها الفيلسوف الحبيب! لماذا تهتم وتعرض لك الأمور بعيداً عن شخصك بالذات وما أصابك أنت؟ آن لنا ان نتكلم عن جهادك وعن كفاحك وصراعك من أجل العقيدة والدين المتين، تلك هي جهاداتك الخاصة التي اضفتها الى جهادات من سبقك كختم جميل تختم به.

لقد كبرتْ في مدينتك المرطقة التي ابتدأت فيها وعظم شرها. وبعد أن رقد بالرب عن شيخوخة متناهية مشرقة اثناسيوس رجل الفضيلة (البطل في القديسين والقديس في الأبطال) عينُ المسكونة المبصرة، رئيسُ الكهنة العظيم أستاذ معترفك، ومعلم حُسن الديانة الصحيحة، قاعدة الايمان الراسخة والسراج الثاني المنير، سابق المسيح اذا جاز لي ان أقول ذلك.. بعد وشايات وفريّات كأكذوبة اليد المشهورة، وقصة الأموات الأحياء... نعم بعد كل تلك التعديات والجرائم العظيمة، وبعد انتقال الأب الأقدس الى جوار الثالوث الأقدس الذي عاش معه وناضل من أجله حتى الموت، نزلتْ بمصر ضربة ثانية، اذ انسلّ في جنح الظلام الى الكنيسة عاكن الكنيسة، وراعي الذئاب الخاطفة، اللص الذي تسور الجدار وقفز الى الحظيرة آريس الثاني القذر المتوغل في الحماقة والنهم الفائض بالكفر والزندقة. اني اتردد في ذكر المعاصي وجرائم القتل التي استعملها هذا الوحش لاحتلال الكرسي المقدس، وكذلك أذكر الحيل التي احتال بها في دعوته الماكر الى الاكليريكية منذ البدء. دعني أبكي قليلاً كما تبكون انتم وبكيتم سابقاً، ودعوني التجيء الى داود النبي لاتناول قوله: يا الهي شعوب وثنية جاءت الى ميراثك ودنسوا هيكلك المقدس (مز ٧٨: ١) تركوا أجساد عبيدك بغير دفن طعاماً ونهشاً للوحوش (مز ٧٨: ٢) وأضيف الى ذلك أيضاً من داود قوله: كم من الأعمال الخبيثة تجرأ العدو وقام بها في هيكلك المقدس وفي وقت عيدك وفاخر مبغضيك (مز ٧٣: ٤)؟!

الحاكم كان رجلاً ملحداً ومخالفاً للشريعة، ولم يكن يحمل اسم المسيحية (كان هذا أفظع امانة). وكان يستعجل ليصل من الأصنام الى هيكل الرب. اصطفت قوة عسكرية كانت تغلي غضباً. جيش عجيب متوحش ضد أناس غير مسلحين، لا يعرفون القتال. وقد طرد عنوةً من الهيكل خليفة القديس اثناسيوس الكاهن الذي اختير بالروح القدس ومُسح حسب الناموس، تزينه شعر ابيض، وجلال وتعقلٌ. هذا أزيح وصعد الى عرش طبائيل وراث الغرباء (اشع ٧: ٦). وقد استعمل السلاح ضد الرجال القديسين، ضد الانقياء غير الملوثين بالدماء، وارتفعت الأبواق بدل الأناشيد المقدسة. انتبه الى ما جرى وعاك الله:

الرجال يسقطون قتلى في الهيكل، والنساء يهانّ ويُدسْن بالأقدام، والأجنة في بطونهن حتى يُجهضن اجهاضاً. وكانت العذارى تجر جراً بحال يرثى لها، ويُعتدى عليهن. (اني اخجل من النساء والرجال بذكر الأساليب وكشف العار والمصيبة. وبعض من كنّ في داخل الهيكل كي يُلقين في الآبار، والبعض يعلقن تعليقاً في قسم النساء للتمتع بالمنظر المخجل، والبعض كي يتجمعن ويقعدن فوق الجثث الممددة على الأرض، والقدسات كانت تداس بالأقدام الدامية، والمذابح كانت تدنس بأغاني والهمة ورقصات مخزية، والسنة شتامة تمرح فوق العروش المقدسة، وأسرار يُسخر منها، والأناشيد الالهية تتوقف، وترتفع بدلاً منها صرخات نواح. جداول من الدماء والدموع. كهنة يُسحبون عارياً ورهبان يتمزقون. وبالاجمال فكل صورة الغزو الأشوري القديم ضد اورشليم المقدسة لا تستطيع ان تفي بوصف ما حدث وصفاً حقيقياً. ولا أي سماع يستطيع ان يستوعبها غير صوت ونفس أرميا النبي الذي يطلب ينابيع دموع، ويسمح للجدران ان تنوح بسبب الشرور الكثيرة، ويفرض على طرقات المدينة حزناً (مر ٤:١) ولا تطأها اقدام في أيام الاحتفالات.

هذه المأساة شهدتها أقطار الشرق، وناح الغرب بسببها حين نقل اليه الكاهن المنفي آثار حزن المأساة! فقد عرض أمام كنيسة رومية ثيابه المغمّسة بالدم صورة عن القتل، فأثار دموع الجميع والاحتجاج الصامت، واخذ في تصوير الشر الكبير ليحصل على العون من أجل البلية الصارخة.

أما أنت، ايها الفيلسوف الحبيب، فقد تأثرت كثيراً واكثر من الجميع، كما كنت اكمل كلاماً، وأوفر حرارةً في غيرتك. لذلك حاربت وتطوعت للدفاع عن الايمان والتقوى مجاهداً ومعلماً، وناصحاً مخلصاً، وناقداً وموبخاً مستثيراً الأسياد والرؤساء علناً في كل زمان ومكان. وفي النهاية، بعد أن قبضت عليك السلطة الملحدة المتهورة (مع المصيبة) وقد انطبعت في جسدك آثار السياط، وقد تقبلتها بصبر وثبات كأنها تلسع غيرك حتى تورمت جسدك. وقد ارتسمت قناعاتك في عيون الجميع كأنك تكتب فوق عامود بطولتك، حتى لقد صرت معلماً للصمت والتجلد وقد توقف لسانك عن الكلام.

وماذا بعدئذٍ؟ نُفيت من وطنك الغالي الى وطن غريب. ذلك لكي تعلم التقوى وحسن العبادة. صوّر لنا عودتك بعد ذلك كأنك تعرضها في مسرح. قل لنا كم من أناس علمت هناك ليتعلموا؟ ومن طهرتَ من أصحاب الأفكار الملحدة؟ وكم من اناس اقتدتهم الى حسن العبادة. واني لأتصور حولك الحافل والاجتماعات والمهرجانات.

قل لنا، بالله عليك، أبقيتَ لك بقية قوة في جسدك!؟ أكان لك رفاق في الجهاد، أم انك تألمت وجاهدت واحتملت الألم وحيداً منفرداً؟ اكنت تشتاق للاخوة والأخوات والرفاق والأصحاب؟ ام انك، باعتيادك هذه الأمور، كنت فوقها؟ أأضناك غياب والدك العجوز، أم انك تجلدت وازددت صبراً وشجاعة لأنك تركت لهم مُعتصَم العقيدة والتقوى زاداً وضمانة؟ على كل حال لقد فعلت حسناً بعودتك من أجل الذين تشتاق اليهم، ويشتاقون اليك. وذلك كله بمشيئة الذي يمجد الذين يمجدونه (ملو ١ ٢:٣٠) ويضرم نار الغيرة في ذوي الغيرة (تث ٣٢:٢١) ذاك الذي يحقق رغائب من يخافونه (مز ١٩:١٤٥) ويهب القيامة للأموات (يو ٣٩:١١) الذي أقام لعازر من الموت بعد اربعة ايام! وأنت، وبعد اربع سنوات أحياك على الرجاء من يجمع العظام الى العظام (حزق ٤:٣٧).

اصبر وثابر على العمل نفسه اكراماً لي وللغاية التي عملنا ونعمل من أجلها. ثابر على جرأتك وصراحتك حتى لا يظهر انك انقطعت عن العمل بسبب العقابات وانك جبنت في طريق الفلسفة الحقيقية.

لقد قضي على الترهات اليونانية كما حصل في الماضي، وقُضي على الإلحاد وتعدد الآلهة، الآلهة القديمة والجديدة والأساطير والشعوذات المخزية. وكذلك قضي على الضحايا الدموية المشينة التي تطهر الطين بالطين كما سمعت قول أحدهم، يعني أنه باجساد الحيوانات الغير العاقلة يطهرون اجسادهم، تلك هي جهالة العبادة والالوهة في الوثنية العمياء. فَبِئسَ الدين وما يعتقدون! هلا أعلمونا اذن ما هو التعليم السليم، وليفهمونا ماذا تكون هذه الألوهة ومن أية كلمات، ومن اي كشف سماوي تأتي واي لاهوت هو هذا اللاهوت المرتكز على الخرافات والشعوذات؟

لقد قضي أيضاً على حركات وتحركات المراطقة من اصغرها الى اكبرها. والفيلسوف يصبح بالآلام اكثر شجاعة، لأنه يتقوى بالعذاب كما يتقوى الحديد بالنار والماء. فاستمر انت وثابر وعلّم أولئك المنحرفين الضالين. حدد لهم حسن ايماننا وصحيح اعتقادنا بإله واحد غير مولود، هو الآب، ومولود واحد وحيد، هو الابن الرب والسيد الإله الذي اذا ذكر وحده يُسمّى الهاً، واذا ذكر مع الآب والروح يسمى أباً بسبب الطبيعة ووحدة الرئاسة والألوهة. وواحد وحيد هو الروح القدس المنبثق من الآب، وهو الاله للذين يزدانون بالعقل، وموضوع جحد ونكران عند الجاحدين الملحدين. اما الذين يتفلسفون ويفتشون فيعتبرونه الهاً أدنى من الآب!؟ عجباً لهم ونعماً اهنالك انصاف آلهة وأرباع آلهة واكثر وأقل؟ الابن والروح القدس من جوهر الآب ومساويان له، ومن بدء واحد وقبل كل بدء.

نقول انه لا توجد بدايات متعددة لئلا نقع في تعدد الآلهة اليونانية. ولا يوجد بدءٌ واحد يهودي محتكرٌ ضيقٌ وغيور قابع في السموات العلى. ولا ألوهة تستهلك ذاتها عند من يقولون ان الابن يصدر عن الآب بالولادة المستمرة والجريان. فلا الابن غير مولود، لان الآب واحد والابن معه واحد، ولا الروح القدس ابنٌ لأن المولود الوحيد واحد بحيث يكون هذا الاسم التعريف الالهي الوحيد للابن تعريفاً ثابتاً دائماً غير إسمي. فالواحد للبنوة والروح القدس للروح لا للبنوة. فالابن هو ابنٌ حقاً لأنه وحيد وليس ابا وكل الابن وكل الآب ومنذ البدء، وقبل كل بدء. لأن الوهته لا تتأتى عن تحوّل. ولا الفائه هو نتيجة نمو بحيث يفقد ويفتقد من الواحد كونه آباً، ومن الثاني كونه ابناً. والروح القدس هو قدوس حقيقةً، لأنه لا يوجد مثله آخر، لا يملك التقديس بالإضافة الى شخصه بل هو قدس مقدّس لذاته لا زيادة ولا نقصان. لم يبتدىء زمنياً قط، ولم يتوقف لان مميز الآب والابن والروح القدس هو الألوهة.

ايها الفيلسوف العزيز. منذ الآن، علم الناس ما عرفته وما تعرفه هذا فقط: وحدةٌ في ثالوث، وثالوث في وحدة يسجد له: ثالوث ينقسم ويتحد بطريقة عجيبة. لا تحسب وهم الألم بالولادة، واعترف بالولادة الالهية، لان الألوهة لا تعرف الألم. ونزه فكرك وارفعه عن كل هذا المعنى. فالابن مولود من الآب ولادة الهية، ولادة نور من نور. ولا تتوهم الاعتقاد بانه انسان أيضاً اتخذ الانسانية على لاهوته، فهو اله وانسان معاً. لا تفتر على الروح القدس فهو اله مع الآب والابن ومسجود له ومعبود معهما. واذا كانت الكلمة قد وهنت وضعفت عندك عن التعبير، فالافضل لك عندئذٍ ان تجهد فكرك بارشاد الروح القدس بدلاً من أن تلحد بدون تفكير ناشداً المجهول وواضياً به. تجنب الاعتراضات والتناقضات، وتمسع التقوى والحكمة السطحية الوضيعة، واهرب مما هو أضعف من خيوط العنكبوت التي تقبض على الذباب. علم فقط خشية الايمان ورهبته وإلا يقضى على الايمان بالسفسطة.

انا عالم أنك ستفلسف الفلسفة الحقيقية فلسفتنا باشد حرارة وقابلية وكمال. تثبت لي ذلك جراحاتك وسماتك التي في جسدك من أجل الايمان.

وعندما سترحل انت رحلتك الأخيرة، تذكر رعاك الله، واكراما لي، الثالوث الذي لا يسكن في مصنوعات الأيدي. وسترسل نشيد الظفر الآن وفيما بعد مع يسوع المسيح ربنا الذي له المجد إلى الأبد آمين.

على هامش الانجيل

المسيح الذي اختار صيادي السمك يصطاد هو، وينتقل من مكان الى مكان. لماذا؟ يفعل هذا لا ليربح لله أصدقاء أكثر بتنقله من مكان الى مكان، بل كما اعتقد، ليقدس أماكن أكثر. من أجل اليهود يصير كاليهود، ومن أجل الذين هم تحت الناموس، صار تحت الناموس، وذلك، ليشتري الذين هم تحت الناموس. من أجل المرضى، صار كالمريض ليخلص المرضى. صار الكل من أجل الكل، ليربح الكل. لماذا أقول الكل من أجل الكل؟ لأن ما لم يحتمل بولس أن يقوله عن نفسه، أو يقبله على نفسه، يحتمله المخلص، ويقبله على نفسه. وهكذا فلم يصر يهودياً فقط، ويتقبل تعييرات شريرة ظالمة وحسب، بل قبلَ أن يلبس أسماء أخبث وأشد نكراً. فقد صار لعنة من أجلنا، وصار الخطيئة الذاتية، جل وعلا! اذ كيف يسمّى خطيئة، وهو الذي جاء ليحررنا من الخطيئة؟ وكيف يمكن أن يكون لعنة ذاك الذي اشترانا من لعنة الناموس؟ انه يرتضي ذلك ليبرهن لنا الى أي حد يبلغ تواضعه، ولكي يعطينا مثالاً من التواضع الذي يرفعنا. صار مع صيادي السمك، كما قلت، وتواضع ليجذب اليه الكل، ويتقبل كل شيء من الأعماق، السمكة أي الانسان السابح في أمواج العمر المضطربة، والمياه المرة!

ها هو، بعد أن أنهى موعظته، يغادر الجليل، ويأتي الى جبال اليهودية عبر الاردن. كان قد جاء الى الجليل (موطن الوثنيين) وما أحسن ما عمل، ليرى الشعبُ السالك في الظلمة نوراً عظيماً. ثم يصعد الى اليهودية ليقنع اليهود بترك الحرف واتباع الروح. يبذر تعليمه وينشر أعماله وعجائبه. فحيناً يعلم فوق الجبل، وحيناً يتكلم في مكان سهل، يدخل حيناً الى القارب، وحيناً ينتهر العاصفة. ينام حتى يبارك النوم ويتعب ليقدس التعب، ويدمع ويبكي حتى يجعل من الدمع شيئاً جديراً بالمدح. ينتقل من مكان الى مكان ذاك الذي لا يسعه مكان، وهو الذي فوق الزمان، والغير الجسدي، والغير المحدود، هو ذاته الذي كان وصار ويصير. وهو فوق الزمان ويدخل الزمان. هو غير منظور ويصير منظوراً. كان في البدء قبل الخليقة، وكان عند الله، وكان هو الله. ان كلمة «كان» تتأكد بالتكرار ثلاث مرات. فالذي كان أفرغ ذاته متواضعاً، واتخذ ما لم

يكن غير صائر اثنين، بل قَبِلَ على ذاته أن يصير واحداً من اثنين إلهاً وانساناً. الآخذ والمأخوذ طبيعتان اتحدتا في شخص واحد، وليس اثنين. لا تضللنا الوحدة، وحدة الإله والإنسان معاً. إنه الجليل العظيم، والعزيز القدير الحر المتصرف بحكمة في التنسيق والتدبير! تُرى ماذا دهاني حتى اسقط في تعبيرات بشرية؟ كيف يمكن أن يكون البسيط عظيماً؟ كيف يمكن أن يكون جليلاً مَن لا يُقاس كمياً؟ اغتفروا لي تعبيري. اني أتكلم بجهاز صغير، وآلة بسيطة، عن أمور كبيرة جداً! لكن عفوي على ضعفي يأتيني من ذاك «الكائن» الذي يقبل الضعفاء. لأنه ما دام قد قبل الجسد، فهو يقبل الكلام بشكل الجسد.

جموع غفيرة تبعته لشفائهم هناك حيث كان القفر أكبر. فلو أنه بقي في علوّه ولم ينزل الى المرضى. لو بقي ما «كانه» قابعاً في السموات العلى محتجباً عن عيون الناس (كما يريد له الذين لا يقبلون التجسد)، لو بقي بعيداً غير مقترب اليه، وغير محدود أو محصور في جسد مثلنا لكان الذين تبعوه نزراً يسيراً من الناس، بل قل أن موسى وحده هو الذي تبعه لأنه تعرف عليه حين استطاع أن ينظر قفاه حين شق الغمامة، وذلك بعد أن تحرر من الثقل الجسدي، أو بعد أن حد هوله وحواسه. كيف يمكن أن يبصر الله والله لطيف بلا جسد؟

– أنا لا أعلم كيف اسمي ذلك؟ – وهو جسد وينظر بعيون جسدية؟ أجل أفهم ذلك بما يأتي: بما أنه تواضع من أجلنا، وبما أنه تنازل (أسمي التواضع الافلال من المجد) لذلك صار مفهوماً ومدركاً.

عفوكم اذا تكلمتُ بشرياً – تنتقل الى الكلام عن الآلام – يأخذني الغضب بسبب ما يجري على مسيحي، الأمر الذي يجب ان تشعروا به أنتم أيضاً. أجل يأخذني الغضب والانفعال عندما أرى مسيحي يُهان – جلّ عن الإهانة – فيما يستوجب التكريم! قل لي: أيهون عندك المسيح لأنه تواضع من أجلك؟ ألأنه يهتم بالخليقة، وهو مخلوق؟ ألأنه يفتقد الذين هم أسفل يصير عندك تحت الزمن؟ مع ذلك يحمل الكل، ويقبل الكل! وأين هو العجب؟ قبل اللطم والبصاق، وذاق المر بسبب مذاقتنا. يقبل الآن أن نُرجم لا من أخصامه، بل منا نحن الذين نعتبر أنفسنا مؤمنين! لأن من يستعمل أسماء جسدية وأوصافاً جسدية، عندما يتكلم عمّن لا جسد له يكون كالأخصام ومثل الراجمين بالحجارة.

عفوك اللهمّ اننا لا نرجم بإرادتنا. لأننا لا نستطيع أن نتكلّم بطريقة أخرى، ونستعمل الوسائل التي نملكها. نسميك كلمة، وأنت أسمى من الكلمة. نسميك نوراً، لا لأنك

تصبح مُلوَّثاً بحواسنا، بل لأنك تنقي المادة الخبيثة البطالة. نسميك مُذْبة لأنك تقطع وتفصل الشر عن الخير. نسميك مذراة لأنك تنقي البيدر، كل ما هو خفيف، وتذريه الرياح بطرد بعيداً. وكل ما هو ثقيل يوضع في الأهراء السماوية. نسميك فأساً لأنك تقطع النبتة العديمة الثمر، وتجتث أصول الخبث. نسميك باباً لأنك تسمح لنا بالدخول، وطريقاً لأنك تقودنا في الطريق الصحيح. وحملاً لأنك ضحيت بذاتك، ورئيس كهنة لأنك قدمت جسدك، وابناً لأنك ولدت من الآب. أراني أصبحت كيوحنا صوت صارخ في البرّية التي كانت قاحلة. أما الآن فصارت مليئة بالأدمين.

ولكن فالأعد الى ما قلته. لقد تبعه جمع غفير لأنه اختي بمعرفة على خطايانا. ماذا يقول الانجيل بعد ذلك؟ اقترب منه الفريسيون مجربين وقائلين: أيجوز للانسان أن يطلّق امرأته لأقل علة؟ أترى يحتاج مفسرو الناموس الى معلمين؟ لم يكفه الصدوقيون الذين ضايقوه بمسألة القيامة، ولا الناموسيون المحاولون التوسع في معرفة الكمال، ولا الهيرودسيون ولا أصحاب الجباية، ولا السائلون عن السلطة، بل يسأله واحد عن الزواج، وهو خالق الزواج، وخالق الجنس البشري من المبدأ الأول: فأجابهم المسيح قائلاً: ألم تقرأوا في الكتاب أن الذي خلقهم الله ذكراً وأنثى خلقهم منذ البدء. ونحن نعلم أن المسيح كان يجيب على بعض الأسئلة، ويخرس أصحابها. فعندما سئل بأي سلطان تفعل هذا؟ أجابهم بسؤال آخر من عنده: معمودية يوحنا أمن السماء كانت أم من الأرض؟ بهذا السؤال الجواب معاً كمَّ أفواههم، وقيد ألسنتهم وأقدامهم وأيديهم. ونحن إذا تشبهنا بالمسيح نستطيع أن نلجم ألسنة الذين يحاربوننا بالمجادلة فقط مستعملين معهم حكمة المسيح. فعندما تسمع سؤالاً معقولاً، فلا تحاول أن تتهرب من اعطاء الجواب الحاضر المعقول.

فلنبحث السؤال الذي يطرح عن تطليق المرأة. إن الناموس الذي يعاقب المرأة وحدها دون الرجل هو ناموس غير مستقيم وغير عادل. لماذا يعاقب الأنثى ويغفر للرجل؟ لماذا يعتبر المرأة زانية إذا تركت مخدع زوجها ومهينة له، ولا يعاقب الرجل إذا زنى مع امرأة؟ أنا أرفض هذه الشريعة، وأحارب هذا العرف. والذين وضعوا هذه النواميس كانوا رجالاً لا نساءً لذلك جاء الناموس ضد النساء وليس الله بفاعل شيئاً من هذا. إن الله يقول: أكرم أباك وأمك فتنال السعادة طول عمرك. واحدٌ هو خالق المرأة والرجل وكلاهما من جسد واحد وصورة واحدة. وناموس واحد يجري عليهما: موت واحد وقيامة واحدة وواجب البنين واحد نحو الأب والأم.

كيف تطلب من المرأة أن تكون حكيمة، وأنت لا تقابلها بمثل ما تطلبه منها؟ كيف تسنّ شرائع مختلفة لجسد متساوٍ مع الآخر وله ذات القيمة؟ أخطأت حواء وأخطأ آدم. لم يظهر أن الواحد كان أقوى من الآخر أو أضعف من الآخر. إن المسيح وضع كليهما بطريق الخلاص. صار انساناً من أجلهما معاً. صار للرجل كما صار للمرأة.

جاء من نسل داود. أتعتقد أنه لأجل هذا يُكرِّم الرجل؟ بل قل انه ولد من البتول مَن هو فوق النساء. يصيران كلاهما جسداً واحداً. وهذا الجسد له الكرامة الواحدة. ان بولس الرسول يشرع بمثاله: «أنا أقول هذا بالنسبة إلى المسيح والكنيسة». جميل أن تحترم المرأة المسيح عن طريق الرجل، وجميل ألاّ يهين الرجل الكنيسة عن طريق المرأة. على المرأة ان تحترم رجلها لأنه عليها أن تحترم المسيح. ويجب على الرجل أن يحب امرأته كما أحب المسيح الكنيسة. وعلينا أن نبحث الآية بعمق أكثر.

هل تحصل على السمن، ابحث، فقد تجد شيئاً شافياً كافياً. يظهر لي أن المقصود هنا منع تعدد الزوجات. لأنه ان يكن هناك مسيحان فليكن هناك رجلان وامرأتان. ولذا كان هناك مسيح واحد، رأسٌ واحد للكنيسة، فليكن هنا جسد واحد. الناموس يبيح الطلاق لأي سبب. اما المسيح فلا يجيزه لكل سبب. يسمح بطلاق امرأة زنت. أما الأسباب الأخرى فيطلب أن نبحثها بتمحيص وتدقيق. المسيح يسمح بطلاق الزانية لأنها تفسد العائلة. أما الأمور الأخرى فتقع تحت سلطان العقل والحكمة. اذا رأيتها تتبرج، فردّها الى الطبيعة والبساطة. واذا سمعتها تتكلم بدون تعقل فأرشدها. واذا رأيتها تضحك ضحكة لا تجمل فيها، فاجعلها تخجل من ضحكتها. واذا لاحظت أنها تبذّر في الصرف، او تشرب الخمرة فأعدها الى صوابها. واذا ذهبتْ الى مكان لا يليق، فأعدها بمحبة وانصح لأنها قد تجهل المخاطر التي تتعرض لها. واذا التفتت الى هنا وهناك فاردعها. لا تعاملها بقسوة، او تنفصل عنها لأن ما ينتظرها مجهول بالنسبة لك ولها. «وإن نبع الماء لك ولا يشرب منه احد غيرك» و«عصفورك الجميل وغزالك المحبوب فليتبعاك في مسيرة حياتك» اذا شردت زوجتك فأنت تدفعها للشرود.

ماذا يقول الفريسيون: هذا الكلام قاسٍ بالنسبة لهم، حتى الكلام الجيد لم يكن يعجبهم آنذاك كما لا يعجب الفريسيين اليوم أن الانتساب لا يحدد هوية الفريسي، بل الذي يحدد هذا الانتساب الى فئة معينة، انما هو المسلك. هكذا أصنف الأشوري والمصري، ومن يقف الى جانب الفريسيين بتفكيره هو فريسي. ماذا يحدث مع الفريسيين؟

اذا كانت الأمور هكذا فيما يتعلق بطلاق المرأة فالأفضل أن لا يتزوج الانسان. الآن تعرف ايها الفريسي أن الأفضل ان لا يتزوج المرء؟ سابقاً لم تكن تعرف ذلك؟ ما عرفت ذلك عندما كنت ترى الأرامل والأولاد الأيتام، والميتات الفجائية، والأحزان التي تلي الأفراح كأنها نتائج أحلام، وتبني الأولاد الفقراء والأطفال المولودين أمواتاً، وموت الأمهات أثناء الولادة، وكل المهزلة، وكل المأساة التي ترافق هذه الأمور. لم تكن تعرف هذا أن عدم الزواج أفضل.

أما المسيح فيحلل الزواج «لأن الزواج مكرم ومضجعه بغير دنس». إنه شريعة العقلاء، لا شريعة ذوي الأهواء الذين يجعلون همهم في شهوات الجسد. عندما يكون الزواج وحدة زوجين، ورغبةً في انجاب البنين لخلافة الجنس البشري، فالزواج صالح، لأنه يكثر الأجيال السالكة بحسب وصايا الرب. أمّا اذا اتخذ الزواج مثاراً لشهوات الجسد ورغباته، واذا كان الزواج درباً مفروشة بالأشواك، أشواك الخلافات، وطريقاً الى الشر والفساد، فمن غير الموافق، في رأيي أن يتزوج الانسان.

حسنٌ هو الزواج، لكني لا أستطيع أن أقول إنه أفضل من البتولية، لأن البتولية لن تكون حسنة اذا لم تكن أحسن مما هو حَسَن. لا ينزعج أحدٌ منها أيها المتزوجون. علينا أن نصغي ونخضع للرب ولا للبشر. مع ذلك، فلترتبط الواحدة مع الأخرى، البتول والمتزوجة، ولتكونا واحداً أمام الرب، ولتفاخر الواحدة الأخرى. لولا الزواج لم يوجد رجال ولا نسلٌ بشري. والبتول (الراهبة) أيضاً تأتي من الزواج. أكرم أمك وكل امرأة لأنها عروس المسيح. الجمال الخارجي لا يختفي، أما الجمال الباطني، فالله يراه «كل مجد ابنة الملك داخلي وتزيّن بزينة الذهب» اي بالأعمال والاهتمامات النظرية. المتزوجة أيضاً، فلتلتصق بالمسيح على نسبة ما. أما البتول فكل حياتها للرب. لا ترتبط الأولى بالعالم كلياً، أما الثانية فلا ترتبط مطلقاً بالعالم. لأن ما هو جزئي للمتزوجة هو كلي للبتول. فاذا وقعت على الحياة الملائكية، واخترت البتولية، فلا تنحدرْ الى عالم الجسد. لا تسقطْ في المادة، ولا تتحدْ بها حتى لو بقيت بغير زواج. العين التي تزني لا تحافظ على العفة، واللسان الزاني يتحد بالشيطان. الأقدام التي تسلك بغير نظام تسوق الى المرض والى المخاطر. فليبقَ عقلنا بتولاً. لا تحلم ولا تتخيل ولا تختزن في داخلك صور زناة لأن الصورة تشكل قسماً من الزنى. لا تنصبْ في داخلك تمثالاً للأشياء البغيضة.

لقد قال يسوع للجموع «انكم لا تستطيعون هذا كلكم إلا من أُعطي لهم» أرأيت سمو هذا؟ شيء قليل ينقص حتى يظهر كاملاً غير منظور. كيف لا يكون ملائكياً من

ليس يحيا بالجسد، وهو في الجسد؟ الجسد يرتبط بالعالم، أما الفكر فيرفع الى الله. الجسد أعطي ثقلاً، أما الفكر فأعطي أجنحة. الجسد أسرٌ، أما الفكر فهو حر.

فانجهي باندفاع نحو الله بكل روحك أيتها البتول. وكذلك أوصي الرجال والنساء، ولا تعتبري خيراً ما يعتبره الآخرون. فلا الغنى، ولا الحسب، ولا العرش الملوكي، ولا السلطة، ولا الجمال الظاهر، كل هذه تتغير وهي ألعوبة بيد الزمن والمرض. اذا كانت كل رغبتك قد أفرغت في الله، واذا لم يصبح ارتباطك بما هو فاسد، وبما هو مجهول علواً، فهذا يعني أنك جُرحت عميقاً بالسهم المختار، وعرفت جمال الختن، بحيث تستطيع أن تختزن الرؤية المخْتَنية، وأن تنشد الرب حلواً وجديراً بالمحبة.

أترين المياه الجارية في الأنابيب الرصاصية، انه بسبب الضغط الذي يقع عليها من كل جهة، وبما انها تسير نحو وجهة معينة، كثيراً ما تتجاوز طبيعة المياه فتندفع الى فوق بضغط المياه الخلفية. هكذا اذا دفعك الشوق، والتصقت كلياً بالله ستتقدمين الى الأعالي. ولن تسقطي الى تحت ولن تغرقي، بل ستبقين كلياً في المسيح حتى تَريْ المسيح ذاته عندئذ. صوني ذاتك بعيدة عن ذميم القول والعمل وعَبَث الحياة والفكر والحركات. ان الشيطان يراقبك كيفما اتجهت ليكتشف مكان الضعف فيك ليضربك ويصرعك. كلّما كنت نقية، كلما ازداد جهداً في أن يوسخك. لأن الثوب الابيض النقي تظهر عليه بسهولة بقع الوسخ. لا تجذِبنّ عينك أعيناً أخرى، ولا يضحكنّك ضحك الآخرين. لأن من تجرفه الأهواء وتخطفه شيئاً فشيئاً، لا يشعر بذلك في الوقت الحاضر، الا أنه يكتب في قائمة الأسرار لكشف نتائج المستقبل.

عندما تسمع قول الانجيل: «الا للذين أعطي لهم» لا تتشبه بالهراطقة وتأخذ بالكلام عن الطبائع الروحية والترابية والمتوسطة بينهما او المتنقلة بين المنزلتين. فهناك من يفكر تفكيراً شاذاً وشريراً، ويضع الناس في ميزان الأقدار العمياء من غير ان يميز اختلاف المواهب والامكانات عند كل الناس والفروق بينهم. ولذلك عندما تسمع قوله: «الا للذين أعطي لهم» يجب ان تضيف أنه يعني لمن جاءتهم الدعوة وتجاوبوا مع الدعوة. وعندما تسمع القول: «لا تتوقف الأمور على من يريد ويسعى، بل على الله الذي يهب الرحمة» عساك أن تفهم الشيء ذاته. انت تريد وتسعى، والله الخالق الوهاب والمعطي الصالحات، هو يهدي ويوفق.

«وان لم يبن الرب البيت، فباطلاً يتعب البناؤون» «وان لم يحرس الرب المدينة، فباطلاً تسهر الحراس». أنا أعرف أن السبق كله ليس لمن يعدو سريعاً، ولا الظفر كله للأقوياء،

ولا النجاة وبلوغ الميناء للذين يعرفون السباحة جيداً. بل كل شيء يتعلق بالله، وهو الذي يهب الظفر والذي يوصل القارب الى الميناء. فأرجع، يا هذا، كل شيء الى الله مهما تكافح وتجاهدْ فانك بحاجة اليه تعالى.

لقد طلبتْ أم ابني زبدى أن يجلس أحد ابنيها عن اليمين، وأحدهما عن اليسار في مجد يسوع. كانت مدفوعة بمحبتها لابنيها، ولا شيء يعادل محبة الأم لأولادها (أقول ذلك لأوصيكم بالوفاء لأمهاتكم) أجل، طلبت ذلك جاهلة خطر الطلب. ماذا كان جواب المخلص؟ لقد سأل أولاً اذا كانا يستطيعان أن يشربا الكأس التي يشربها هو؟ وقبل جوابهما الايجابي (لأنه عَرَفَ بسابق علمه انهما يموتان مثله موت الشهادة) وماذا قال: «أما الكأس التي أشربها أنا فتشربانها، واما جلوسكما عن يميني وعن يساري، فليس لي أن أعطيه إلا للذين أُعد لهم من أبي». ما هذه النتيجة؟ ما قيمة العمل اذن؟ ما قيمة الوعظ والتعليم؟ ما قيمة الجهاد في الأصوام والأسهار والتقشف والدموع؟ ما قيمة هذه الأمور اذا كان الخلاص بسابق الاختيار؟ على هذا اخشى ان يبادر الى اذهانكم فكرٌ غير معقول ولا أساس له، وهي النظرية القائلة بسابق الوجود والحلول في الأجساد، وتناسخ هذه الأرواح بانتقالها من جسد الى جسد. والحكم عليها بالنسبة الى سالف حياتها الماضية.

اما الذي يأتي من الارادة الحرة فهو شيء محمود. أي فضل للنار اذا اشتعلت؟ لا فضل لها لأنها تعمل الحريق بطبيعتها. واي فضل للماء اذا جرى الى اسفل؟ لا فضل له لأن خاصته الطبيعية هي هذه. أي فضل للثلج اذا كان بارداً، أو للشمس اذا أدفأت وأنارت؟ انها بالطبيعة كذلك. ما هي حالة الأفضل او الحالة الفضلى؟ انها الحالة التي فيها تجاهد ضد أهواء الجسد الطبيعية، وتتجنّح عقلياً، وتصير معنوياً وفوق الجسد. تلك هي الحالة الفضلى.

اني أطلب من الخصيان المولودين بالطبيعة خصياناً، وبالطبيعة لا يستطيعون الزنا، اطلب منهم شيئاً آخر: لا تزنوا مع الالوهة ولا تهينوا المسيح الذي تزوجتم به. ولا تعتبروا الروح القدس مساوياً لكم وخلقة لأنكم صرتم به كاملين. يقول بولس الرسول: «إني اذا أردت أن أرضي البشر فلست عبداً للمسيح» واذا عبدت المخلوقات، فلن أُسمى مسيحياً. وما قيمة الاسم المسيحي؟ أليس هو لأن المسيح اله؟ اني أكرم بطرس مثلاً، ولكن لا أُسمّى بطرسياً، وكذلك أكرم بولس ولا أُسمى بولسياً. أنا لا أرضى أن اتخذ اسماء بشرية ما دام ان الله خلقني. وهكذا أنت تسمى مسيحياً لأنك تعتبر المسيح الهاً.

فيجدر بك، والحالة هذه، ان تسمى مسيحياً وتحافظ على الاسم وعلى الالتزام. أما اذا اتخذت الاسم المسيحي لأنك تحب المسيح، فان التسمية لا تختلف عن التسميات المترتبة على مهنة ما وما الى ذلك.

انظروا الى الذين يترددون الى ساحات سباق الخيول، الذين يتخذون اسماء لهم من الألوان والفرق التي تروقهم، وانتم تعرفون هذه الاسماء ولا حاجة الى ذكرها. فاذا سُمّيت يا هذا مسيحياً على هذا النحو، فهذه التسمية تافهة مهما فاخرت بها. اما اذا دعيت مسيحياً على اساس ايمانك بالمسيح أنه إله، فعليك ان تبرهن عملياً ما تؤمن به. فاذا كان الابن خليقة فانت عابد أيضاً خليقة بدلاً من الخالق. واذا كان الروح القدس خليقة أيضاً، فباطلاً هو ايمانك وعمادك. ان الثالوث الأقدس هو جوهرة متساوية من كل جوانبها، وتلمع أيضاً من كل الجوانب. فاذا أصيب قسم من هذه الجوهرة فان روعة الحجر الثمين تختفي. وهكذا فعندما تنزع الكرامة عن الابن لتكرم الآب، فان الآب لا يقبل تكريمك، والآب لا يمجد بخفض كرامة الابن. اذا كان الابن الحكيم يكرم اباه، أفليست بالأحرى كرامة الابن من كرامة الآب؟ اذا اقتنعت بهذا فلا تمجد الآب بالإقلال من تكريم الابن، ولا تكرم الابن بالإقلال من تكريم الآب. واذا قللت من تكريم الروح القدس، فان الابن لا يقبل تكريمك له. فاما ان تكرم الثالوث كله، واما ان تقلل من قيمة الثالوث كله حتى تكون متديناً مؤمناً صحيحاً عاقلاً مخلصاً مع نفسك وعقيدتك.

أنا لا اريدك ان تكون نصف مؤمن، بل انما أريدك مؤمناً كاملاً. عذركم أيها المؤمنون على اندفاعي وحبي وحماسي: إنما أتألم من أجل الذين يحرقون الايمان.

الخطيئة المتعلقة بالجسد لا تسمى وحدها زنا ودعارة بل كل خطيئة مهما تكن، وعلى الأخص مخالفة الشريعة الالهية. كيف تبرهن ذلك؟ ربما تحاول ان تعرف هذا الأمر. يقول كتاب المزامير: «لقد زنوا بأعمالهم» (مز ١٥ : ٣٩). أرأيت عملاً زنائياً مخزياً؟ كهذا؟ «وزنوا عند كل أكمة، وتحت كل شجرة» (مز ٣ : ٦). أرأيت دعارة كهذه؟ لا تزنِ تقول الوصية. ولكن اذا زنيت بروحك، وانت عفيف بالجسد فذلك زنا افظع. أين حسن ايمانكم؟ لماذا تتجهون كلكم الى الأقبح. من اجل زنا الجسد جانبوا مخادع النساء فتسلموا. اما زنا الروح فيجر الى الاثنين كليهما زنا الروح وزنا الجسد.

والآن أتريدون أن أتابع كلامي، أم أنكم عييتم من السماع؟ لنتابع الكلام قليلاً عن معنى الخصيان، وما هم اهل، من أجله الى المديح والثناء فلا يغير ظاهر التسمية حقيقة

المعنى المقصود. هناك خصيان ولدوا خصياناً وخصيان خصاهم الناس، وخصيان خصوا أنفسهم. نعم هناك خصيان خصوا أنفسهم، من يستطيع سلوك هذا السبيل فليتقدم ويسلك. ففي هذا السبيل الوصول الى أمور سامية في المجال الروحي. أما اذا عنى الكلام خصيان الجسد فقط، فذلك معنى تافه جداً، وغير جدير بالتحدث عنه، فيما نحن نتلمس معنى روحياً. قد يكون هناك من الناس من يميلون بطبيعتهم الى الخير والفضيلة والعفة. وعندما أقول الميل بالطبيعة لا أقلل من قيمة الاختيار والإرادة الأمر الذي يحول الميل الطبيعي الى عمل. هناك أيضاً من يقيهم العقل بعد ان يتحرروا من الأهواء بالصبر على العالم وعشرة الناس. هؤلاء، كما أرى، هم الذين خصاهم العالم مثل المعلم المربي الذي يفصل الخير عن الشر خالقاً منهج الحكمة الروحية. المعلمون بتروا الشر والتلاميذ قبلوا هذا البتر.

يجب ان نقطع الأهواء من أنفسنا (لئلا ينبت جذر، ويسمو ويفسد عب ١٢: ١٥). ولنتبع الصورة، ولنحترم الرسم المرسوم والحظة المنتهجة. لننزع الأهواء الجسدية والنفسية، لأنه بقدر ما هي النفس أثمن من الجسد، بقدر ذلك تحتاج النفس الى التنقية أكثر من الجسد. فاذا كانت نظافة الجسد شيئاً خليقاً بالمدح والثناء، فلتفكر كم هي أعظم وأسمى نظافة النفس!

هذا ما أنصح به العلمانيين، وما أوصي به الشيوخ وأصحاب السلطة والتوجيه والتربية. ساعدوا كلمة الانجيل على الفعل والانتشار أنتم الذين أخذتم من الله امكانية المساعدة. انه أمر هام أن تمنعوا القتل، وتعاقبوا على الزنى، وتردعوا السارق، ولكن الأهم ان تفرضوا الايمان والدين والتقوى وان تقولوا الكلمة الصحيحة. لن يكون لكلامي القوة اذا طبقت القانون، بل اذا انا جعلت القانون سائداً على النفوس باقتناعها واختيارها.

يبقى علينا شيء واحد لنعلمه: هو الصلاة من أجل الحاضرين. أيها الرجال والنساء معاً، الأسياد والمسودون والشيوخ والشباب مع الأحداث والعذارى. أيها الناس من كل الأعمار اصمدوا في وجه الشر واصبروا وصابروا وثابروا على الفضيلة والصلاة، ولنقدم الاكرام والسجود، انا قبل الجميع وآخر الجميع لربنا الآن والى دهر الداهرين آمين.

الميلاد

المسيح ولد فمجدوه. المسيح أتى من السموات فاستقبلوه. المسيح على الأرض، فارتفعوا. رتلي للرب أيتها المسكونة كلها. ولكي اعبر بكلمة واحدة بلسان الأرض والسماء اقول: ليكن فرح في السموات وما اظلت، والأرضين وما أقلت. لأن السماوي صار ارضياً. المسيح تجسد. فتهللوا بخوف وفرح: خوف من الخطيئة، وفرح في تحقق الرجاء.

المسيح ولد من البتول فتعقّلن ايتها النساء لكي تصبحن امهات للمسيح. من لا يسجد ويركع للمولود منذ البدء؟ من لا يمجد الظاهر لنا أخيراً؟

أيضاً يبدد الظلام، وأيضاً يظهر النور، وأيضاً تُعاقَب مصرُ بالظلام، وأيضاً يستنير اسرائيل بعمود النار. الشعب القابع في ظلمة الجهل فليبصر نور الإدراك العظيم. القديم عبَر، وكل شيء صار جديداً. الحرف يتراجع، والروح يبرز. الظلال تجوز، والحقيقة تقبل وارفة، ملكيصادق يتحقق. ومَن لا ام له من جهة ابيه يصير بغير أب من جهة أمه، النواميس الطبيعية تنحل، فمن اللازم ان يبرز الملأ الأعلى. المسيح يأمر فلا نقاومه. لتصفق فرحاً كل الأمم كأنها في محفل واحد.

لأنه ولد لنا صبيٌ واعطي لنا ابنٌ رئاسته على عاتقه، لأنه يحمل الصليب ويرتفع عليه. ويدعى اسمه رسول الرأي العظيم. واذا ما هتف يوحنا قائلاً: اعدوا طريق الرب، فأنا سأنادي في الورى بمعاني هذا اليوم: غير المتجسد يتجسد، والكلمة يتحد بالأرض! غير المنظور يُنظر، وغير الملموس يلامس. ومن لا بدء له يبتدىء، وابن الله يصير ابن الانسان!

يسوع المسيح هو هو امس واليوم والى جيل الأجيال. فليتشكك اليهود، وليسخر اليونانيون، وليهذر الهراطقة ما شاؤوا أن يهذروا. واذا لم يكونوا قد رأوه صاعداً الى السماء، فلا بد أن يروه نازلاً من السماء ليدين العالمين. وتلك الساعة آتية لا ريب فيها. اما اليوم فنحتفل بالميلاد الالهي، المسيح كان قبلاً ودائماً. وهو الكائن الأزلي من الكائن

الأزلي، وهو، له المجد، فوق كل سبب وقبل كل كلمة. لأنه لا توجد كلمة تسمو عن الكلمة الحقيقية. ومن أجلنا تجد فيما بعد ليهب لنا الوجود السعيد الذي ابتعدنا عنه بسبب خطيئتنا.

هذا هو معنى الاحتفال، ولهذا نعيد اليوم. اننا نعيد لمجيء الله الينا لكي نعود نحن الى الله، لنخلع الانسان القديم ونلبس الجديد. وكما متنا في آدم سنعيش في المسيح. فلنولد معه ونصلب، وندفن، ونقم بقيامته. علينا أن نعود أدراجنا ونعمل مشقة الطريق العكسية التي تقود الى الخلاص، وكما أنه من الخيرات الصالحات جاءت الحزنات، كذلك نعود الى الخيرات عن طريق الحزنات، لأنه حيث تكثر الخطيئة تزداد النعمة. فاذا كان المذاق الحلو قد جلب علينا الديونة فأولى بآلام المسيح ان تكون أشد وأعظم في تبريرنا من الديونة.

فلنعيد اذن، لا بمهرجانات صاخبة، بل بأسلوب الهي. لنعيده لا بطريقة عالمية، بل بطريقة غير عالمية. لا بما يخصنا، بل بما يختص بالرب. لا بما فيه مرضنا، بل بما فيه عافيتنا، لا بما يتعلق بالخليقة، بل بما يتعلق باعادة خلقتنا.

فكيف اذن نعيد وكيف يجري هذا التعييد؟ لا نزيّن النوافذ والشرفات، ونتحلق في حلقات الرقص. لا نزين الطرقات لبهجة العيون. ولا نطرب أسماعنا بالأغاني. لا نجعل شمنا شماً انثوياً، لا نفسدُ ذوقنا. ولا نلتذ سمعنا. ولا نجعل الضعف أمام مداخل الخطايا في اللباس المترف الناعم، وهو تافه لا قيمة له. لا نتحلى بالأحجار الكريمة والذهب الوهّاج. لا نستعمل الأصباغ التي تزيف الجمال الطبيعي. فهذه انما وجدت لتزيف الوجوه. لا ننصرف الى فاخر الطعام والشراب والسكر لأنها سبب ثورة الأهواء والعربدة الجسدية. ولأن البذور الشريرة تنبت أغراساً شريرة. لا نفترش الفرش الوثيرة الناعمة، ولا نخدم الشهوات العابرة. لا نقبلُ على الخمرة العابقة برائحة الزهور مع ما يفتنُ به الطهاة من شهيّ الطعام والحلوى. لا ندّهن بالعطور والأطياب. ولا نقرب في الأعياد من الأرض زبلَها ونفاياتها، ومن البحار رغوتها وأزبادها (هكذا اسمي انا هذه النقادم). ولِمَ النَهمُ في الشهوات، وهي لنا وملكٌ ايدينا؟ ولِم الفسق والفجور؟ وهو زائد عن حاجتنا، وكلنا مسئولون في الشهوات والرغائب؟ فاننا كلنا من طينة واحدة وعجنة واحدة؟ ولا يمكن ان يشتهي الواحد أكثر من الآخر؟

لندعْ كل هذا للوثنيين ومهرجاناتهم الدينية. هذه تسمّى آلهة عندهم. اجل، آلهة تفرح بالذبح والضحايا، وتقدّم لها العبادة بالمآكل والمشارب، لأنّ أصحابها ماكرون مبتكرون

عبثاً وغشاء كهنة وسدنة[١] أشرار لشياطين. أما نحن الذين نعبد الكلمة، فاذا كان لنا ان نستمتع بشيء، فانما نستمتع بالناموس الالهي استمتاعاً عقلياً بعرض أخبار القدامة والقديسين المغايرة لتلك الترهات والأساطير، وخصوصاً في هذا العيد العظيم الذي نورد فيه كل ما هو من الواقع، وكل ما يقربنا من عيد هذا الاحتفال الذي جمعنا فيه اليوم حتى يكون الاستمتاع طبيعياً واقعياً.

إنكم تبغون مني (وأنا اليوم الداعي الى المأدبة) أن أخاطبكم أنتم الضيوف الكرام، على قدر ما استطيع. وساخاطبكم بكل رغبة وطيب خاطر لتدركوا كم يستطيع هذا الغريب ان يطعم أصحاب الحل. وكيف يستطيع هذا البسيط ان يغذي أبناء المدينة. وهو البعيد عن متع كل المستمعين. هذا الفقير الذي لا يملك سقفاً خاصاً به، كما يملك أولئك من ثروة وغنى.

أما بعد، فأرجو أن تنقوا أولاً العقل والذهن والسمع أنتم الذين تحبون هذه الأبحاث الإلهية (والكلام إلهي ويستهدف الله)، لكي تغادروا المكان بعد ان تكونوا قد استمتعتم بالواقع، وتزودتم بالزاد الالهي الذي لا شبع منه، ولا يفرغ ابداً. سأجعل محاضرتي كاملة بعون الله، وفي الوقت نفسه مختصرة بحيث لا يعز عليكم بعض الايجاز فيها، ولا تثقل عليكم اطالتها. بل ربما عمدت الى الإطالة بغية الايضاح، وبغية نفعكم.

(١) سدنة جمع سادن وهو خادم الهيكل في القندلفت.

المعمودية المقدسة

لقد احتفلنا أمس بعيد النور البهي (وكان من اللازم أن نقضي هذا العيد الخلاصي، بما يناسبه من الفرح، اكثر مما يفرح الناس الآخرون في أعيادهم المعتادة: أعياد زواجهم أو ولادتهم، أو الأعياد الشخصية، أو أعياد بلوغ أطفالهم، أو سكنى البيوت الجديدة، أو الأعياد السنوية لأي كان من وقائع حياتهم). أما اليوم فسنتكلم بما يتيسر لنا عن المعمودية والنعمة الكبرى المنحدرة علينا بها، وعن احساناتها العظيم الينا. لقد فاتتنا فرصة التكلم في الوقت المناسب، أمس[1]، بسبب طول الخدمة. ونحن نعلم ان اطالة الكلام معاداة للأسماع مثل زيادة الطعام للمعدة. ويليق بكل واحد أن يحسن الإصغاء الى الكلام المفيد الباقي، وأن يتقبل هذا الكلام بمروءة وهمة في موضوع جليل الشأن هكذا ولاسيما ان هذا الخطاب انما هو ضوء نلقيه على هذا الموضوع الخطير لنحس بقوة السر المقدس.

اننا نخرج من الظلمة الى النور، ومن العدم الى الوجود الحي الكامل الخالد في ولادات ثلاث: الولادة الجسدية وولادة المعمودية، وولادة القيامة. الأولى من هذه الولادات هي بنت الشهوة والليل والعبودية. والثانية هي ولادة هذا النهار، الولادة الحرة الناهية بالشهوات لأنها عنانة تقطع بها غرلة الطبيعة البشرية كلها، وتعيدنا الى الحياة الفضلى السامية. أما الثالثة فهي قيامة رهيبة، بنت لحظة، لأنها تجمع في طرفة عين كل الخلائق أمام خالقها لكي تؤدي حساباً عن حياة عبوديتها وتصرفها، اذا كانت كل العمر، تابعة وعبدة لشهوات الجسد، أو اذا كانت قد ارتفعت مع الروح وقبلت باحترام عطية اعادة الولادة. وقد ظهر مسيحنا على الأرض ليكرم هذه الولادات جميعاً بوجوده. أما الأولى فبنفخة الحياة الأولية التي أعطاها للانسان، وأما الثانية فبتجسده وبمعموديته

---

(١) ففات الوقت، بسبب العيد الكبير وطول الخدمة فلم يبق مجال للتكلم، وبعد مرة نقلت هذه الخدمة المطولة من اليوم السادس من ك٢ الى اليوم الخامس. وهكذا صار يحسن للناس أن يحتفلوا بوقت حر، تمت خدمة الساعات في اليوم السابق للعيد (تعليق الناشر) باليونانية.

التي اتخذها[1]. وأما الثالثة فبقيامته التي صنع بها الوجود الجديد. وكما أنه البكر بين الاخوة الكثيرين فله أن يكون البكر بين الأموات.

ومن هذه الولادات الثلاث لن تدرس الآن الأولى والثالثة ولكننا سندرس متوسطة الثنتين التي هي ضرورية ولازمة لنا في هذا العصر بل في هذه الساعة التي يتخذ العيد فيها اسم عيد النور. فالاستنارة (المعمودية) هي ضياء النفوس وبهاؤها، وتغيير الحياة، هي قضيتنا مع الله. المعمودية (الاستنارة أو الهداية) هي مساعدة ضعفنا، ودفع بهيميتنا الى الخارج، واتباع الروح القدس، وشركتنا مع الابن. هي قيام الخليقة الواقعة، وإغراق الخطيئة، واضلال الظلمة، والمشاركة في النور. الاستنارة هي عَرَبَةٌ تنقلنا الى الله، وتغرُّبٌ مع المسيح، وسَنَد للايمان، وكمالٌ للعقل، ومفتاح ملكوت السموات، وانتقالٌ الى الحياة، وفك القيود، والغاء العبودية، وهي أخيراً الحالة السويّة التي تحل كل مركّبات الشذوذ. أجل هي المعمودية — وماذا أعدد أكثر من ذلك —؟ هي أجمل عطايا الله وأجلها قاطبةً. وكما نقول: قدس الأقداس، (ونشيد الأنشاد بمعنى أعلى التفضيل) كذلك تكون المعمودية أقدس من كل شيء آخر من مقدمات المسيحية.

ويسمّى هذا السر بأسماء كثيرة ومختلفة مثل تسميات المسيح الذي وهب هذا السر. وذلك إما لأن هذا السر هو منبع الفرح، وقد سبانا حسنهُ وبهاؤه (لأن من زاد عشقهم للمعشوق بعجبهم أن يتلاعبوا بأسماء يسمون بها المعشوق)، وإما لأن الاحسان المتنوع لهذا السر أوحى لنا بأسماء كثيرة. فنحن نسميه: نعمة، وعطية، ومعمودية، ومسحة، واستنارة، ووشاح الخلود، ومغطس اعادة الولادة، وختم الروح القدس وكل شيء آخر فائق القيمة. فنحن نسميه نعمة من إنعام الله بالمقابلة الى تقصيرنا وما يتوجب علينا نحو الله. ونسميه عطية لأنها تعطى لنا من غير أن نقدم شيئاً، ونسميه معمودية لأننا به تُدفَن (مع المسيح) في ماء الخطيئة. ونسميه مسحةً لأنه ملوكي ومقدس (والمسحة يُمسح بها الكهنة والملوك). ونسميه استنارة لأنه ضياء وبهاء، ونسميه وشاحاً لأنه يستر حياءنا، واغتسالاً لأنه يغسلنا من أوساخنا، وختماً لأنه يحفظنا، وهو صحة الرب ونحن الموسومون بها. فعندما نعتمد يفرح معنا الملأ الأعلى. الملائكة تمجد هذا السر لأنهم من عالم الضياء

(1) «بالجسد والمعمودية» يعتبر النزينزي التجسد والمعمودية شيئاً واحداً. ومن جهة أخرى، كان عيد «النور» (أو الأنوار) الذي فيه أُلقيَ هذا الخطاب، كان عيد النور وعيد الميلاد معاً. عيد الميلاد كان يقع في ليل الخامس الى السادس من كانون الثاني وكان يقال له «عيد الظهور» أعني ظهور الله على الأرض بواسطة ولادته من العذراء مريم. تعليق الناشر باليونانية.

والبهاء. والمعمودية انما هي صورة من صوَر الغبطة التي هناك. ومهما نشأ أن نقول، نبقَ في شأو التقصير عن هذا السر وإجلاله.

ان الله، وهو النور الأعلى الذي لا يُبلغ اليه ولا يعبّر عنه، وهو الذي لا يستطيع العقل أن يدركه، ولا الكلام أن يحيط به، هو الذي ينير ويهدي كل طبيعة عقلية. وفضله على المعقولات كفضل الشمس على المحسوسات. وعلى قدر ما نتطهر، على قدر ذلك نتخيله ونتصوره. وكلما أمعنا في تصوره كلما أحببناه، وكلما أحببناه كلما فهمناه أيضاً. والنور الأول هو ذلك النور الذي نراه في أقانيم الآب والابن والروح القدس في طبيعتها الواحدة المشتركة، واشعاعها الواحد في البهاء المشترك. ودون حجاب النور الأعلى يأتي النور الأدنى الذي هو نور الملائكة الذي هو بعض الفيضان من النور الأعلى والمساهمة فيه. ونور هذا الملأ الأعلى (الملائكة) يأتيها من اتجاهها دائماً نحو ذلك النور الأعلى وخدمتها له. ولست أدري اذا كان هذا الملأ يتقسمون فيما بينهم أجزاء مختلفة من الاستنارة بالألوهة على حسب تقدمهم ورتبهم التي يوجدون فيها، أو اذا كانوا (على العكس) يأخذون كل واحد منزلة حسب طاقة قابليته للاقتباس مما ينعكس عليه من النور الكلي1.

والنور الثالث هو الانسان، وهو الاعتبار الوارد عند من هم من خارج (الكنيسة). ويعتبرُ الانسان من عالم النور لأنه يملك في داخله قوة الفكر. وما نحن أيضا من يسمون الانسان نوراً أو نورانياً أو إلهياً. وهم الذين زاد اقترابهم من الله بالدرس والسلوك العالي. وأعرف نوراً آخر أيضاً به انقشع أو سقط حجاب الظلام الأول. وهو أول المخلوقات الحسية جميعاً أعني تلك الشعلة الدائمة (الشمس) التي تنير النجوم والكواكب وكل العالم من علُ.

ونوراً أيضاً كانت الوصية الأولى التي أوصيَ بها الانسان الأول (لأنه جاء في التكوين) ولأن وصية الناموس سراج ونور» (امث ٦:٢٣) وأيضاً يقول أشعيا «لأن أوامرك نور على الأرض» (اشع ٢٦:٩) وان يكن رئيس الظلام الحسود تسلّل وافتعل الشر. وهناك أيضاً نور الناموس المنقوش على الألواح والمعطى للناس على قدر القابلية للأخذ والاقتباس أعني به الناموس المكتوب، هذا الناموس الذي يظلل الحقيقة، وهو سر النور العظيم. وآية ذلك أن موسى حامل ألواح الشريعة تجلّى وجهه حتى لم يعد الشعب يستطيع أن ينظر اليه بغير القناع على وجه موسى.

ولنذكر في الكتاب مواضع أنوار أخرى: نور العليقة التي كانت تشتعل ولا تحترق. ونور عمود النار الذي كان يهدي اسرائيل ليلاً. ونور المركبة النارية التي خطفت ايليا النبي من غير أن تحرقه. والنور الذي أبرق للرعاة في ذلك الليل الذي فيه اتحد النور الأزلي بالنور المؤقت، ليلة ميلاد المسيح. ولنذكر أيضاً نورَ ذلك النجم الجميل الذي سار دليلاً هادياً المجوس الى بيت لحم وليكون في خدمة النور الأعلى الذي جاء الى العالم، أعني نور الألوهة الذي ظهر جزءٌ منه للتلاميذ على جبل تابور أشد وأبهر من أي نور يمكن أن تطيقه العيون البشرية. ولنذكر نور الرؤيا الذي أبرق حول بولس، وضرب عينيه بالعمى الذي شفى ظلام نفسه. وكيف ننسى نور المجد والبهاء الآتي من السموات الذي سينير المطهّرين في هذه الدنيا عندما «يتلألأ الصدّيقون كالشمس» ويقوم الله بينهم، وهم معه كملوك ومتألهين، ويرتب ويوزع مراتب الغبطة ودرجاتها. وأخيراً وما عدا كل هذه الأنوار، تعتبر نوراً، بصورة أخص، ضياء المعمودية التي نتكلم عنها والتي تحوي سر خلاصنا العظيم العجيب.

ان العصمة من الخطيئة هي: قطعاً، خاصة بالله وبطبيعته الأزلية الغير المركبة. لأن البساطة الالهية هي طبيعة سلام وبعيدة عن الشذوذ. ثم اني أتجرأ بأن أقول ان العصمة هي أيضاً من خاصية الملائكة، أو أن الطبيعة الملائكية تقرب من العصمة لأنها تقترب من الله. أما الخطأ فهو مركّب الانسان، وخاصّ بطبيعته السفلى المركبة، لأن التركيب هو أصل الشذوذ والفوضى. ولهذا السبب رأى الله ألا يدع الانسان بغير عون، وألاّ يهمله حين يوشك أن ينفصل عنه. بل مثلما أتى بنا من العدم الى الوجود، هكذا أعادنا خلقةً زاد فيها من التأليه والسمو على الخلقة الأولى. هذه الخلقة هي للمبتدئين والمريدين ختمٌ وعلامة. وأما للمتكاملين والناضجين في السن الروحية، فهي نعمة وعطية للنهوض بالصورة الواقعة بسبب الشر والخطيئة. وذلك لكي لا نيأس، وتزيد حالنا سوءاً، ونقع في القنوط نهائياً من جراء انحدارنا دائماً نحو الأسوأ، خارج دائرة كل خير وكل فضيلة، ونسقط «في عمق الشرور من الاحتقار» كما تقول الأمثال (٣:١٨). ولكن فلنقطع ما بقي من طريق العمر بمتلئين قوة وعزماً حتى نبلغ الى محطة الراحة بعد عناء السفر الطويل. هذه هي اذاً نعمة المعمودية وقوتها. وماؤها هنا ليس طوفاناً يغرقنا كما حدث قديماً، بل ماء مقدس يحقق التطهير من الخطيئة لكل واحد منا، والغسل الكامل من كل حمأة ولطخة علقت بنا من الشر والخطيئة.

وبما أننا من طبيعة مزدوجة أي من نفس وجسد، وبما أن الطبيعة الأولى غير منظورة (النفس) والثانية منظورة (الجسد)، فعملية التطهير هي مزدوجة أيضاً أي بالماء والروح.

وهكذا نتطهر بصورة منظورة جسدياً وبصورة غير منظورة روحياً، بالماء شكلاً ورمزاً، وبالروح حقيقةً، لأنه يقدر أن يطهر الأعماق. هنا الروح يأتينا منحةً إلى خلقتنا الأولى، ويردنا من العتاقة إلى الجدّة، ومن الحال التي نحن عليها الآن، إلى حال الإله، ويصهرنا من غير نار، ويعيد خلقتنا من غير انحلال الجسد. وإذا أردنا أن نوجز الكلام نقول لأنه يجب أن نعتبر قوة المعمودية مثل عقد حياة ثانية مع الله ومسلك جديد أطهر. وأكثر ما نخشى بعد ذلك وما يجب أن يحفظ كل واحد نفسه منه هو ألاّ نظهر خادعين وناكثين لذلك العقد والعهد. فما دام الله يقر عهده مع البشر ويثبته بخاصية الوسيط (بابنه) فقدّر يا صاح! كم هو أمرٌ كبير وخطيرٌ أن نتجاوز نحن البشر الميثاق الذي عقدناه مع الله نفسه! سنكون تحت طائلة الحكم والشجب، لا على خطايانا وحسب، بل في خطيئة الكذب نفسه الذي كذبنا به على الله. فلا يجوز لنا، والحالة هذه، ان نقع في الخطيئة بعد المعمودية. اجل ولو طلبنا ذلك بتنهدات كثيرة ودموع كثيرة نستدر بها الرحمة لعله يأتينا بها بعض التأسي واندمال لجراح الخطايا الجديدة حسب تحديدي وناموسي أنا (وأجل يأتينا الغفران لا بد من ذلك ونحن نؤمن به. وإذا نحن محونا آثار الجراح، وأنا أكون أول الممنونين لأني محتاج الى عطف الله). ولكن الأفضل ألاّ يحتاج أحد الى غسل آخر، بل أن يقف عند الأول ويلتزم بتطهير المعمودية التي أعرف أنها واحدة للجميع تأتينا نعمتها بلا عناء وتساوي الكل في القيمة والكرامة: العبيد والأسياد، الفقراء والأغنياء، الوضعاء والوجهاء، الأبرياء والمذنبين، نعمة المعمودية هي نصيب الجميع كنصيب كل واحد من الهواء والنور ومُناخ الفصول ومشهد الطبيعة ومتعة الوجود العظيمة المشتركة، والمساواة في الطبيعة بين الجميع.

والا فماذا نقول؟ أيجوز لنا ويليق بنا، بعد أن نحصل على الشفاء من خطايانا وتمام العافية الروحية، ان نطرح العطف الالهي الممنوح لنا بالمعمودية، وعندئذ نستوجب النقمة والعذاب، وندفع الثمن غالياً لننهض من كبوة الخطيئة ونصلح أنفسنا! كم من الدموع يجب أن نقدم لتساوي الدموع مع نهر المعمودية؟ ومن ترى يضمن لنا أن الموت يمهلنا بمهلة الشفاء والعافية، وأن الحكمة تنتظرنا لتتقاضانا الدين الذي لم نوفّه؟ ولعلك تشفع أنت يا رب الكرم الصالح المحب البشر لدى الرب، أن يشفق أيضاً ويمهل قليلاً على التينة العادمة الثمر ولا يقطعها، بل يسمح بأن يُعزق حولها ويوضع لها زبل (سماد) أعني دموعاً وتنهدات وركعات وسجدات وسهراً وتهجداً وتذللاً، وترقيق القلب والجسد، واصلاح الحال بالاعتراف، والسلوك المتأدب بأدب الرب. ولكن ليتنا ندري اذا كان السيد يشفق على غير النادمين حين يعلم أن الاشفاق سيزيد في سوء حالهم وتدهورهم

بنتيجة إطالة حلمه عليهم. فلندفن ذواتنا اذن مع المسيح بواسطة المعمودية حتى نقوم معه. ولننحدر معه الى القبر لنرتفعَ معه، ولنصعدْ معه لكي نتمجد وإياه بمجده.

وإذا عدو النور المجرب رماك بسهم الخطيئة بعد المعمودية (ولا بد أن يرميك لأنه جرب يوماً ان يرمي أيضاً رب المجد وكلمة الله، لما كان لابساً جسداً) فعندئذٍ بأي شيء ستقابله؟ لا تخف من الجهاد والمعركة. اعرض سلاح المعمودية ودافع بالماء والروح الذي يطفيء سهام الشرير الملتهبة. أجل انه روح، ولكنه يذيب الجبال. انه ماء، ولكنه يطفيء النار. اذا هاجمك في شهوة أو حاجة من حاجاتك الضرورية (لأنه بمثل ذلك تجرأ وهاجم "السيد") اذا هاجمك وطلب منك أن تصيِّر الحجارة خبزاً مستغلاً فيك الجوع، فلا يغربْ عنك ماذا يقصد وينوي. علّمه ما لا يعلم. اعرض عليه بالمقابل كلمة الحياة التي هي الخبز النازل من السماء هذا الخبز الذي يمنح الحياة للعالم. وإذا داهاك ولف حولك في مجال حب المجد (لأنه جرب المعلم نفسه بهذا قائلاً «ألقِ بنفسك أسفل» لإظهار لاهوته) فلا تنجرّ وتتدهور بالترفع والكبرياء. وإذا احتال عليك وأوقعك في زلة واحدة، فلن يتوقف. انه طماع لا يشبع ولا يقف عند حد. يتجمل ويتلطف بالحسنى ولكنه ينتهي الى الشر. هذا هو أسلوبه الذي يقاتل به. على أن ذلك السارق الرهيب يعرف الكتب المقدسة أيضاً. نستدل على ذلك من استعماله في تجربة الخبز كلمة «كما كتب» بل من استعماله كل الآية في قوله «لأن كتب» يقول: «لأنه يوصي ملائكته بك ليحملوك على أيديهم» يا لك من مخترع الشر! لماذا لم تورد ما يلو من الكلام؟ واني لأعلم ذلك منك، وان كنت تسكت انت عنه، لأني «سأدوس الأسد والتنين، وسأطأ الأفاعي والعقارب» بحماية الثالوث الأقدس. وإذا صارعك أيضاً بطمعه ووقاحته ورعم لك أن ممالك العالم خاضعةٌ له، وطلب منك أن تسجد له لحظة واحدة فقط فاحتقرْه وازدرِه انه فقير حقير. وعندك ما عندك من العزم والجرأة، بالختم الذي تمتلكه، أن تقول: أنا صورة الله وما أزال صورة الله بالمعمودية. أما أنت فسقطت بكبريائك من المجد العلوي. أنا ألبس المسيح، وقد عدتُ مسيحاً بالمعمودية. أنت اسجدْ لي. انه سيفر هارباً قطعاً بهذه المواجهة وأنا متأكد من هذا. سيولّي هارباً خزيان مغلوباً من هذا الموقف. وكما هرب من وجه المسيح النور الأول، هكذا سيهرب من وجه كل من استنار بالمسيح. هذه هي نعمة الغسل والاعتماد بالمسيح يعرفها كل الذين اختبروها. تقدم مثل هذه الولائم الفاخرة الحاوية كل اصناف الأطعمة للذين جاعوا وأضرهم الجوع.

فلنعتمد اذاً لكي نغلب. لنشترك في مياه الغسل التطهيرية التي تنقي أفضل من الناموس ودم الثيران والتيوس التي كانت ترش على المدنسين وتمنحهم تطهيراً موقتاً

وأرهباً. لا حلاً نهائياً للخطيئة. لأنه عندئذٍ ما حاجة الذين تطهروا مرة واحدة الى التطهير بعد (بالاعادة)؟ لنتعمّد اليوم اختياراً لكي لا نُغتصبَ غداً غصباً. ولا نظلم أنفسنا بتأجيل تقبل احسان الله الينا. لا ننتظر في سوء حالنا وتردّينا، طمعاً في نوال الصفح الأوفر(*). لا نكن تجاراً ومستغلين لئلا نثقل أنفسنا باكثر مما نطيق، فتتحطم عندئذٍ المركب في بحر الغرق، ونخسر النعمة لأننا طمعنا في الأكثر فخسرنا الكل. فهلم تلقَّ العطية ما دمت سيداً لقراراتك، وما دمت في حالة طبيعية جسدياً وذهنياً. ففكر بأمرك أنت تفكيراً صحيحاً، ولا تتقيد بما يقول الآخرون، لأن صلاحك لا يتعلق بالآخرين، بل أنت سيد نفسك، وسيد خلاصك. أجل انت سيد قرارك ما دام ان المخبّل والبلادة لم يعقدا لسانك عن النطق بالأقوال السرية، اذا لم أقل انك لم تُصب بعدُ بالجنون.

وما دامت لك القوة أن تصير مؤمناً، وليس مؤمناً نظرياً بل بالاعتراف لسانياً وقلبياً حتى يغبطك الناس على ايمانك، وما دام ظاهراً للجميع انك تأخذ العطية عن استحقاق، لا بصورة مشبوهة، وما دامت النعمة تتغلغل فيك الى الأعماق، لا كأن الجسم يُبلّل بالماء أو كأن العملية عملية غسل الجسم قبل الدفن(**). والدموع التي تذرف تكون دموع توبتك الخاصة لا دموع الآخرين الذين يشيعون جنازتك، تلك الدموع التي تجمعها بالمجاملة والمداهنة، وزوجتك واولادك يلتمسون اقوالاً رثائية. لماذا تؤجل التوبة، والطبيب الذي تعتمد عليه، ليس من ذوي الأهلية، وليس له أن يضيف في عمرك الا سويعات معدودة فقط، ومن غير أن يضمن تأمين هذه الساعات يهز برأسه فقط ليبين اذا كنت ستعيش او اذا كان الأمل مقطوعاً. وبعد ان تموت يتعلل في نظريات مرضك، وحين ينصرف من عندك يضخم المبلغ المطلوب. تؤجل التوبة الى حين يجتمع عندك الكاهن والكاتب العدل الواحد ليعطيك الزاد الأخير، والثاني ليسجل وراثتك في ساعة ليست مناسبة لا لهذا ولا لذاك!

(*) اعتقد بهذه البدعة حتى من زمن الرسل حين اساؤوا فهم تعليم بولس الرسول في قوله «حيث كثرت الخطيئة ورت النعمة» (رو ٥: ٢٠).

(**) كان الناس قديماً يغسلون الموتى قبل الدفن. وكان هذا احدى واجبات الدفن (٩: ٢٧). وكان الكثيرون في زمن القديس غريغوريوس يشعرون بأن الايمان المسيحي ايمان حقيقي، ولكن لم تكن لهم الجرأة على أن ينكروا أعمالهم الشريرة. وكانوا يؤجلون المعمودية كل حياتهم، وكانوا يعتمدون قبل الموت بقليل في سن متقدمة. هكذا نجد مثلاً قسطنطين الكبير. وكان آباء الكنيسة يرون في هذا الموقف انحطاطاً مسيحياً عاماً. ولهذا كانوا يشكون في امكان خلاصهم كما يعبر هنا حرفياً القديس غريغوريوس. ولهذا السبب يسمي مثل هذه المعمودية «غسل الدفن» وعنده أن التوبة ليست ورقة لعب وتزجل. ويكون عمق التوبة وصراحتها على قدر التبكير فيها، وعلى قدر ما تكون متأخرة، تكون ريائية وغامضة ولا يكون لها قيمة.

لماذا تنتظر يا هذا أن يأتيك الاحسان من نعمة الحمّى لا من نعمة الله؟ لماذا من الوقت، وليس من قرارك؟ لماذا من عليلك الشاش وليس من هوى الخلاص؟ لماذا لا يأتيك الاحسان اختياراً بل إجباراً؟ لماذا لا يأتيك من ارادتك الحرة بل تحت ضغط الضيق؟ لماذا يلزمك أن تعلم من الغير موتك الداهم، ولا تفكر به كأنه أمر واقع حاضر؟ لماذا تلتمس أدوية غير قادرة على منفعتك؟ لماذا تفضل أن يكون نزاع الضمير مع نزاع الموت؟ طبّب نفسك قبل أن يدركك الأمر الذي لا يُدفع. ارحم نفسك وأنت المعالج الأصيل لمرضك. قدم لنفسك الدواء الانقاذي فعلاً. قارب عمرك يسافر في ريح مواتية، ثبت عقلك في احتمال الغرق في ساعة من الساعات تتغير فيها الريح، واذا استعملت هذا الخوف معيناً لك يقل كثيراً احتمال غرقك. تقبل العطية السماوية باحتفال لا في النوح والرثاء. تاجر بالوزنة ولا تطمرها. اهتم بأن يكون ولو قليلٌ من الوقت بين معموديتك وموتك، وعندئذٍ لا تتناول الموهبة فقط، بل يبقى لك وقت تظهر فيه شكرك في عرفانك للجميل الالهي، وعندئذٍ لا تنجو فقط من النار، بل ترث المجد والكرامة التي يهبك اياها العمل مع معطيات ومقتضيات الموهبة التي تقبلها. لأن صغار النفوس يعظُمُ عندهم أن ينجوا من العذاب فقط وأما كبار النفوس فيهمهم أن يظهروا عرفان الجميل.

أنا أعرف ثلاث مراتب للمخلَّصين: مرتبة العبيد، ومرتبة المأجورين، ومرتبة البنين. فاذا كنت عبداً فخف العصا، واذا كنت مأجوراً فاحسبْ ماذا سيدفع لك فقط لا غير، واذا كنت فوق هذا وذاك ابناً فعليك أن توقّر الأب وتحترمه. اعمل الخير لأنه خير وكن في طاعة الأب حتى وان لم تأخذ شيئاً، وأجرك في ذلك هو أنك موهوب الأب وابنه. ولنتبصّر نحن تبصراً عقلياً في أن لا نحتقر العطايا السماوية والبنوة. لأنه ليس المنطق أن نتسارع الى خطف المعاش سلفاً ونؤجل تسوية أوضاعنا الصحية المزعزعة! أن تنظف أجسادنا قبلاً ونختزن للمستقبل تنظيف نفوسنا، وان نطلب الحرية من عبودية أرضية ولا نتوق، ولو توقاً، الى الحرية الروحية! كيف تبذل يا هذا قصارى الجهد في الحصول على مسكن فخم، ولباس ناعم فاخر، ولا تهتم كلياً في أن تكون أنت نفسك انساناً ذا قيمة عظيمة؟! كيف تكون مستعداً أن تحسن الى الآخرين ولا تريد أن تحسن الى نفسك، ولو كان صالحك في تجارةٍ ما، لأحزنك أقل مبلغ من المال، واذا كان صالحك في أن تظهر انسانية ومعروفاً الى ذاتك (انسانيتك)، تحتقر مثل هذا الاحسان الحاضر. كل وقت هو وقت موافق للمعمودية لأن كل وقت هو وقت محتملٌ فيه موتك. اني أصرخ الآن وأناديك مع بولس الرسول بالصوت العظيم قائلاً: «هوذا الآن وقت مقبول هوذا الآن

يوم خلاص»، «فالآن» لا تعني فقط وقتاً بل كل وقت. وكذلك قوله: «استيقظ ايها النائم وقم من بين الأموات فيضيء لك المسيح» حالاً ليل الخطيئة.

ازرع حين الوقت زرعٌ، واجمع الحصاد، واسمح الأهراء في الوقت المناسب. واغرس في الوقت اللازم واقطف العنب حين ينضج، واخبِرْ قاربك الى البحر في الربيع، واسحبه أيضاً الى البر حين يأتي الشتاء ويهيج البحر. كل أمر في وقته اذا أردت أن تمشي مع خطة سليمان الحكيم. وهذا شيء لازم لأن نصيحة الحكيم نافعة. أما أمر خلاصك فاجعله موضوع إكمال دائماً. وليكن الوقت المناسب لمعموديتك كل وقت من أوقاتك. واذا كنت دائماً تهمل اليوم وتؤجل الى غد، فان عملك خطأ من خدعة الشيطان بواسطة التأجيلات لأن هذا الأسلوب هو أسلوبه. (يقول لك) اعطني حاضرك واعطِ الى الله مستقبلك. أعطني وقت شبابك، والى الله وقت شيخوختك. أعطني شهواتك، والى الله عجزك وعدم نفعك، فيا للخطر الذي تجتازه! وبيا لهول ما تتعرض له! قد يميتك حربٌ، أو يخنقك زلزال، أو يبتلعك البحر، أو يخطفك وحش. وقد يمحقك مرضٌ أو وبآ. ومن يدري أتموت بزردة خبز تزدردها على عجل ويا لهول الموت! وقد تؤدي بك غصة ماء شربته أكثر من المعتاد. أو تلقي بك الريح في هوة سحيقة، أو يجرك حصان، أو يقتلك سُمٌّ مُنقع في مؤامرة. قد يحكم عليك بالموت قاضي محكمة أو جلاد قاس لا يراجع. وأخيراً من يدري أتموت بسكتة قلبية فجأة من دون أية مساعدة؟

ولكن أتمنى لك أن تسبق قدرك فاتك أنك محصد ومختوم بختم الروح القدس، فتؤمن مستقبلك بأوكد مساعدة وأفضل مساعدة، اذ سيكون لك علامة وسمة في النفس وفي الجسد بالمسحة وبالروح مثلما كان لإسرائيل قديماً علامة الدم على الأعتاب العلامة التي أمنتهم من قتل الأبكار. وتأيد بما يقول داود النبي: «لا تخش من خوف ليل، ولا من وقعة شيطان نصف النهار» فهذا سيكون لك، ما عشت، أعظم تأمين لأن الخروف الموسوم (المعلّم بعلامة) لا يسهل أن يخدع. وأما الغير الموسوم، فهو غنيمة سلهة للسارقين. ومن بعد موتك سيبقى لك ذكر أثمن من الذهب وأبهى من الحلي، والختم من نبة الضريح، وأجدى من سكيب الخمر الخير النافع، أفضل من الذبائح في بدء فصول السنة، أشياء يمنحها المائتون للمائتين جاعلين من العادة شريعة وناموساً. ليقدّمْ كل شيء في الدنيا: الأموال والأملاك والعروش والأمجاد. وأما أنت فلتُنهِ حياتك بأمان من غير أن تقدّم أية وسيلة مما أعطاك الله للخلاص.

ولكن ألعلك تخاف من أنك ستدمر الموهبة (المعمودية) بالخطيئة، وأنت، لأجل ذلك تؤجل الاغتسال لأنك لا يحق لك اغتسال آخر؟ ولكن عندئذ ماذا يكون؟ ألا تخاف أن

يدهمك خطر الهلاك وتخسر المسيح نفسه الذي هو أعظم من كل ما عندك؟ من يدري أهلاك هذا السبب عينه تتحاشى ان تكون مسيحياً؟ آه لله أنت ما أعجب أمرك! ان مثل هذا الخوف ليس خوف إنسان طبيعي، ولكنه تقدير انسان مخبول! ما هذا؟ ما هذا؟ ورعٌ بغير ورع، وتقوى بغير تقوى! ذاك ما تقوله وما تقدره! مثل بئس سفسطات الشرير! وفعلاً ان الشيطان ابن الظلام، ويتظاهر بأنه نور! حين لا يحقق شيئاً في الحرب الظاهرة يخترع الشر في الخفية والظلام! ويقوم بدور المشير الصالح، وهو الخبيث الشرير! وكل ذلك لكي يغلبنا بطريقة من الطرق، ولكي لا ننجوَ من حيله من أي مخرج. ذاك فنه في الشر والأذى. وهنا، وفي هذا الباب، يستعمل هذا الفن بحكمة! بما أنه لا يستطيع اقناعك بأن تحتقر المعمودية علناً، يهيء لك الأذى «بالتأمين» المكذوب، حتى ان ما تخافه أن يصيبك هو من خوفك من غير أن تفهم. وفي حين أنك تخاف أن تدنس النعمة، تسقط من النعمة بسبب الشعور ذاته. أجل هذا هو طبع ذلك الشرير. ولن يبطل لو بقي تصرفه بوجهين ويستمر على هذا حتى يرانا نتوجه الى السماء من حيث سقط هو. أما أنت يا إنسان الله فاعرف حيلة خصمك. لأن المعركة انما هي مع رئيس هذا العالم وشؤونه الكثيرة العظيمة. لا تقبل أن يكون عدوك هو الناصح لك. لا تستقل شأنك في أن تكون مؤمناً ومعروفاً بين المؤمنين (معمداً). ما دمت موعوظاً فأنت على عتبات الملكوت. يجب أن تدخل الى الداخل، أن تجتاز الساحة الملوكية، ان تتفرس في المقادس، وأن تنظر الى أقداس القديسين وأن تأتلف مع الثالوث الأقدس. انه لأمر عظيم هذا الذي من أجله تكافح، ويجب أن تكون في أمن كبير. أشهر حربة المؤمن. ان عدوك يخاف منك حين تقاتل بالسلاح، ولأجل هذا يريد أن يعريك من النعمة لكي يغلبك بأوفر ما تكون الغلبة، حين يجعلك هكذا أعزل وغير مترس. يهاجم كل جنس وكل سن وكل مراحل العمر. فلنصدّه بكل وسيلة حتى يرتد ويُقهر.

اذا كنت شاباً فاثبت أمام الشهوات والأهواء مع فرقة اخاريين من الشبان. انتظم في سلك جند الله. ابرز الى جوليات الجبار، اغلب الألوف والربوات. هكذا تكون عليقاً بشبابك وتتمتع بهذا الشباب. ولا تقبل أن يذوي شبابك، وأن يمات عزمك من نقص الايمان والثقة. اذا كنت متقدماً في السن فأنت في مواجهة ما لا مهرب منه. احترم شيخوختك وشعرك الأبيض. أظهر مقتضى التعقل بدل الجهل الذي تظهره الآن. تساعدْ مع ما بقي لك من الأيام واستوثق المعمودية في الشيخوخة. لماذا تخاف اخطار الشباب وأنت في الشيخوخة والنسمات الأخيرة؟ أم أنت أيضاً تنتظر اغتسالاً دفيناً حين لا تكون رحمة الله عليك الا على قدر مقته لعزمك ونيتك. لقد تفقّستْ لبانات الصبا أو لعلك تشتهي بعد أن تستمتع الآن ببقايا الشهوات واللذات، وأنت بقية من

الحياة؟! انه من فاضح الخزي أن يذوي العمر وتبقى الدعارة؟! لأنك اذا أنت استأخرت المعمودية فانما تدل بذلك على أنك تحب الخطيئة. هل عندك طفل؟ فلا تعط فرصة للشر. عمّده في سن الطفولة. قدّمه الى الروح القدس منذ نعومة أظفاره. ولكن بعض الأمهات يؤجلن المعمودية لأن طبيعة الطفل هي ضعيفة! يا لك من أم صغيرة النفس وقليلة الايمان! أنت تعلمين أن حنة النبية وعدت. الرب بما في بطنها قبل أن يولد. ولما وُلد نذرته حالاً وأنشأته في حلة كهنوتية من غير أن تحسب حساباً لضعف الطبيعة الانسانية بل كانت مؤمنة بالله. لست بحاجة مطلقاً الى التمائم والتمتمات السحرية التي بها يدخل الشرير سالباً ما هو لله لنفسه في أوهام وايحاءات فارغة وعدمية. اعطِ ابنك نعمة الثالوث الأقدس أحسن وأعظم حجاب ووقاية.

ماذا أيضاً. أتنشد العفة والبتولية؟(*) اختمها بختم المعمودية لتكون نعمتها رفيقة لك وشريكة حياتك، وهي تنظم سيرتك وأقوالك تضبط كل عضو من أعضائك، وكل حركة من حركاتك، وكل حس تحس به. كرّم المعمودية لكي تزينك بالحلل وتجعل على رأسك اكليلاً من النعم، وتحميك بتاج العظمة. أأنت مرتبط برباط الزواج؟ ارتبط أيضاً بختم المعمودية، واجعل هذا الرباط يسكن معك حارساً وضابطاً للتعقل. انه آمن لك من كل الخصيان (حفظة المساكن والأسرة) والبوابين. لم تتزوج بعد، وأنت مقدم على الزواج؟ لا تخف من اتمام المعمودية. ستكون نقياً قبل الزواج وبعده (لأن الزواج طاهر أيضاً). الكنيسة تتخذ هذه المسؤولية وتعقد الزواج وتعطيك العروس، لأن الزواج مكرم وان تكن البتولية أكرم. سأكون لك مثل المسيح شاهد العرس والعريس الطاهر، المسيح الذي يصنع العجيبة في العرس ويقدس الزواج بحضوره شرط ان يكون الزواج طاهراً، ولا يرتبط بشهوات وأهواء دنسة. خذ من نعمة المعمودية الأمان وأعطها الطهارة والعفة حتى يحين وقت البركة (الاكليل) وهو الوقت الأثمن من كل انشغال واهتمام وفي كل هذا تكون على اتفاق مشترك مع زوجتك(**). أنا لا أشرّع طبعاً ولكني أنصح وأريد

(*) من هنا يظهر أن ناس ذلك العصر كانوا يتخذون، قبل المعمودية، قراراً بالبتولية طول العمر. ولكن هذه البتولية لم تكن باشراف الكنيسة. وهذا أمر سهل فهمه، لأن المعمودية كانت تجري عادة في السنة الخامسة والعشرين، في حين ان قرار الزواج أو البتولية كان يتخذ قبل ذلك. هذا، مثلاً، ما جرى مع القديس يوحنا الذهبي الفم.

(**) ان للقديس غريغوريوس بقصده ان يقول ان الزواج بعد المعمودية لا يخسر بنقاوتها ولكن يجب ان يكون الزواج بثلاثة شروط ١ – ان يحفظ المسيحي ذاته طاهراً عفيفاً حتى العرس ٢ – ان يقيم الزواج بالاتفاق مع زوجته وبركة الكنيسة تعني بسر الزواج (الاكليل) ٣ – ان يحفظ الزوجان نفسهما اثناء الزواج غير مدنسين بشهوات شاذة (علاقات الطبيعة) وغير مشروعة.

أن آخذ شيئاً مما عندك لأجل صلاحك وفي سبيل راحتك الدائمة. ولأوجز وأقول ان المعمودية هي أجدى عليك نفعاً من كل شيء ولا يوازي نفعها لك اي شأن من شؤون الحياة والاهتمامات الدنيوية.

المعمودية والمعمّدون

ثم ماذا؟ أنت تعيش في العالم، وتتعاطى شؤونه العامة، وتتدنس ثم ترى غريباً أن تفسد انسانيتك؟ الأمر بسيط. اذا استطعت اهرب من سوق العالم مع أصحابك الطيبين، واتخذ لك أجنحة نسر، او لأقل شيئاً يتوافق مع فهمك، اتخذ لك أجنحة حمامة (لأنه مالك ولقيصر (العالم) وشؤون قيصر؟) وطر حتى تحط في مكان ليس فيه خطيئة ولا لوثة خطيئة ولا «اقصوات راهص يحث في الطريق» ويمنعك من اتمام مسيرتك المرضية لله. استتب نفسك من العالم. اهرب من صادوم، اهرب من الحريق. امش ولا تتدرّ ولا تنظر الى الوراء لئلا تصبح عمود ملح، اخلص الى الجبال ولا يشملك الخراب. واذا كنت مرتبطاً (من قبل) بذلك المكان، برباط لا تتخلص منها، فقل لنفسك، أو لأقل لك أنا ما ينبغي: من الأفضل طبعاً أن تأخذ نعمة المعمودية والتطهير وأن تحفظ لنفسك هذه النعمة الخيّرة، ولكن اذا لم يكن ممكناً أن تتخلص من مجتمعك فعندئذ الخير لك أن تنال قليل من التدنس في معاطاتك لشؤون العالم، افضل من الاستمرار والسقوط كلياً من النعمة والحرمان منها. وذلك مثلما أظن انه من الأفضل لك أن تحتمل التعنيف والتقريع من والدك وسيدك من ان تطرد طرداً نهائياً. والأفضل لك ان تستنير قليلاً من أن تظلم كلياً. لأجل ذلك لا تعظم الخوف من المعمودية لأن القاضي العادل والمحب البشر يحكم دائماً على أعمالك بحسب الظروف والأحوال. وان من يحقق تحقيقات صغيرة، في ظروف صعبة، واجواء غير صالحة، يؤخذ في منزلة أعلى من منزلة من لم يحقق الشيء الكثير في جو من الحرية التامة والأحوال المؤاتية، وأظن أن من يتقدم ببطء، وهو يحمل قيوداً وسلاسل، هو أدعى الى الاعجاب به ممن يركض وليس عليه أي ثقل. وكذلك أدعى الى الاعجاب ذاك الذي يمشي في الأوحال والطريق الوعرة، لا الذي يسير في طريق سهلة نظيفة. وبرهان ما أقول ما يلي: راحاب الزانية التي لم يكن لها شيء حسن، بررها فضلٌ واحد هو فضل الضيافة. والعشار الذي لم تكن له تزكية في شيء رفعه وزكّاه تواضعه. هذه كتبت لتعلم أنت ولا تيأس بسهولة من خلاصك.

ولكن كأني بك تقول ماذا يكون لي اذا أنا تقيّدت باكراً بالمعمودية واغلقت دوني باكراً باب الاستمتاع بمتع الحياة ولذاتها، في حين أني أستطيع أن أبقى حراً في معاطاة

الشهوات ومن ثم آخذ نعمة المعمودية أيضاً؟ لأني أرى ان أولئك الذين تعبوا من أول النهار في عمل الكرم لم يعطوا أكثر من الذين اتوا في الساعة الأخيرة. لقد أعفيتني من عناء التفتيش عمن تكون أنت يا هذا بايرادك هذه الخواطر لأنك اظهرت أخيراً سر تأجيل المعمودية. واذا أنا لم امتدح فيك سوء حالك فاني ممتدح اعترافك وصراحتك. ولكن هلم استمع الى تفسير مَثَل الانجيل لكي لا يضرك المكتوب في هذا المثل فيما لا تفهم المقصود منه. قبل كل شيء اقول لك ان الكلام في هذا المثل يا عزيزي لا يتناول المعمودية في شيء، ولكنه يشير الى الذين سيقبلون الايمان في اوقات مختلفة ويدخلون الى كرم الرب الصالح – الكنيسة. لأنه من اليوم الذي يدخل فيه كل واحد الى الكنيسة يطالبه الرب بالعمل. ثم تقول وان يكن أولئك الذين دخلوا باكراً الى الكرم قدموا من حيث التعب أكثر، ولكنهم لم يقدموا الكثير من حيث حسن الاستعداد وطيبة الخاطر. واذا أخذ في الحساب حسنُ الاستعداد هذا الذي نقدره فمن الوارد أن السيد يقدّر ويكافيء كثيراً الذين قدموا متأخرين، ولو ظهر كلامي لكم غريباً نوعاً ما. وللتوضيح نقول أن مجيء الأخيرين الى العمل في الكرم، متأخراً، يعود الى أنهم دُعوا متأخرين، ولنقدر فرق الأولين عن الآخرين كم هو. الأولون لم يؤمنوا ولم يدخلوا قبل أن يشترطوا الأجرة، في حين أن الأخيرين تقدموا الى العمل بدون اي شرط، الموقف الذي هو دليل من ادلة ايمان كبير. والأولون أظهروا خُلقية حاسدة وناقمة أما الأخيرون فلا شيء من هذا. وما أخذه الأولون كان أجرةً أما ما أخذه الآخرون فكان عطيةً، وهكذا فيما أن الأولين ظهروا أغبياء، فمن العدل أنهم لم يأخذوا أجراً أكثر. ولنحسب، يا ترى، أن هؤلاء لو جاؤوا متأخرين ماذا كانوا سيأخذون؟ انه من الواضح انه كان سيعطى لهم الأجر نفسه. لماذا اذن يتهمون صاحب الكرم بعدم التوزيع العادل؟ ولكن هذا الموقف ينتزع من الأولين فضل التعب والعرق مع أنهم تعبوا منذ الصباح الباكر. وهكذا يحدث أن يكون توزيع الأجر المساوي عادلاً، لان التوزيع يتعلق بطيبة الخاطر وصحة العزم.

ولكن لذا افترضنا أن المثل يصوّر المعمودية حسب تفسيرك الخاص، ماذا سيمنعك أن تدخل باكراً وأن تحتمل حر الشمس ولا تحسد الآخرين حتى تربح بهذه الانسانية بالضبط ربحاً أوفر، وتأخذ عندئذ جعالتك كدين لك عند الله وليس عطية(*). وبعد فاتذكر ان العمال يؤجرون، في هذا المثال، بعدما يدخلون أولاً الى الكرم. وهذا الامر

(*) ان غريغوريوس يعتبر شيئاً أهم أن يأخذ أحد أجره كدين له على الله باستحقاق الأجر من أن يأخذه كمنحة من الله. وعلى العكس من ذلك يكتب بولس الرسول انه اهم بكثير أن يكون ما يأخذه المرء من الله منحةً لا أجراً. (رو ٤: ٤–٦).

الثاني أنت في خطأ حسابه، وفي خطر الوقوع فيه. وبالتالي لو كان أكيداً انك كنت ستفوز بالنعمة (المعمودية) بهذه الذهنية وبرداءة عزم تحجز قسماً من الشغل، لكان مغفوراً لك أن تلجأ الى هذه الحسابات من هذا النوع، وتزيد مربحك من محبة السيد للبشر، هذا لكي لا أقول لك ان تملك الأكثر، هو أجرٌ أكثر في حساب انسان ليست عنده ذهنية العامة في الاستغلال. واذا كنت تجازف، في هذه المساومة (البازارية) أن تخسر الكرم كلياً، فعندئذٍ تكون قد خسرت رأس مالك بهذا الحوار السفسطائي للتفاصيل. هلم اذن واقتنع بأقوالي. دع هذه التحويرات والمعارضات. اقبل على المعمودية من غير حسابات فربما دهمك الموت قبل أن تحقق الآمال الضخمة ومن غير أن تعلم، تعمل كل هذه الحيل والأفانين على حساب خلاصك.

ولكن ماذا أيضاً؟ لعلك تقول أليست الألوهة محبةً للبشر؟ أجل انها محبة للبشر. بل ان الله يقرأ ما في القلوب، ويختبر الشوق والنية والعزم، ويعتبر الشوق الى المعمودية معموديةً. ولكن عندما تقول بما أن الله هو محب للبشر فهو يعتبر الغير القابلين للمعمودية، وان من يحاول أن يحصل على الملكوت هو في الملكوت من غير أن يعمل ما يجب وما تستوجبه المعمودية، فكأني بك عندئذٍ تقول أحجية ولغزاً (حزورة) ولست أتردد في أن أقول لك ما أعتقده عن هذه الأمور وعن هذه المواقف. ان البعض، من الذين حصلوا على المعمودية، كانوا غرباء كلياً عن الله وعن الخلاص، جرّبوا كل نوع من الرذائل وسعوا اليها. والبعض الآخر كانوا أنصاف أرذال، وكانوا يعيشون بين الفضيلة والرذيلة. هؤلاء اقترفوا الشر ولكنهم لم يكونوا متوافقين ضمناً مع ما عملوه، كفعل المرضى في حال الحمّى. وكان البعض الآخر أيضاً، قبل اتمام المعمودية، كانوا خليقين بالمديح من جهة أخلاقية، لأن بعضهم كانوا أنقياء بطبيعتهم وسجيتهم وبعضهم كانوا انقياء بواسطة الجهاد الاخلاقي سبقوا فهيأوا أنفسهم للمعمودية منقين أنفسهم، وظهروا، بعد المعمودية، أعلى شأناً من أولئك وأرسخ قدماً في أرضية الأخلاق بعد المعمودية. الأولون سعوا لبلوغ الصلاح، والآخرون سعوا ليحفظوه ويبقوا عليه. ومن كل هؤلاء الأقل شراً هم أفضل طبعاً من الذين هم أشرار كلياً، والأفضل منهم هم الأكثر استعداداً وأريحية وحسن عزم، هؤلاء الذين صفّوا أنفسهم ونقّوها قبل المعمودية، لأن عندهم شيئاً زائداً اعني العمل. لأن الاغتسال يمحو الزلات ولكنه لا يمحو كذلك ما حققه المرء من فضائله. وأفضل من هؤلاء أيضاً هم الذين يحرصون على نعمة المعمودية ويتفاعلون معها ويتعهدون أنفسهم بالعناية والانتباه، حتى يكونوا على قدر امكانهم، أجمل مما كانوا عليه قبلاً.

وثانياً لهذا، فإن بعض الذين ليس لهم نصيب من المعمودية هم بهيميون كلياً أو متوحشون وذلك حسب جهلهم أو خبثهم. وأظن ان هؤلاء، فيما عدا الرذائل التي يصنعونها، لا يعترفون في كثير أو قليل المعمودية المقدسة بل يعتبرونها ربحاً استثنائياً اذا أعطيت أرادوها، واذا لم تعط لهم يحتقرونها. والبعض الآخر يعرفون قطعاً قيمة المعمودية ويكرمونها ولكنهم يؤجلونها إما عن كسل وتهاون، وإما عن قلب رغيب لا يشبع. وآخرون ليس عندهم حتى القوة أن يقبلوا المعمودية فهم عاجزون عن ذلك إما لأنهم أطفال، وإما لحالة مستحيلة ليست في طوقهم كلها. وكما وجدنا بين السابق ذكرهم فرقاً كبيراً هكذا بالضبط هم هؤلاء. وأسوأهم جميعاً هم المحتقرون لهذا السر، ويأتي بعدهم الذين يخسرون المعمودية لجهل فيهم أو لحالة استثنائية. وأقدّر أن الأولين سيعاقبون على خبثهم واحتقارهم للسر. وأما الآخرون فسيعاقبون أقل نظراً الى جهلهم. أما الأطفال والمعذورون في عدم معموديتهم (لأسباب فوق العادة) فهؤلاء ليس عليهم عقاب أمام القاضي العادل كما أنه ليس لهم مجد وبهاء (بسبب حرمانهم المعمودية). لأن من يشتهي المعمودية ولم يحصل عليها، لسبب ما، فكأنه حصل عليها، ولكن لماذا لا تحصل عليها فعلاً؟ ولأقل لك هذا: اذا كان يكفيك أن يكون عندك الشوق لكي تظهر قبلك قوة المعمودية، ولأجل ذلك تطالب بمجد المعمودية وبهائها، فليكفك عندئذ أن تكون عندك الرغبة في المجد لكي يقلّ لك هذا المجد. وما الذي يمنعك من أن تحصل على هذا المجد عندما تكون الرغبة فيه؟

واذاً فإذ قد سمعتم هذه الأقوال «فتقدموا اليه واستنيروا ولا تخز وجوهكم» ولن تعدموا النعمة. واقبلوا الاستنارة ما دام لكم الوقت أيضاً «لئلا يدرككم الظلام» ويفصلكم عن الاستنارة بالمعمودية. «يأتي ليل حين لا يستطيع أحد ان يعمل شيئاً» بعد الذهاب من هذا العالم. استنيروا «بالنور الحقيقي» الذي «ينير كل انسان آت الى العالم» ولنسمع أيضاً صوت سليمان الحكيم ينعي بمرارة على البطالين واللامبالين كسلهم ولا مبالاتهم حين يقول: «الى متى انت طريح الفراش أيها الكسول، متى تنهض من نومك»؟ تتعلل بهذا الأمر وبذلك، وبعلل أخرى من علل الخطايا؟ «انا انتظر عيد الظهور الالهي» «أنا أقدر أن الفصح عيد أهم وأوقر وقاراً أؤجل لأبلغه». «إما في مناسبة العنصرة». ولكن «الأفضل أن أستنير مع المسيح وأتعمد معه» بل الأفضل «أن أقوم مع المسيح في قيامته» بل الأفضل أن أكرم ظهور الروح القدس» وبعد وبعد؟ ستأتي النهاية فجأة في يوم لا تظنه ولا تتوقعه وساعة لا تعرفها. وبعدئذ يرافقك خسرانك المعمودية كرفيق طريق سيء شرير ليعذبك، وستموت من الجوع داخل غنىً عظيم من «صلاحك»! في حين

أنه يجب أن تثمر، عكس ذلك، الأفراح. أجل أن تثمر الحصاد بالمروءة وعدم الكسل، وينبع المياه عدم العطش، مثل الأيل الذي اذ يعتريه العطش الشديد يسرع الى الينابيع ويطفيء بالماء ركض الطريق. ولا يحل بك ما حلّ باسرائيل قديماً وتجف من قلة الماء، أو تحاكي خبر الأسطورة وتعذب بالعطش وأنت موجود داخل النبع(*). انه أمر فظيع ان ينتهي الاحتفال وتقفل السوق وعندئذٍ نطلب الاتجار والراح! أمر فظيع أن ينفد المن وعندئذٍ تأتي لتطلب الغذاء! أمرٌ رهيبٌ هو التقاعس الإرادي والإحساس بالخسارة بعد فوات الاوان، عندما تغادر هذه الحياة وعندئذٍ يفتح كتاب أعمال كل احد عندما يعاقب الخاطئون ويتلألأ المعمدون المطهرون. لأجل ذلك لا تعوّقوا التقدم الى المعمودية، بل اسرعوا قبل أن يسبقكم لصٌ ويصل قبلكم زانٍ، أو طامع أو عشار او واحد من أولئك الذين يغتصبون الملكوت السماوي.

لتكن أيها الحبيب بطيء الرجل الى فعل الشر، وسريعاً الى الخلاص ولتكن مقتنعاً باقوالي. لأن الاستعداد لعمل الشر هو مساوٍ لشر الإبطاء في عمل الخير. اذا دُعيت الى لهو وشطارة فلا تسرع. واذا دُعيت الى انكار وجحود فاهرب هرباً قفزاً(**). واذا قيل لك في مصنع الشر: «هلم اشترك معنا في الدم ولنختفِ في الأرض رجلاً صديقاً ظلماً» (أمث ١: ١١) فلا تمل حتى الاذنك للسماع. وستربح ربحين عظيمين: تجعل الداعي يحس بخطيئته، وتحفظ نفسك من الاشتراك في الشر. ولكن اذا سمعنا داود العظيم يقول: «هلموا لنبتهج بالرب» او ميخا النبي يقول: «هلموا لنصعد الى جبل الرب» او اذا سمعنا المخلص نفسه يناديها ويقول: «تعالوا اليّ ايها المتعبون والثقيلو الاحمال وأنا أريحكم» أو «هلموا ننطلق من ههنا» فلا نعارض ولا نبطيء في الإجابة. اذ اننا سنصبح أنقى من الثلج وأشد بياضاً من الصوف، وأكثر بريقاً من الحجر الكريم والذهب الإبريز. لنصر مثل بطرس ويوحنا، لنسرع الى الاغتسال بالمعمودية كما أسرع ذانك الى القبر والقيامة راكضين معاً ومتسابقين في الركض، وذلك لكي ندرك نحن أيضاً، ونحن نجاهد، الخير الذي أدركوه. ولا تقل دعني الآن وعاودني بعد قليل، غداً سأتعمد، في حين أنك تستطيع أن تحسن الى نفسك اليوم قبل غد. أمهلني لتحضر والدتي، ليحضر أبي، واخوتي وزوجتي، وأولادي، وأصدقائي وكل من أحبه وعندئذٍ سأخلص. الآن ليس الوقت مناسباً لمعموديتي وابتهاجي. ولكن من يدري لعل الذين ترجو حضورهم في فرحك

(*) يقصد اسطورة تانتد الذي عوقب في الجحيم بان يعذب بالعطش في حين انه غارق في الماء الى حد عارضيه وعندما كان ينحني ليشرب كان الماء ينحسر بعض الوقت بحيث لا يستطيع أن يتناوله.

(**) الانكار بهذا يسمى خطيئة مميتة تساوي انكار المسيح. ويقصد بوضوح الزنا.

يحضرون جنازتك. اذا تسنى لهم الحضور (في العمادة) فحسن، وإلا فلا تؤجل. وقبيح بك أن تقول: ليس عندي ما يلزم اعداده للمعمودية. ليس عندي حلة بهية (بدلة) اتحلى بها. ليس عندي ما أقدمه من الضيافة للحضور حتى لا أقصر في هذا الواجب. كأ لو كانت هذه الأمور ضرورية، وبدونها تنقص نعمة المعمودية! عجباً لك! تعظّمُ في عينك صغائر الأمور وأنت في عظائمها! لا يأخذك الذل والتصاغر. السر هو أعظم من كل ما تنظر حولك. فاجعل نفسك مثمراً، والبس المسيح، سرّني بسلوكك. وأنا أفرح عندما تظهر لي إيثارك التعقل بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة يسر الله الذي يمنح العطايا الكبار. يكفي الاستهداف والتعلق بالقصد لتقبل الى المعمودية دون النظر الى هذه الأمور الثانوية التي لا تهم الفقراء، فهم في هذا ينافسون الاغنياء ويتقبلون الأمر العظيم من الله المعمودية. وفيما عدا هذا يقع الفرق بين الغني والفقير. وأما في هذه الحال، فالأغنى هو الأوفر عزيمةً واستعداداً.

فلا تدع أمراً يقطع مسيرتك الى الأمام، ولا تدع أمراً يشل عزمك. ما دام شوقك حاراً وقوياً اختطف الغنمَ الذي هو أمامك. وما دام الحديد حامياً فاضربه بالآلة الباردة لئلا يبرد. أنا فيلبس فكن أنت وكيل ملكة الحبشة. قل أنت كذلك: هوذا ماء فماذا يمنع من أن أعتمد؟ اختطف الوقت، وافرح بالفرصة السعيدة. قل نعم وتعمّد وخلّص نفسك بالمعمودية. واذا كنت أسود البشرة (كالحبشي) صر في نفسك أبيض. تقبل الخلاص الذي ليس أغلى منه شيء ولا أثمن. أللهم عند ذوي العقول، طبعاً. ولا تقل متعللاً أيضاً: أنا أريد أن يعمدني أسقف متروبوليت، أو أن يكون من مدينة القدس مستحقاً ومشتهراً (النعمة ليست من المكان ولكن من الروح) لأنّ أصلي النبيل يُهان بأن يعمدني أيّ كان من غير تمييز. أو أن تقول فليعمدني كاهن، ولكن فليكن غير متزوج عفيفاً وملائكيّ السيرة، لأني أخشى أن أتلوث من سيرته ساعة المعمودية والتطهير. لا تضل. ولا تتطلب أن يكون الواعظ والمعمّد من أهل الثقة – من جهة العالم – ان ديانهم وكاشف أمورهم غير الظاهرة هو غيري وغيرك. لأن الانسان انما ينظر ما هو أمام عينيه في حين أن الله يرى ما في القلب. (ملو ١ ١٦: ٧). وليكن عندك أنت، كل واحد من المعمّدين (الكهنة) موثوقاً في التعميد بشرط أن يكون كاهناً معترفاً به (مشرطناً قانونياً) وليس من المحرومين رسمياً، ولا غريباً عن الكنيسة. لا تنتقد الأطباء أنت المحتاج الى المعالجة. لا يسرّك ان تنتقد استحقاقهم وقيمتهم وهم الذين يجرون لك عملية التنقية، ولا تفاضل الذين يلدونك بالروح. ان بعضهم أعلى أو أدنى من بعض ولكنهم جميعاً هم أعلى منك. خذ لك مثلاً من هذه الفكرة: خاتمان احدهما ذهبي وآخر حديدي وفيهما

الطابع والحجم نفسه يختصان صورة الملك، ويختم بهما ختمان على الشمع. ما فرق الواحد عن الآخر؟ لا شيء؟ وإن تكن أكبر عبقري فانظر الى مادة الشمع، وقل لي، رعاك الله، ما الفرق في الطابع اذا كان الخاتم من ذهب أو من حديد ما دام الختم واحداً؟ الفرق انما هو في المادة لا في الختم. وهكذا يجب أن يكون نظرك الى كل كاهن ومعمّد، وإن تكن سيرة المعمد أعلى من سيرة الآخرين تبقى قوة المعمودية هي ذاتها كما يجب أن يكون نظرك هكذا الى كل من يمنح كمال المعمودية ما دام ايمانه هو نفس الايمان الكنسي العام.

لا ترفض أن تعمد مع الفقير لكونك غنياً، مع الوضعاء لكونك أنت من الأشراف، ومع العبيد، الى هذه الساعة، وأنت السيد. ومهما تواضعتَ فلن تصل الى تواضع المسيح الذي باسمه تعمد اليوم، والذي من أجلك قبل أن يتخذ طبيعة عبد. فمنذ اليوم الذي تعمد فيه تختفي كل المقوّمات والاعتبارات القديمة. المسيح يوضع ختماً على الجميع بنفس الهيئة والتشكل. ولا ترفض أن تعترف بخطيئتك، وأنت تعلم كيف كان يعمد يوحنا الناس الذين كانوا يعترفون بخطاياهم حتى تدفع، بالخجل الذي تحتمله هنا، الخجل الذي ستحتمله في الحياة الثانية (لأن هذا الاحتمال هو قسم من ذلك العذاب الثاني)، وحتى تظهر فعلاً أنك تمقت الخطيئة مشهراً وفاضحاً اياها علناً لأنها تستوجب الفضح والتشهير، لا تحتقر عملية معالجة الخطيئة، ولا يثقل عليك طول الوقت في معالجتها. سيكون لك من هذا نعيرة نقاوة النعمة التي تحصل عليها. لن تلاقي فيها من العناء والتعب مثلما لقيت ملكة سبأ التي جاءت من أقاصي الأرض «لتشهد حكمة سليمان وهنا أعظم من سليمان»، هذا عند مَن لهم كمال الحكمة والفهم. فما دمت تطلب الحصول على نعمة المعمودية فلا تحسب حساباً لطول الطريق، ولا لمسافات البحر ولا للنار، ولا لأي مانع يقف في وجهك صغيراً كان أم كبيراً. وأنت يا هذا حين تستطيع أن تحقق المعمودية المشتهاة، بلا تعب ولا عناء، فكم يكون من عمق الجهل ان تؤجلها! «أيها العطاش» ينادي أشعيا «تعالوا الى الماء، ويا من لا فضة لهم هلموا اشتروا واشربوا خمراً بلا ثمن». يا لإحسان الله السريع البنا! يا لها من مقايضة سهلة وتجارة رابحة! تشتري مثل هذا الشيء العظيم من الخير والصلاح، والثمن هو أن تريد فقط! وأن يكون مدُّ اليد فقط هو الثمن لتشتري وتقبل المبيع. يا له من احسان يسقي الذين يريدون، ويعطي للذين يطلبونه! انه سهل وسمح في العطاء العظيم. ان مسرته بأن يعطي أعظم بكثير من مسرة الآخذين. وعلينا ان نتحاشى فقط الوقوع في خطأ الطلب منه أشياء صغيرة يجل عنها. مغبوط الرجل الذي يطلب منه المسيح أن يشرب كما طلب من

المرأة السامرية، فيعطيه المسيح «نبع ماء ينبع الى حياة أبدية» «مغبوطون الزارعون على كل المياه» (١ شو ٣٢: ٢٠) وفي كل نفس ستكون غداً محروثة ومروية بينما اليوم يطأها الثور والحمار لأنها بلقع بلا ماء، وهي نفس مكروبة بالجهل. ولأجل هذا السبب يجب أن نبذل كل جهد واهتمام لكي لا نخسر النعمة العامة المشتركة.

ولعلك تقول الآن أيضاً: المعمودية أمر حسن لكل من يتقبلونها. ولكن ما رأيك في معمودية الأطفال الذين لا يخسرون أيضاً بنعمة المعمودية ولا بخسارتها؟ نعم والأطفال يجب تعميدهم خصوصاً اذا دهمنا خطر من الأخطار على حياتهم. انه من الأفضل أن يعمدوا من غير أن يحسوا، من أن يذهبوا من العالم غير مشاركين في سر النعمة، (مارَين) وغير مختومين. ولنا برهان على ما نقول وجوب الختان في اليوم الثامن الأمر الذي كان ختماً (أو علامة) شكلياً، والذي كان يكمل على الأطفال الذين لم يكن قد وُلد فيهم الوعي والتفكير. وكذلك تلطيخ أعتاب الأبواب بالدم كان يحفظ المواليد الأبكار. وفيما عدا هذه الاعتبارات، فإن رأيي أن ننتظر (في عماد الأطفال) الى سن الثالثة أو أكثر أو أقل بقليل عندما يكون ممكناً ان يسمعوا شيئاً من السر وان يتجاوبوا معه، وان كانوا لا يفهمون فهماً كاملاً، ولكن لكي يصوغوا صيغة طابع. وعندئذٍ يقدسون أنفسهم وأجسادهم بسر الكمال المقدس. وهكذا يكون الأطفال قد ابتدأوا في الشعور وبمسؤولية الحياة عندما يستكملون وعيهم ونطقهم، وسيتعلمون السر ويكونون من جهة ثانية، قد استفادوا من تحصُّنهم بالمعمودية عن كل أمر يداهمنا فجأة ويكون فوق كل مساعدة.

أجل هذا، ولكن قد تقول أيضاً: ان المسيح تعمد في الثلاثين من عمره، مع كونه إلهاً. وأنت تحثنا على أن نسرع بتقريب موعد المعمودية؟ لقد أجبت نفسك بنفسك في قولك انه «كان الهاً» كان هو الطهارة ذاتها ولم يكن به حاجة الى التطهير. ولكنه (يتقوى بالمعمودية) من أجلك أنت. يتخذ جسداً في حين أنه كان بغير جسد. ولا يضيره في شيء أن يؤجل عمادته، لأنه هو الذي ينظم ويؤقت، متى سيتألم كما وقت متى سيولد. أما شأنك أنت فهو مختلف، وخطرك خطر كبير اذا متّ وأنت مولود ولادة الجسد الفاسدة من غير أن تلبس لباس الخلود وعدم البلى. كان توقيت المعمودية للمسيح

(*) ليستفد من بعض مضمون هذه المقالة وما سبقها المتقدمون بالخطايا وسر الاعتراف والتوبة لأنهم سيجدون طرق الخلاص من عتاب وقلق الاعتراف بنفض شبكة الخطايا والخروج منها للهرب.

ضرورة زمنية مرتبطة بالاعتبارات المحلية، ومتوافقة مع الذهنية العامة، ومخطط الخلاص المرسوم، في حين أن معموديتك أنت يا هذا ليست لها هذه الأسباب في التأجيل. المسيح خرج الى الكرازة وهو ابن الثلاثين عاماً، لا قبل ذلك. ولكي يبرهن أنه تمرس تمرساً كاملاً بالفضيلة، وأخيراً لأن هذه السن (سن الثلاثين) كانت تعتبر السن المناسبة الشرعية للتعليم والنبوة. وبما أنه، له المجد، كان ينبغي له أن يحتمل الآلام الخلاصية، لزم أن تكون كل عمليات ومقومات هذا المخطط المرسوم متجمعة سابقة للآلام والصلب: الاعتلان للملأ بالمعمودية، الشهادة له من السماء، الكرازة، استقطاب الجماهير، اجتراح العجائب، كل هذه الأمور مجتمعةً متلاحقةً غيرُ متفرقة بفارق زمني. فأما المعمودية والكرازة فقد سببتا ارتجاج المدينة (اورشليم) من تزاحم الجماهير (اهتزاز، هكذا يسمّي الكتاب تلك الساعة). وأما ضجة المدينة وضجة الجماهير فاستدعت اظهار آياته وعجائبه التي جلبت الناس الى الانجيل. وهذه أيضاً تستدعي الحسد، والحسد يستدعي البغض، والبغض يقود المؤامرة والخيانة، وهذه كلها أتت بالصليب وكل ما تبعه من أمور خلاصنا. وهكذا فان كل الأمور المتعلقة بربنا يسوع المسيح هي مثل هذه واشباهها كما استطعت أن أصورها وأن أصيغها. ولكن قد يكون هناك سبب أعمق من هذه الأسباب التي ذكرتها في تأجيل عمادة الرب المعبد.

أما أنت فأية معذرة لك في التفكير خطأً، وتقليد من هم أعلى منك؟ لأن هناك أموراً أخرى كثيرة واردًا ذكرها في ذلك الوقت على نحو يظهر الآن، انه كان لها معنى غير معنى اليوم، ولم تكن على مناسبة الأوقات والحالات. مثلاً: المسيح صام قبل التجربة بقليل، أما نحن فنصوم قبل الفصح. المسيح يواجه التجارب بالصوم، أما نحن فيعني لنا الصوم اشتراكاً في موت المسيح وهو تنقية قبل العيد. والمسيح صام أربعين يوماً (لأنه كان الهاً). أما نحن فنقطع الصوم على قدر امكاناتنا وان يكن البعض، تهيب بهم غيرتهم على أن يقفزوا عبر طاقاتهم أيضاً. ثم ان المسيح قدم العشاء الفصحي سرياً لتلاميذه في العلية، وبعد العشاء، وقبل آلامه بيوم واحد، أما نحن فنقدم العشاء في بيوت الصلاة وقبل العشاء، وبعد القيامة. المسيح يقوم خلال ثلاثة أيام، أما نحن فنقوم بعد زمن طويل مديد. فما الغريب اذاً في أن المسيح قبل المعمودية من أجلنا، وفي أنها تختلف بالزمن عن عمادتنا؟ وكأني بك تعرض هذا الأمر كشيء عظيم وعجيب على حساب خلاصك.

فاذا كان لكم ثقة بي فاتركوا مثل هذه الأقوال والاحتجاجات، واندفعوا الى ما فيه صلاحكم، وعليكم، بعد هذا، أن تجاهدوا جهاداً مضاعفاً: جهاداً من أجل تنقية

ذواتكم قبل المعمودية وجهاداً من أجل حفظ المعمودية وصونها. فالأمران هما من الصعوبة ذاتها: اكتساب الفضيلة والمحافظة عليها. فكم من مكسب بالاجتهاد ذهب به الإهمال، وكم من خسارة بالكسل عاد بها الاجتهاد. ولكي تظفر بمشتهاك من الفضيلة فاعلم أن لك أفضل معونات بالأسهار والأصوام، والمرقد الخشن، وعمل الرحمة والصلوات، والدموع، والإشفاق على ذوي الحاجات. ولتكن لك هذه الوسائل مثل وقاية وحجاب لحفظ مكاسبك من الفضيلة. هناك عدة أمثلة واعتبارات تذكرك بالاحسان، فلا تغفلها. اذا جاءك فقيرٌ فتذكر كم كنت فقيراً، فأصبحت غنياً. هل من لعازر آخر ينقصه الخبز والماء مطروحٌ عند بابك؟ تذكر بخوف المائدة السرية التي ستشترك بها، الخبز الذي تتناوله والكأس المقدسة التي تشرب منها فتتطهر بآلام المسيح. هل يتوسل اليك انسان غريب ليس له مأوى، ولاجيء يطلب عندك ملاذا؟ اقبله قابلا في شخصه، ذاك الذي من أجلك صار غريباً وسكن بنعمته في داخلك، واجتذبك الى المسكن الأعلى. صرْ زكياً، عشاراً بالأمس، واليوم شهماً في أعلى مستوى من مكارم الأخلاق. أثمر كل ثمر صالح عند مرور يسوع لكي تبرز كبيراً بعد أن أبصرت المسيح جيداً، وان كنت قصير القامة. هل يطرح أمامك مريض ومجروح؟ تورّعْ وتذكر العافية التي اكتسبتها، والجراح التي شفاك منها المسيح وحررك من عبودية ابليس. واذا رأيت عرياناً فاكسُهُ مكرماً كساءَ الخلود الذي تُحسبتَ به؛ فذاك هو لباس المسيح. لأنه يقول: «انتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيحَ لبستم». واذا صادفك مديون لك يتوسل اليك فمزق الصك الذي لك عليه بحق أو بغير حق. تذكر الدين الكثير الكثير الذي تركه لك المسيح والاحسانات الكثيرة التي أحسن بها اليك. ولا تكن جابياً قاسياً فظاً مطالباً بالدين الزهيد. وترى من تسامح؟ تسامح المديونين لك في العبودية، أنت الذي وهبك السيد الكثير الكثير. هذا ما يجب أن يكون موقفك في التشبه باحسان ذلك المحسن العظيم.

والاغتسال (المعمودية) يجب أن يكون لك لا اغتسال الجسد فقط، بل اغتسال الصورة – النفس المدنسة –. لا اغتسالاً من الزلات، بل اصلاح الخُلُق وتقويمه. لا أن تغسل ما علق بك قبلاً من الوحل والحمأة (الطين) بل تغوير نبع الحمأة وازالته. لا أن يعني لك الأمر المكسب الجيد، بل اطرح الجيد الحاسم لكل دنس، أو على الأقل دفع كل ما يأتيك من الدنس والأذى. المعمودية تمحو ما سلف من خطاياك ولا تمحو ما تخطئه الآن. واحترس من أن تتخذ المعمودية بغش بل أن تقبلها كختم وعلامة تعرف بها ولا تتغير. يجب أن تلمع وتضيء بالمعمودية كلياً لا كأنك مصبوغ صبغاً. لا

يفترض في المعمودية أن تغطي خطاياك بل أن تمحوها وتزيلها «طوبى للذين غفرت خطاياهم» هذا يعني التطهير الكامل «والذين سترت ذنوبهم» هذا يشير الى الذين لم يتنقوا بعمق التنقية «طوبى للرجل الذي لم يحسب له الرب خطيئة» هذه منزلة ثالثة من منازل الخاطئين الذين يحق لومهم على عملهم، وأما فكرهم فدون المسؤولية، وبالتالي لا يُدانون.

فماذا أقول اذن، وما محل كلامي؟ بالأمس كنتَ نفساً كنعانية، وكنت امرأة منحنية الظهر من الخطيئة، واليوم قوّمتك الكلمة اغاء ظهرك. فلا تستحنِ بعدُ لنداء التراب ولا ينحدبْ ظهرك وتتطامن الى أسفل حتى كأن الشرير قد أثقلك بمزوّد الحديد وضغط عليك الى اسفل، ويصعب عليك أن تقوّم انحناءك. أمس كنت في جفاف وضمور لأن نزف دمك كان ينفجر (لأنك كنت تفيض خطيئة حمراء)، أما اليوم فأنت تنفجر بالحياة لأن نزف الدم قد توقف. انك قد أمسكت بأهداب المسيح وأوقفت جريان الدم، وحوتك أن تحفظ طهارتك ولا تعد تنزف دماً مرة ثانية، وأنت غير مستطيع أن تلتقي من المسيح، لكي تختص خلاصك، لأن يسوع لا يقبل أن تتكرر سرقته، وان يكن شديد الحب للبشر. أمس كنت مسمراً في سريرك مشلولاً لا تبدي حراكاً، ولم يكن لك انسان يلقيك في البركة عندما يتحرك الماء. واليوم وجدت انساناً، هو الله نفسه، بل بالأحرى إله وانسان. لقد قمت من الفراش، بل أقمت الفراش وحملته وسميت تنشر بين الناس خبر الإحسان العظيم، فلا تعد تخطىء بعد لئلا تُطرح أيضاً في الفراش، ويُحرَّك جسدك للذات الراحة الكريهة. ولكن هيا امش وسر كما أنت في حال الصحة، واذكر الوصية السيدية «ها انك قد عوفيت فلا تخطىء بعد لئلا يصيبك أشر» عندما تقابل الاحسان بالإساءة. لقد كنت في القبر، يا عزيزي، فسمعت الصوت العظيم «يا لعازر هلمّ خارجاً» (وأي صوت أجهر وأعظم من هذا الصوت؟) وخرجت من القبر ميتاً لا من أربعة أيام، بل من أيام كثيرة، قمتَ مع الثلاثة الأيام محلولاً من ربط الدفن والتكفين. فلا تمتْ مرة ثانية وتجاور «الراقدين في القبور» ولا تقيّد نفسك بسلاسل الخطايا. ومن الواضح أنه عندما تقوم من القبور في ساعة القيامة العامة، ستحشر كل الخلائق أمام المحكمة لا ليُطبَّبوا ويعالَجوا، بل ليُدانوا ويقدم كل واحد دفاعاً وحساباً عن خيره وشره.

اذا كنت مصاباً بالبرص أي بالخبث البشع، وتطهرت الآن وعادت صورتك صحيحة أيضاً، فأرني، أنا تطهرك من البرص. لأرى أن هذا الطهر أشرف وأكرم من طهر الناموس. لا تكن احد التسعة الرجال الكنودين الجاحدين بل تشبه بالعاشر واعرف

الاحسان وقدم الشكر. فهذا، وإن يكن سامرياً، إلا أنه كان أعرفهم جميعاً بالجميل. احذر لئلا تصاب بالدمامل الخبيثة فتصير الى حالة جسدية يصعب شفاؤها. وقبل أن تصاب يدك بالشلل كانت يابسةً بالبخل وصغارة النفس. فيجعلها اليوم صحيحةً، حبُّ الرحمة وحب القريب. وأفضل تطبيب لليد المريضة هو أن تفرّق وتعطي المساكين والفقراء، وأن تكون نبع عطاء حتى تشابه أرملة صرفت، وأن يكون لك فضل اطعام نبيّ مثل ايليا، وأن تعتبر غنىً جزيلاً في أن تكون فقيراً من أجل المسيح الذي افتقر من أجلنا. واذا كنت أطرش أصمّ أخرس فليلجْ صوت الكلمة في أذنيك، أو الأحرى بك أن تحتفظ بالصدى في أذنيك. لا تسدّهما عن سماع صوت يسوع وتوجيهاته كما تصم الأفعى أذنيها عن سماع سحر الحاوي. اذا كنت أعمى وغير مستنير فأنر عينيك لئلا تنام نومة الموت. بنور الرب تعاين النور، أعني أن تقبل بروح الله الابن مثل شعاع الله نوراً مثلثاً وغير منقسم. اذا قبلت في داخلك الكلمة كل الكلمة ابن الله، ستجمع في نفسك كل التوجيهات والمعالجات العائدة لخيرك. لا تجهل مقدار النعمة. الأمر الوحيد المطلوب منك ألاّ تنام وتتخلّى عن كل اهتمام حسن ولازم، فيأتي العدو ويزرع الزؤان في رأسك. والآن، وقد صرت محسود الشيطان من أجل نقاوتك، يكفي أن تنتبه لئلا تعود الى الخطيئة وتصير الى حالٍ يرثى لها. انتبه لئلا ترتفع فوق اللازم، وتتدهور من عَلْفك. افتكر فقط في أن تعتمد، بكل جهودك، نقاوتك متمرناً في قلبك على الارتفاع والتجلي. واحفظ الغفران الذي حصلت عليه مجاناً احفظه بالصبر والاجتهاد والعناية، حتى يكون الغفران الذي حصلت عليه من الله. واحفظ ذاتك من الخطيئة فتعتمد فيه على نفسك.

وقد تقول كيف يكون هذا؟ تحليلاً وتفصيلاً؟! اذكر دائماً ذلك المثل الانجيلي من كلام الرب ليساعد به فهمك، وتصلح رأيك وتزيد حذرك وتيقظك. لقد خرج منك مرةً الروح الدنس مطروداً من وجه المعمودية. أجل! يخرج لأنه لا يطيق الضغط والاضطهاد. لا يحتمل أن يبقى بدون وطن وبدون مسكن. يطوف في أمكنة لا ماء فيها جافة ومقفرة من كل ندى هناك يريد أن يتقلقل. يطوف ويدور طالباً راحةً. فلا يجد: انه يصادف أنفساً معمدة أزالت المعمودية الشر والخطيئة منها وجعلتها مطهّرة. انه يخاف الماء (ماء المعمودية)، يختنق بمادة الماء المطهرة كما اختنق لجيئون في بحر (طبرية). ثم يعود أيضاً الى المنزل الذي خرج منه. إنه وقح لا يستحي، محب للهذر والمشاحنة. يهجم أيضاً وأيضاً يحاول محاولة. فاذا لقي المسيح مستوطناً داخل المكان الذي كان قد احتله، والذي كان هو قد أخلاه، يصدُّ أيضاً مدفوعاً، ويعود خزيان فاشلاً صائراً في

حال يرثى لها من الطّوفان والقذرات. أما اذا وجد المكان الذي داخلك مكنوساً مزيناً له خالياً من روح الله، ومستعداً لاستقباله فيدعو أصحابه ويقفز الى الداخل ليستقر فيك باجتهاد اكبر من أجل الاستيطان وتكون «أواخر ذلك الانسان شراً من أوائله». في المرة الأولى وجد أمل كبير باصلاحك وتأمينك، أما الآن، وفي هذه المرة، فالسوء هو ظاهر للعيان، ويذهاب الخير يجتنب الشر. وهكذا يكون الاحتلال أوكد للساكن في ذلك البيت.

واني لمذكرك أيضاً بالمعمودية ومُورِدٌ لك ما يتطابق معها من الأقوال الإلهية (الكتاب المقدس)، لأن كلامي سيكون أعذب عندك بايراد هذه الأمثلة، وأوقع في نفسك من كل كلام آخر لا يُطعَّم بالأقوال الالهية، (وأي شيء أشهى من النور للذين ذاقوا حلاوته!؟). وأنت فستستنير بهذه الأقوال التي سأسوقها اليك. تسمع الكتاب يقول من جهة أولى: «نورٌ أشرق للصديق» وكذلك «العقل قرين النور». ومن جهة أُخرى يقول: «نورٌ للصديقين دائماً». ويخاطِب الله فيقال له: «انك تنير بأبهة من الجبال الأبدية» وكذلك يقول: «الرب نوري ومخلصي فممن أخاف» وقد سمعنا داود يطلب من الرب في موضع آخر أن يُرسل له النور والحق» وسمعناه في موضع آخر يقدم الشكر لأنه تناول النور بأن ارتسم نور الله على وجهه. أي أن سمات النعمة واشعاعها ارتسمت وظهرت على عباه. هذا وفيما نحن نتكلم عن النور والأنوار، فهناك نور واحد يجب ان نتجنبه ولا نشتهيه، هو نور النار المرة (نار العذاب). لا تسيرن أيها الأخوة مستنيرين بنور نار جهنم، وبنور الشعلة المحرقة المهلكة التي أشعلناها. لأني أنا أعرف ناراً واحدة تطهر، هي النار التي جاء ليلقيها المسيح على الأرض، كما أنه هو نفسه، له المجد، يدعى رمزياً ناراً «فان إلهنا نارٌ آكلة» (١٢: ٢٩) من خواصي هذه النار أن تلتهم المادة وكل وضع فاسد شرير. وهذه النار هي النار التي يريد (المسيح) أن تشتعل سريعاً لأنه يرغب الإسراع بالاحسان الى الناس بتعميم بشارته وسلامه. واعرف ايضاً ناراً لا للتطهير ولكن للعقوبة والهلاك هي النار الصادومية التي تمطر الخطاة والأشرار كبريتاً وسحقاً. وهي النار المعدة لابليس وملائكته، وهي التي تشكل النهر الجاري امام الرب والحرق اعداءه من حوله. ونار العقوبة التي هي أفظع من هذه ايضاً، وهي النار التي جُعلت لقصد العذاب. هي نار الهالكين، النار التي لا تطفأ والدود الذي لا ينام. وكل هذه النيران يمكن أن تذوب وتختفي أمام الارادة العازمة على المعمودية والتوبة.

وهكذا فاني يا عزيزي، أرى نوعين من النور: النور الذي هو مصباح العقل الموجه خطواتنا في مرضاة الله، والنور الخادع الغريب الذي هو معاكس للنور الحقيقي في حين

أنه يتراءى بأنه نور وذلك ليخدع ويختلس. هذا النور هو بالأحرى ظلمة يظهر بشكل نور نصف النهار الذي هو أقوى درجات النور - مع أن هذا النور هو ليل، فهو في نظر المنافقين والفاسقين استعارة. لأن داود يقول: «ان قلت ان الظلمة تغشاني كان الليل حولي نوراً» (مز ١١:١٣٨) ولكن لندع الجاهلين وشأنهم، ولنستنر نحن بنور المعرفة لحسن التوجُّه والسداد. يقول هوشع النبي: «ازرع بالعدل وتحصد بالرحمة ثمر الحياة». لأن العمل والانجاز هو ابن النية والتصور، لنعلمَ كل شيء ولنعلمْ أنها هو النور الحقيقي، وأنها هو النور المختفي، ولكي لا نسقطَ خطأ في الشر كأننا ساقطون في العثير. لنصبح نحن نوراً كما سمع التلاميذ من النور الأعظم قوله لهم: «انتم نور العالم» بل ولنصر «كأنوار في العالم نضيء بين الأمم» كما قال بولس الرسول في (فيل ٢: ١٥) أعني قوة حية للآخرين. فلنتخذ شيئاً من الألوهة ولنقتبس نوراً من النور الأول. لنسرْ نحو إشعاع هذا النور قبل أن تحجب بيننا وبينه الظلال، وتعثر أقدامنا بالجبال المظلمة، والحاجبة عنا ذلك النور. وما دام نهار «فلنسر سيرةً حسنة كما في النهار لا في القصف والفجور والسكر والمضاجع» التي هي أعمال الليل الخفية.

لنتطهر، أيها الاخوة، في كل عضو من أعضائنا ولننق كل حاسة من حواس الجسد. لا يبقَ فينا شيء غير كامل حتى نعود الى خلقتنا الأولى فكامل الطاهر. لا ندع فينا شيئاً من النقص حتى تكملة المعمودية. لنعمِّد (لنطهِّر) العين حتى نرى رؤية واضحة مستقيمة، ولكي لا يبقى لنا في داخلنا صنمٌ زناني متسرب من مشهد غريب يعمل فينا. لأنه وإن لم نخضعْ للهوى، إلا أننا ندنس النفس. اذا كان لنا خشبة في عيننا، فلننزعْها أولاً لنستطيع أن نرى القذى في أعين الآخرين. لنعمد الأذن والسمْع لنعمد اللسان، لكي نسمع ماذا سيتكلم الرب الإله، ولكي نستطيع أن نستمع الى مراحم الله في الصلاة الصباحية، ولننقل في مسامعنا بهجةً وحبوراً تعطي لنا بالألحان الإلهية. لا تكن ألسنتنا سيوفاً حادة وسهاماً مُبرِيَّة، وموسى مسنونة. بل لتتكلمْ سرياً بحكمة الله الخفية محترمين وموقرين الألسنة النارية. لنراعِ حاسة الشم لكي لا نتأنث، ونشم، بدل الرائحة الزكية، رائحة كريهة. بل فلنتخذ رائحة الطيب الجيد (الميرون) المنسكب علينا، وبمقدار ما نتأثر به، تنبعث منا رائحة طيب زكي. لنطهر الملمس والمذاق والحنجرة مجتنبين ملامس الارتخاء، وملتذين بالحومة. واذا لامسنا أي جسم فكأننا نلامس جسد الكلمة المتأنس لأجلنا مقلدين توما الذي لمس الجسد بورع. لا نلذّذ المذاق بالأطعمة والأشربة لئلا نجلب مذاق أنعومات الأطعمة والأشربة من الملذات المرة، بل حين نتذوق ونتعلم انه جسد المسيح الرب، نكون قد ذقنا المذاق الأفضل والأبقى. ولنعرف أيضاً ان كلمة الرب، أحلى، في الأفواه، من العسل والشهد.

وهناك شيء آخر أحسن من كل ما قلت، هو أن تتنقى من الرأس حتى يتنقى الرأس الذي هو مشغل المشاعر والأحاسيس كلها، أن نمتلك المسيح رأساً لنا «الرأس الذي منه كل الجسد بمفاصل وربط متماسكاً ومقترناً ينمو نمواً من الله» (كو ٢:١٩) و«الرأس المسيح الذي منه كل الجسد مركباً معاً على قياس كل جزء يحصّل نمو الجسد لبنيانه في المحبة» (أف ٤:١٦). أجل أن نمتلك المسيح رأساً ونطرح الخطيئة التي تسعى لامتلاكنا، ولكن يمتلكها الأقوى منها. ويحسن بنا أيضاً أن نتنقى ونتقدس في معظم قوة الجسم التي تتمثل بالمناكب والأكتاف حتى نستطيع حمل الصليب صليب المسيح الذي لا يستطيع كل واحد ان يحمله بسهولة. ويجمل بنا أن نقدس الأيدي والأرجل أيضاً. أما الأيدي فلكي نرفعها طاهرةً في الصلاة ونكون منقادين بها الى طاعة المسيح «رافعين في كل مكان أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال» (تيمو ٢:٨). وأما الأرجل فتقدس لكي لا «تسرع الى سفك الدماء» ولا تركض الى فعل الشر بل تكون متهمة «مستعدة لبشارة الانجيل». وأن تكون هذه الأرجل مستعدة لجائزة الدعوة العلوية قابلةً المسيح غاسلاً ومطهراً اياها. وهناك تطهير للبطن الذي من شأنه أن يقبل وأن يرد ما يتقبله من غذاء الكلمة «معدة أخبر ورد لكلمة الله» «وقال لي الرب خذ هذا الدرج (الرقيم او الكتاب) وكله وابلعه» (حز ٢:٨؛ ٣:١—٣) «من آمن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو ٧:٣٨) ولذلك من المفيد الا نتعبد للبطن بالاستمتاع بالأطعمة الزائلة، بل نطهره قدر المستطاع، ونجعله لطيفاً ودقيقاً حتى يتقبل في داخله كلمة الله. ويتألم الألم النافع من أجل ذنوب اسرائيل (سائر البشر). واني لأجد كذلك أن القلب والأحشاء عامة هي مستحقة الكرامة. يقنعني في ذلك داود الذي يطلب أن يُخلق في داخله «قلبٌ نقيٌّ» وأن يجدد «روح مستقيم في أحشائه» وأظن أنه يقصد «بالروح» الذهن وكل الحركات أو حصيلة التفكير الناجم عنها (آيات من مسحة الميرون المقدس).

وماذا أيضاً عن الأصلاب والأحقاء والكلى؟ حتى هذه يجب ألا نهملها من الحساب والعناية، ويجب أن يمتد التطهير الى هذه أيضاً. «لتكن أحقاؤكم ممنطقة (مزنرة)» ومشدودة بالانضباط والعفة كما حصل قديماً لشعب اسرائيل الذين أكلوا الحمل الفصحي طبقاً للناموس، لأنه لا يخرج أحد نقياً من مصر، ولا يستطيع أن يجتنب الهلاك اذا لم يسمع هذه الوصايا ويفهمها. أما الكلى فينبغي أن تعبر التغير الحسن، «لأنه قد تمرمر قلبي وانتخست في كليتي» موجهاً مركز الشعور كله الى الله حتى تستطيع أن تقول «يا رب أمامك هي كل شهوتي وبغيتي» لأن كل واحد منا يجب أن يكون رجل شهوات الروح، وبهذه الطريقة فقط يتحول التنين الذي هو في داخلنا، التنين او الثعبان

الذي يجمع معظم القوة في بطنه وظهره بعد أن نسحق نقطة تمركزه وتوقه. ولا تعجب من أنني أقدر مثل هذا التقدير، تلك الأعضاء الحقيرة فيناء متخذاً موقفاً مضاداً للمادة في إماتة هذه الأعضاء او في تهذيبها وتصميد أمواتها. ولنجعل في ملك الرب وطاعته كل الاعضاء التي على الارض ولنكرسّها ولنقدسّها. لنقدس أكبادنا والكُلى وكل المفصل والشحم واللحم ولا ندع عضواً من أعضاء الجسد غير مقدس. ولماذا نحتقر بقية الأعضاء؟ لا، بل فلنقدم ذواتنا بكاملها، ولنصر محرقات عقلية وضحايا كاملة. لا نقرب الذراع فقط او الصدر كقربان مقتطع لأنه قليل، بل فلنقدم ذواتنا كلها لنعود فنأخذها كلها مرة ثانية. لأنه هذا هو التطهّر، أن نعطي ذواتنا لله وأن نعمل لخلاصنا مقدّمين ضحية.

وقبل كل شيء، وفوق كل شيء «احفظ، ايها العزيز، الوديعة الصالحة» وديعة الايمان، التي بها نحيا ونعيش ونجتمع والتي نشتهي أن تكون ثابتة فينا دائماً حيثما توجد، وبها نستطيع أن نواجه كل النوائب، وتزدري كل شيء يتعلق به أهل العالم. وهذه الأمانة انما هي الاعتراف بآب وابن وروح قدس. هذه الامانة هي التي استودعك اياها اليوم أيها المعمَّد. بهذه الامانة أعمدك وأرفعك الى أعلى. هذه هي التي أعطيك اياها شريكاً وحامياً واقياً في كل حياتك، الألوهة الواحدة والقدرة الواحدة الموجودة موحدة في ثلاثة أقانيم، والحاوية هذه الأقانيم الثلاثة في بساطة الألوهة بغير تشويش، بلا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان، ولا ارتفاع ولا انخفاض (فيما بين الأقانيم) بل بمساواة من جميع الوجوه كالسماء الواحدة في الحسن والحجم. انها أصل واحد لا يدرك ولا يحد لثلاثة الاقانيم الغير المدركة. كل واحد اله اذا أخذ لذاته. كما أن الآب هو إله، كذلك الابن وكذلك الروح القدس، كل واحد إله فقط اذا نظرنا الى اقنومه الخاص المميز. أما الثلاثة معاً فهم اله واحد كمتساوين في الجوهر من جهة، وكأصحاب أصل واحد من الجهة الثانية. لا أكاد أدرك الواحد حتى استنير بالثلاثة معاً، ولا أكاد أجمع الثلاثة معاً حتى أدرك كل واحد متميزاً. عندما أتصور الواحد من بين الثلاثة أظنه الكل، وتمتلئ رؤيتي بالألوهة ويفوتني ما هو اكثر منه. لا يمكنني ضبط حجم الواحد لكي أدرك أن القسم الاكبر هو ما لم اضبطه. وعندما أدرك الثلاثة عقلياً أرى منبع نور واحد، وأنا غير قادر ان أميّز أو أقيس النور الموحد الذي يضيء.

أتخشى القول بولادة الابن حذراً من تألم الله الذي لا يتألم؟ أما أنا فأخشى القول بأن الابن خلقة لكي لا أفقد الله بالتجني على الألوهة في فصل جائر وتجديف كبير، وذلك كما يفعل الهراطقة إما بقطع الابن عن الآب، أو بقطع الروح القدس عن الابن. لأن الأمر

الغريب هنا هو أن أولئك الذين يلصقون بالله جزءاً مخلوقاً يعودون فيقسمون هذا الجزء المخلوق بعد ذاته. فكما انهم يجعلون الابن في مرتبة دون مرتبة الآب ويجعلونه مع المخلوقات الأدنى والأوطأ، كذلك يجعلون الروح القدس في مرتبة دون مرتبة الابن لكي يهينوا الله وخليقته بهذا اللاهوت السفسطائي السخيف. وانتم تعلمون ايها السادة ان الأقانيم الثلاثة ليس منها من هو عبد أو خليقة او مبتكر كأنما قبلاً بعد، كما زعم أحد الحكماء. يقول الرسول الالهي بولس: «اذا أنا أرضيت الناس فلست عبداً للمسيح بعد» وأيضاً أقول اذا كنت قد سجدت وتعبدت لخليقة، أو اذا كنت تعمدت باسم خليقة، فلست اذن حاصلاً على التأله ولا تحولتُ الى ولادة جديدة. ماذا أقول للمتعبدين لعشتاروت، او المتدنسين بأدناس الأصنام؟ اذن لأشبهناهم ولصرنا مثلهم متعبدين لمن هم مثلنا في العبودية أي الخلائق.

وما حاجتي الى كلام طويل؟ والوقت الآن وقتُ تعليم لا وقت مباحثة ومناقشة؟ «انني أشهد أمام الله وأمام الملائكة المختارين» انك يا هذا ستعتمد بهذا الايمان، ولبس بغيره، وأنا كفيلٌ لآلك وخلاصك. اعتصمْ أنت بالصلاح العظيم، والحقيقة الكاملة بوحدة الأقانيم الثلاثة، واترك لي أنا ساحة المعركة مع الهراطقة والكافرين. دعني أكون صانع السفينة، وأنت كن قائدها فقط. أنا مهندس المنزل وأنت ساكنه. فاسكن واطمئن بشعور الأمان من غير جهد ولا تعب. كن أنت القائد وانا أدير المعركة والحرب. أنا أواجه السهام والحراب، وأنت تقضي العمر بسلام مصلياً من أجلي وأنا في خطوط المعركة الأمامية من أجل أمنك وسلامتك أنت. أترى مقدار الصلاح العظيم والخير العميم لدى الروح القدس؟ هو الذي يحني بنا وينطق بنا. ساعدني أنت بايمانك فقط، وانا أملك ثلاثة أحجار أقذفها بمقلاع الروح على الجبار الغريب. في صدري نفخات قوية أنفخ بها على ابن الصرفتية الميت، وبها أحيي الأموات! عندي ثلاث دفعات من الماء أصبها فوق الحطب لكي أحرق الضحية مشعلاً النار والماء على هذا النحو الغريب! وسأقهر أنبياء الخزي وكهنتهم مستخدماً قوة السر العجيب! يجب أن تكون لنا سهولة التحرك والانتقال من السيء الى الأفضل. فاذا كنت يا هذا تعتمد بهذه الشروط من حسن التعليم، «فهوذا شفتاي لا أدنسها بالكذب وهوذا يداي أقدمهما للروح القدس لتكونا أدوات من أدواته. ولذا كان كل الراغبين في المعمودية مثلك، فلتحطّ القرار، ولنستعجل الخلاص، ولننهضْ الى المعمودية محققين هذا السر العظيم فينا. ان الروح القدس يرتعش ويختلج ويتفطر، وصاحب الكمال مستعد لتكميل النقص والعطية السماوية حاضرة متهيئة للانحدار! ولكن اذا تباطأت وتعرّجْتَ أيضاً فأمامك الفرق اشتم.

ولكن لم يكتب الى الآن على صفحة نفسك شيء. فتعالَ لنتقدم الى وسط السحابة، أعطني لوحة قلبك. وأنا أتجاسر على أن أقول اني سأكون لك مثل موسى آخر. وسأكتب بإصبع الله فوق لوحة صدرك الوصايا الجديدة، مختصَر الخلاص. هلم لتصعد الى الجبل والى الغمام. فاذا كان بينكم وحشٌ مرطقة طائش، فليبقَ في أسفل الجبل، لأنه سيُرجَم ويقتل بقول الحقيقة.

سأتلمذكم للكلمة، وسأعمدكم باسم الآب والابن والروح القدس. أما الاسم الجامع المشترك للثلاثة فهي الالوهة. وستعلمون بالكلمات والحركات انكم تطرحون كل إلحاد وتنتظمون دفعة واحدة في صف الألوهة. آمنوا أن العالم كله المنظور وغير المنظور أوجده الله من العدم وأنه يُساس بعناية من عنده ويُوجَّه الى الأفضل. وآمنوا أنه لا يوجد أصل للشر من صنع الله (حاشا) وانما الشر منا ومن الشرير. هو ما دخل فينا بسبب اهمالنا وعدم احتراسنا، وليس لله علاقة به. آمنوا أيضاً أن ابن الله، الكلمة الأزلية الذي هو مولود من الآب بدون جسد ولادة أزلية، هو نفسه صار ابن البشر وتأنس في الأيام الأخيرة من مريم العذراء بحال لا توصف، ولا يعبر عنها، وأنه هو نفسه صار انساناً كاملاً مع الله الكامل لكي يُوهَب لك الخلاص كل الخلاص. يفتح لك طريق الخلاص وحل عقدة الخطيئة. هذا الذي هو غير متألم بطبيعته الالهية صار متألماً بالطبيعة التي اتخذها. تنازلَ الى درجة البشرية حتى ترتفع أنت الى عتبات الألوهة. اتحد الى الموت ومات مصلوباً ودُفن ليذوق الموت، وقام في اليوم الثالث. وبعد قيامته صعد الى السموات لكي يصعدك أنت القابع أسفل. وسيأتي أيضاً بالحضرة الإلهية الممجدة ليدين الأحياء والأموات. ولن يأتينا متجسداً ولا بغير جسد، بل بجسدٍ من نوعٍ الهي بحال يعرفها هو، وبشكلٍ يعرفه به الذين صلبوه وقتلوه، وسيبقى على كل حال الها غريباً عن كثافة اللحم والدم. فآمن أنت يا هذا بالقيامة والدينونة والمجازاة العادلة من عند الله. وافهم هذه المجازاة على أنها نور للمطهَّرين في اذهانهم أعني أنهم سيرون الله وسيعرفونه كل واحد على قدر الطهارة التي هو فيها، وهو ما نسميه الملكوت السماوي، وافهم أيضاً ان العقاب انما هو ظلمة للذين عموا وضلوا عن جادة الحق والصواب، اي تغرب عن الله هو بنسبة ما عندنا هنا من العمى. إقبل واعمل الصلاح على هذا الأساس العقيدي لأن «الايمان بدون عمل هو ايمان ميت» كما أن العمل بدون ايمان ميت». هوذا قلت لك كل ما اعتلن لنا من الأمور السرية التي تبرز رشدها في اذهان الداخلين في السر. أما الأمور الباقية فرتّها الى الله وسيُفضي اليك بسرها، وتعرفها من الثالوث الأقدس. وستحفظها داخلك مختوماً عليها بختم.

هذا وإني أنقل إليك منذ الآن هذه البشرى السارة وهي: إن المنزلة التي تعطى لك بعد المعمودية أمام المنبر العظيم في الكنيسة هي مقدمة ورمز لمنزلة المجد التي ستحل فيها في العالم الآتي. والتراتيم التي تستقبل بها الآن هي مقدمة للأناشيد التي هناك. والشموع التي ستشعلها هنا هي صورة رمزية سرية للمصابيح المضيئة التي سنستقبل بها العريس بنفوس عذراء طاهرة وفرحة. أجل حين نستقبل العريس بمشاعل الإيمان المبهجة، من غير أن ننام نوم الكسل حتى لا تفوتنا ساعة مجيئه الغير المعروفة، ومن غير أن نعدم الغذاء والزيت. ولا نكن فقراء من عمل الخير حتى لا نبقى خارج خدر المسيح. لأني أتصور كم هي المصيبة محزنة على المتأخرين، يوم يَفِدُ العريس وينطلق الصراخ صارخاً قد أقبل فلنخرج للقائه. وعندئذ تسرُّ نفوس وتضطرب نفوس. نفوس ذوي العقل والحكمة ستكون في لقائه بالأنوار الحية البهية، وبموفور الزاد والغذاء. أما ذوو الجهل وقلة الفطنة فيكونون في اضطراب عظيم، وسيطلبون زيتاً عن عدمهم الزيت، ولكن الوقت قد فات فهيهات هيهات. العريس سيدخل مسرعاً فتدخل معه فئة مستعدة، ويغلق الباب دون غير المستعدين الذين هدروا الوقت وأضاعوه. وسينتحبون نحيباً ويقولون يا ويلنا ويلاً طويلاً. لأنهم سيعلمون، بعد فوات الفرصة، نتيجة كسلهم، وأنه لن يفتح لهم باب الخدر أبداً، وسيقرعون ويرجون عبثاً. وسيندمون ولات ساعة ندامة، ويشقيون ولا عتاب عليهم تعساً لهم! مساكين قد شابهوا، بحال أخرى، أولئك الذين دُعوا الى وليمة العشاء العظيمة للعرس فخسروا الدعوة والوليمة بالأعذار والاحتجاجات الباطلة: الواحد تزوج امرأة والآخر اشترى حقلاً أو بقراً فأضاعوا بالشيء القليل الزهيد الشيء الكثير الباقي. لأنه لن يدخل عرس الملكوت السماوي كسولٌ مستهتر، أو غير لائق اللباس، ولو عرض له أن يدخل مع الآخرين خلسةً وخداعاً وهو مخدوع بآمال كاذبة. فليكن لنا نصيب الدخول الى العرس بربنا يسوع المسيح الذي له المجد والعزة الى دهر الداهرين.

الظهور الإلهي في عماد المسيح

أيضاً يسوع، وأيضاً سرٌ وأسراراً سرٌ حقيقي، وليس سر خداع، وسر خزي وضلال وعربدة يونانية وثنية (هكذا أسمي أنا عبادتهم، وهكذا يسميها كل عاقل). بل هو سرٌ علويٌ سامٍ يخلق الأجواء البهية. لأن يوم الظهور المقدس الذي يلفنا الى أنواره، وأهلنا أن نعيد له. مناسبته معمودية مسيحنا النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آتٍ الى العالم، وموضوعه ظهور الثالوث الأقدس الفائق التمجيد. إنه عيد يحقق تنقيتنا، ويعيد الينا النور الذي أخذناه من الله منذ البدء، وقد سودناه وجعلناه باهتاً.

اسمعوا اذن، صوت الله الذي يدوّي فيّ بقوة كفي وسيط وناقل وترجمان! لقد سمعنا الله يقول: «أنا هو نور العالم». لهذا السبب «تقدموا اليه واستنيروا ولا تخز وجوهكم»، لأنها تحمل ختم النور الحقيقي. ها هي الفرصة لإعادة الولادة. فنصبح سماويين. هنا هي الفرصة لإعادة الجبلة، فلنجد آدم الأول. لا نبقَ كما نحن، بل لنصر كما كنا قبلاً. النور ينير في الظلمة. فلنطرح الظلمة، ونَدْنُ الى النور، ونصبحْ نوراً كاملاً، وأبناء كاملين للنور.

أرأيتم جمال النهار؟ هل أدركتم قوة السر؟ ألم ترتفعوا الى ما فوق الأرض؟ ألم تستقروا فوقَ أنقياءَ عندما سمعتم صوتي ينطق بالكلمات الروحية؟ سترتفعون بعد أكثر الى فوق عندما تثمر فيكم كلماتي الثمار المرجوة!...

هل هذه التنقية هي من الناموس القديم رمزية تفيد من يُفضحون بها من حين الى آخر؟ هل هي عند الوثنيين قبل هذه الخدمة المقدسة؟ كل الاحتفالات وكل الأسرار التي يقوم بها اليونانيون هي ثرثرة وهراء، واختراعات شيطانية مظلمة، وابتكار عقل شرير مرتكز على الأساطير، والذين يعبدونها يخفون ما يعرفون من حقيقتها. ولو كانت حقيقة لما سميت أساطير. ولو كُشفت هذه الأسرار والأساطير لبانت بخزيها. واذا كانت كاذبة، فالاعجاب بها في غير محله. وما أجدر الذين يمثلونها أن يتنبهوا ولا يكشفوا بلا حياء هذه الادعاءات المتضادة حول شيء واحد، الأمر الذي يصبح لعبة أطفال في السوق، ولعبة رجال أشرار، لا رجال يجادلون أناساً عاقلين يسجدون للكلمة الحقيقية.

ليست أسرارنا من مولدات الطغاة الكريتيين ومن مرقاتهم. ولا هي أصداء أجواق الكوريتون المسلحة الذين يسترون لحن بكاء الله لئلا يسمعهم الأب الذي يكره أولاده انه لشيء مخيف أن يبكي من هو مثل الحجر!

ليست أسرارنا مثل أسرار خصيان فريجية، ولا آلات كوريفانتس ولا كل ما يفعله المهووسون بريا مضحين لوالدة الآلهة، ومتحملين كل شيء من أجل والدة آلهة كهذه. ان أسرارنا لا تسرق منا، ولا تتيه فيها الإلهة ديميترا، ولا تفرد الى مقاصيرها الزواني والزناة. واني ليعروني الخجل، وأنا أورد أمامكم هذا الحديث، وأعرض هذه القذارات التي تتم ليلاً في أسرار الوثنيين. ان اقسينا تعرف هذه الأسرار وكهانها يسكتون عنها.

وأسرارنا هذه ليست أسرار باخس هذا المولود بالأوجاع ناقصاً كما حصل مع الرأس سابقاً.

ليست إله امتاري ساماليس المعبود، ولا هي أسرار عشتاروت الفاسقة التي ولدت وعبدت على ما يقوله اليونانيون بالطريقة المخجلة.

ليست أسرارنا سفك دماء الغرباء يقوم به أهل طرواده، ولا الدماء التي كان يسفكها شبان سبارطه فوق الهيكل من أجسام المجلودين المتجلدين لإظهار البطولة الجنونية في تكريم الآلهة! هؤلاء أنفسهم كانوا يكرمون الانحلال الخلقي، ويحترمون الوقاحة.

أين هو محل بيلبس الذي قدم جسده للآلهة الجياع أثناء زيارتهم الخالية من كل انسانية؟ أين أشباح ايكاتيس القاتمة؟ وأين ألاعيب تروفونيس الخفية، وتجمجمه، ومطالعته للغيب وخزعبلات سنديانة دودوني، وسفسطات دلفي، وتخرصات مياه كاستاليي؟ ليست أسرارنا من معرفة المجوس السابقة، ولا من علم الفلك، ولا من علم الأنساب عند الكلدانيين، ولا حركة الأجرام السماوية.

أسرارنا ليست هي فسق التراكيين، ولا أسرار اورفيفس الذي أعجب به اليونانيون كثيراً لحكمته، ودفعوا اليه قيثارة ليجذب اليه الجميع. ولا قصاص ميترا العادل للمتكاري، ولا نواح أوزوريس التي عبدها المصريون. ولا سوء طالع ايزيس، ولا مزوود ابيس ذلك العجل الذي كان يتخم بسبب جهل منفيس، ولا التمجيد الذي كان المصريون يمجدون به النيل المعطي الثمار والسنابل.

واني سأتخلى عن ذكر التكريمات التي تقدم للزحافات والحيوانات المفترسة. سأغضي عن عرض قباحاتهم. فلكل من هذه الحيوانات مهرجان واحتفال خاص به.

وكلها تؤلف جوقاً من الخماقات يفتخر بها أصحابها ويعبدون لآلهة مصنوعة بالأيدي. وهؤلاء، كما قال الرسول بولس يحصدون نتاج ضلالهم، وسيحصدون بدل الكرامة قلة الكرامة، وهم خليقون بالإشفاق والاحتقار بسبب ضلالهم، لا بل يستحقون احتقاراً أكبر لعبادتهم الأشياء التافهة، ولعدم إحساسهم بالأشياء التي يعبدونها ويسجدون لها.

هذا ما يتلهى به صبيان اليونانيين مع الأبالسة التي صدرت منها حماقاتهم ليقودوا الكثيرين الى طرق ايمانية قذرة ومختلفة من نسج الخيال والوهم. وبعد أن طردتنا ابليس، بسبب شجرة الحياة، من الفردوس، هاجم عقلنا وفتح ابواب أهوائنا. لأن الأبالسة الذين على الأرض لم يقبلوا ان يصيروا جديرين بالأمور السماوية مع أنهم سقطوا من السماء الى الأرض، ولا أن يحدث أي انتقال وعودة الى المجد والطبائع الأولية. ولهذا أهينت صورة الله. وبما اننا لم نحاول ان نحافظ على الوصية، استسلمنا الى ارادة الضلال المطلقة. وانه لأمر غريب جداً أننا نحن الذين خلقنا برهاناً لصلاح الله فينا، ولكي نمجد ونسبح خالقنا المحسن الينا، ونتشبه به بكل طاقاتنا وقدرتنا، غريبٌ ان نصير نحن منبعاً لكل أنواع الشرور، وتربة تغتذي فيها هذه الشرور التي تدمر الانسان الداخلي. والأفظع ان نختلق آلهة، لا خوفاً من أن نخطىء، بل دفاعاً عن أهوائنا، مستنجدين بها لتبرير اعمالنا.

لقد اعطيت لنا النعمة لكي نصل الى الحقيقة، ونكون في خط المحبة الإلهية، بعد ان نغادر ضلال الوثنية، ونتجاوز الخليقة وكل ما هو ارضي، وما يخضع للزمن، ويتحرك في دائرته.

فلنبحث ونرَ ما يتعلق بالله والإلهيات. سنبدأ بما نراه الأفضل للبداية. والأفضل ان نبدأ بما حدده لنا سليمان الحكيم «بدء الحكمة مخافة الله». لا يجب أن ننتهي بالخوف ما دمنا قد ابتدأنا من الرؤية الفلسفية العقلية لاننا بالخوف نتقي ونتلطف ونرتفع الى الأعالي.

حيث يكون الخوف، يكون التمسك بالناموس. وبذلك تكون التنقية الجسدية من الغيوم التي تكثف النفس وتمنعها من رؤية الشعاع الالهي. وحيث تكون التنقية تكون الاستنارة الإلهية تحقيقاً لأشواق الذين يستهدفون الدنو منه تعالى، أي من العظائم الالهية.

لذا يجب على الانسان أن يطهر ذاته أولاً، ومن ثم يجب أن يصاحب الأنقياء لكي نستطيع التحديق في وجه بغير نقاب وحجاب، كما حدث للشعب الإسرائيلي، او نقول ما

قاله ما نواي ويا امرأة لقد رأينا الله فقمنا وهلكنا، أو أن نمشي فوق الأمواج، كما مشى بطرس، ولكن بغير شك وبغير خوف من الغرق، او أن نفقد البصر وتعمى كما عمي بولس الذي لقي من يضطهده قبل أن يتنقى من روح الاضطهاد، وبالأحرى قبل ان يشع النور العظيم أمامه، أو كقائد المئة الذي لم يقبل أن يدخل يسوع تحت سقف بيته خجلاً من عدم نقاوته وعدم استحقاقه، فامتدح يسوع خجله.

فليقبل كل واحد منا قبل أن يتنقى، ليقبل، وهو في حالة قائد المئة. فليتقدم، وان كان قصير القامة كزكا الذي صعد الى الجميزة بعد ان استعد وتجاوز نفسه. أجل ليقبل في داخله الى الكلمة وليسمع: «اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت». وليأخذ هذا الخلاص وليعطِ وليهب موزعاً كل ما كسبه على الفقراء والمساكين.

ان الكلمة المسيح مخيف بطبيعته لكل من هم بطبيعتهم غير مستحقين، لكنه، بمحبته للبشر، أهل الذين استعدوا بالتنقية، وطردوا الأرواح المادية الشريرة من نفوسهم، وزينوها بالمعرفة الصادقة، أهلهم ان يكونوا مواضع سكنى له.

عندما نحمي النفس بالضمانات الروحية واليقظة، ونعد القلب للتجليات الروحية العالية، ونهيء ذواتنا ونجعلها أرضاً مفلوحة، ونزرع بذار الصلاح والجودة، كما يقول سليمان الحكيم وداود وأرميا، تستنير فيها ذواتنا بنور المعرفة، ونبشر بحكمة الله المختبئة في أعماق السر، ونصير نوراً للآخرين، ونقدم ذواتنا خداماً للكلمة، ونجعلها مشابهة لله، ونستقبل الكلمة عندنا، بل قل اننا نحمله على أيدينا ونقدمه للآخرين.

هلمّ اذن، بعد أن نقينا النفوس بالكلمة لنتكلم عن معنى العيد وفلسفته وتفسيره. ولنعيّد مع محبي الأعياد ومحبي النفوس.

بما أن جوهر العيد وغايته هو في ان نتذكر الله، فلنفكر بالله، لا تعجبوا اذا تكلمت الآن عن أشياء كنت قد ذكرتها سابقاً. اني لن أقول الشيء بعينه، بل سأتكلم، بعدوني شعور الجزع في اللسان والأذن والعقل عندما أتكلم عن الله. واني أرجو أن تشعروا أنتم الشعور عينه، لأن هذا الشعور هو شعور حسن ومغبوط.

وعندما أذكر الله فليُنِرْكم نور واحد، وفي الوقت ذاته أنوار ثلاثة من حيث الخواص أي ثلاثة أقانيم، اذا شاء أحدكم أن يسمي الخواص أقانيم أو أشخاصاً (ولا خلاف في التسمية ما دامت هذه الكلمات تعني شيئاً واحداً).

الألوهة واحدة في الجوهر تنقسم بدون انفصال أو تجزئة، وتتحد وتبقى منقسمة لأن الألوهة واحدة في ثلاثة أقانيم، والثلاثة الأقانيم جوهر واحد في الألوهة. اننا سنتحاشى التطرف والخلاف غير جاعلين من الوحدة تشويشاً ومن الانقسام فصلاً وغربة حتى يبقى موقفنا بعيداً عن مذهب سيبليوس في مزج الأقانيم، ومذهب آريوس في التقسيم والتفريق بين الأقانيم، وكلا المذهبين غارقان في الضلال، وكلاهما في اعتبار واحد من المذهب وشر الاعتقاد. لأنه ما هو الموجب الى هذين المعتقدين الرديئين في المزج والتفريق؟

اننا نعتقد بإله واحد، الآب الذي منه كل شيء، ورب واحد يسوع المسيح الذي به كان كل شيء، وروح قدس واحد الذي فيه كل شيء. الأقانيم الثلاثة هي بلاهوت واحد.

ولكي يربط الله بين السماء والأرض، وتمتلأ الدنيا بمجد الله، خلق الانسان الذي اكرمه بالصورة الالهية. ولما سقط الانسان في الخطيئة وابتعد عن ربه بحسد الشيطان، لم يتغافل عنه ولم يهمله. ماذا حدث؟ وما هو التدبير في استدراك هذا السقوط؟ وما هو السر الرهيب العجيب الذي صار من أجلنا؟ تتجدد الطبيعة، والله يصير انساناً. ابن الله يرتضي أن يصير انساناً ويسمّى ابن الانسان! لا يعني هذا أنه تغير مما هو عليه، فهو غير متغير بل اتخذ ما لم يكنه (لانه محب للبشر) فيصير غير الموسوع موسوعاً، ويخاطبنا بالجسد كما هو من وراء الحجاب. لأن الطبيعة البشرية الخاضعة للفساد لا تستطيع ان تحتمل الوهيته اذا ظهرت. ولذلك اتحد الشيئان المتضادان: الولادة مع البتولية، والغير المتألم مع الألم، وغير المائت مع الجسد المائت! وبما أن مخترع الشر ظن أنه لا يغلب ما دام قد خدعنا، انخدع هو ذاته بظهور المجد بمهاجمته لآدم الجديد فاصطدم بالله! وهكذا خلّص آدم الجديد آدم القديم، وحل ديونة الجسد مميتاً الموت بالموت.

لقد سبق ان عيدنا الميلاد كما ينبغي، انا متقدم هذا الاحتفال وأنتم وكل من في العالم، وما يفوق العالم من الكائنات. لقد بادرنا جميعاً مع النجم، وسجدنا مع المجوس ومع الملائكة، واسترنا مع الرعاة، وقبلنا المولود في احضاننا مع سمعان الشيخ وسبحناه بتسبيحة حنة النبية كما يليق بالجميل والاحسان.

والآن نها ان للمسيح عملاً آخر وسراً آخر لا أستطيع معه أن ألجم فرحي. اني أحسُّ أن الله يملأ كياني، واني ماضٍ في اعلان البشارة المفرحة كيوحنا، وان كنت لست سابقاً المسيح كيوحنا. اني سأقوم بذلك كأني في صحراء المسيح.

سيتير يوحنا، فلنستتر نحن معه. المسيح يعتمد فلنعتمد معه. فلننزل معه الى النهر لنرتفع معه. المسيح يعتمد. أننتبه الى المعمودية وحدها أم الى كل الأشياء الأخرى؟ والعجائب الأخرى.

ترى ماذا يجب أن نتعلم؟ يجب أولاً أن ننقي نفوسنا. ثانياً أن نكون متواضعين. ثالثاً أن نبشر ونعلم عندما نكتمل روحياً وجسدياً. فالأمر الأول، أمر التنقية، ينبغي أن نتذكر به أولئك الذين يرغبون أن يعتمدوا، ولم يهيئوا بعد للمعمودية، وليست عندهم الضمانات لممارسة الفضيلة من أجل كسب الخلاص الثابت. لأنه، اذا كانت نعمة المعمودية تمنح مغفرة الخطايا السالفة، فيجب أن يبقى المرء في خط التدين والتزام الوصايا حتى لا يعود الى ما كان عليه. أما الأمر الثاني الذي هو التواضع وعدم الخجل، فنتذكر به لكي لا ينكر المعترفون شيئاً من خطاياهم أمام الكهنة. وأما الثالث فنتذكر به اولئك الذين يعتمدون على حماسهم واندفاعهم في التعليم مغتنمين كل الفرص حباً بالظهور.

المسيح يتنقى ويتطهر، وأنت يا هذا تحتقر التنقية ولا تهتم بها!. المسيح يتنقى على يد يوحنا، وانت تتمرّد على معلمك؟ تعمد المسيح عندما كان في الثلاثين حتى بدأ يتكلم ويبشر. اما أنت فقبل أن ينبت شعر وجهك انبريت لتعليم الشيوخ ومن هم اكبر منك سناً، أو بالأحرى تصورت بأنك تعلمهم على مثال دانيال النبي والقضاة والشباب الآخرين. والاستثناءات لا تشكل قانون الكنيسة كما ان سنونوة واحدة لا تأتي بالربيع، والخط الواحد ليس هندسة، والسفرة الواحدة لا تصنع بحاراً.

ان يوحنا يعمد، والمسيح يأتي ليعتمد وليقدس حتى المعمدان نفسه، ويدفن وسط الماء كل الإنسان القديم. وكما أن المسيح ذاته هو روح وجسد كذلك يعطي التنقية الروحية بالروح والماء. يوحنا يمتنع من تعميد المسيح، والمسيح يعزم ويُصر. «انا محتاج أن أعتمد منك» يقول السراج للشمس، والصوت للكلمة، والاشبين للعريس. يقول الفريد في مواليد النساء لبكر الخليقة كلها، الذي ارتكض في احشاء أمه للمسجود له في الحشا. «أنا محتاج لأن تعمدني». ثم أضاف «ومن أجلك» (لأنه كان يعرف انه سيعتمد معمودية الشهادة) أو كقول بطرس الذي قال للمسيح «اغسل لا رجلي فقط...» وأنت تأتي اليّ؟ ان هذا قول نبوي. وكما عرف أن بيلاطس سيُبلي بالمسيريا كما بُلي هيرودس قبله، وكذلك المسيح سيجري عليه ما عنى من قوله هو: «دع الآن» لأن مخطط الرب يفرض ذلك، والرب يعرف انه سيعمد المعمدان. ماذا تعني الصبغة؟ ماذا تعني النار؟ ماذا

تعني الفأس؟ ماذا يعني القطع والإلقاء في النار؟ أليست كل هذه تعني القطع الذي سيجريه الكلمة في فصل الشر عن الخير، والمؤمن عن غير المؤمن، وفي جعل الابن والابنة والعروس في ثورة ضد الأب والأم والحماة؟ وفي إقامة الأمور الجديدة مقابل الأمور القديمة الرمزية؟ ماذا يعني سَيْر الحذاء؟ السير الذي لا تستحق أن تحله أنت يا من تعمد المسيح، وقد عشت صوّاماً قواماً؟ أنت ايليا الجديد أسمى من كل الأنبياء، ما دمت قد رأيت من تنبأت عنه وهو الذي يربط العهد القديم بالجديد؟ ما هذا؟ انه لعسير جداً أن نفهم بالعقل مجيء المسيح الى الأرض ولبسه للجسد! بل انه لعسير جداً أن نقيم جزءاً بسيطاً من هذا السر، ليس بالنسبة الى الذين لا يزالون في تفكيرهم الجسدي، بل أيضاً وبالنسبة الى الذين يملكون حتى روح يوحنا.

ويصعد يسوع من الماء فيصعد معه العالم كله ويرى السماوات تنشق، وكان آدم قد أغلقها دونه ودون نسله من بعد، وأقيمت الحربة اللهيبية على باب الفردوس. وقد شهد الآب للألوهة: «هذا هو ابني الحبيب» الروح ظهر بهيئة حمامة (احتراماً للجسد) لأن الحمامة حملت قديماً بشارة انتهاء الطوفان. اذا قسْتَ يا عدا الألوهة حجماً، وظهر لك ان الروح القدس صغير لأنه ظهر بهيئة حمامة، فأنت أحمق وصغير النفس، ولا تزال أمام الأمور العظيمة صغيراً جداً. ان ملكوت السماوات شبه بحبة خردل. وترفع الشيطان فهي اكبر بكثير من عظمة يسوع، لأن الشيطان يسمى جبلاً عظيماً وملك العالم، أما المسيح فيسمى لؤلؤة وحبة وما الى ذلك.

بما أننا نعيّد اليوم ونحتفل بالمعمودية، فلا بد أن نرى سبيل من صار مثلنا الذي تألم وصلب. ولْنبحث عقلياً ما يتعلق بالفرق بين المعموديات حتى اذا تركنا هذا المكان تركناه أنقياء. ان موسى عمد بالماء رمزياً كما يرى بولس الرسول: البحر يرمز الى الماء والغمام الى الروح والمن هو خبز الحياة. والماء الذي شربه الشعب هو الشراب السماوي. ويوحنا عمد ليس بطريقة يهودية لأنه لم يعمد بالماء فقط (للاغتسال) بل عمد بمعمودية التوبة. لم يعمد روحياً لأنه لا يضيف القول: «بالماء والروح». أما يسوع فعمد بالروح. ذلك هو الكمال الأسمى.

واني أعرف أيضاً معمودية رابعة، هي معمودية الشهادة والدم التي اعتمد بها المسيح نفسه، وهي أرفع المعموديات وأكرمها وأشرفها، لأنها عاصمة ومعصومة لا تتدنس بالخطايا فيما بعد. بل وأعرف أيضاً معمودية خامسة هي معمودية الدموع، وهي شاقة جداً «وكنت أبل فراشي بدموعي» هي معمودية من قاحتْ جراحات خطاياه، ومن يحزن

على خطاياه ويسير مطرقاً كل النهار، هي معمودية توبة منسّى، وتواضع أهل نينوى وصومهم الذي ضمن لهم الغفران، هي معمودية من يصلي صلاة العشار فيحصّل الغفران بعكس الفريسي الذي لم يحصل على الغفران بسبب تكبره وتفاخره، ومعمودية الكنعانية بالتذلل والتواضع والرضا بنصيب الكلاب.

فانا اذن باعترافي أن الانسان حيوان سهل التحول وذو طبيعة متقلبة، أقبل الرب برغبة صادقة، وأسجد للمعطي، وأعطي للآخرين ما قدمته لي رحمة الله. انني اعترف أنني انسان ضعيف. أما أنت فماذا تقول وأية نواميس تسن أيها الفريسي النقي اسماً والقذر نفساً؟ يا من تتطهر، وأنت الضعيف، أمام الآخرين متباهياً معلناً نظريات نوفاتس؟. هلا ارتضيت بالتوبة؟ ألا تتأثر بالنحيب؟ ألا تسكب قطرة دمع؟ ليتك تعرف المسيح الذي جاء من أجل الخطاة لا من أجل الأبرار، الذي يريد رحمة اكثر مما يريد ذبيحة، ويغفر الخطايا سبعاً في سبعين! لم تضبط كبرياءك. ليتك تتحول الى تقاوة بدلاً من المجد الفارغ! ليتك تسقط في أحضان التوبة بدلاً من أحضان اليأس. أرني نقاوتك حتى احتمل كبرياءك. اخشى الآن، وأنت المجرح، أن تزيد جراحاً فوق جراح من الخطايا. الا تقبل أن تكون مثل داود الذي بوجه حافظ على النبوة والملك؟ ألا تقبل بموقف بطرس العظيم الذي خضع للضعف البشري إبان الآلام الخلاصية فجحد معلمه؟ لقد قبله المسيح بالدموع المرة ثم شفى النكران المثلث بالاعتراف المثلث عن السؤال المثلث؟ اذا لم تقبل هذه المواقف فذلك دليل على قساوة قلبك وضلالة عقلك! كيف ايها النوفاتي[١] لا تسمح للأرامل الفتيات ان يتزوجن، وأعمارهن تميل بهن الى الغوى والتطوح في الخطايا؟ ان بولس اجاز هذا، وانت تقيم نفسك معلماً لبولس، وكأنك مثله صعدت الى السماء الرابعة والى فردوس آخر، وكأنك مثله سمعت كلمات لا ينطق بها؟! وكأنك مثله اجتذبت الى المسيح اناساً أكثر مما اجتذب هو؟

فلنكرم اليوم معمودية المسيح، ولنعيد عيداً سعيداً بفرحنا روحياً بدلاً من أن نهتم بمعدتنا وشهواتنا. ما هي طريقة فرحنا؟ اغتسلوا حتى تتنقوا. اذا كنتم حمراً قرمزيين من الخطيئة فصيروا بيضاً كالثلج بالاغتسال والتوبة. حاولوا ان تتنقوا لأن الله لا يفرحه شيء بقدر ما تفرحه النقاوة وخلاص الانسان الذي تجسد من أجله، ومن أجله كتبت كل الكتب، واعطيت كل الأسرار لكي يصبح كوكباً مشعاً بالضياء للعالم المنظور واسام

(١) من اصحاب نوفاتس الساقط في بدعة متهورة متطرفة في التزمت والشدة.

الملائكة، وقوة محيية للآخرين، ولكي تتقدموا انتم كانوار كاملة امام النور الكبير، وان تدخلوا الى موكب النور التابع من النور الكبير، متخذين من النور الأبهى والأنقى، نور الثالوث الذي قبلتموه صبحاً من اصباح الألوهة الواحدة لشخص يسوع المسيح ربنا الذي يليق به المجد والسلطان الى جيل الأجيال، آمين.

خطبةٌ في الفصح

«سأنتصب واقفاً على مرقبيَّ يقول النبي حبقوق العجيب. وأنا سأقفُ معه اليوم، بما خولتني الروح من سلطان النظر والمعرفة. وسأراقب وأتعرف ما سينكشف وما سيقال لي. وقد وقفتُ وراقبتُ. واذا رجلٌ جالسٌ على سحاب السماء، وكان طويلاً جداً. وكانت هيئته كهيئة ملاك، وثيابه تشع بالنور كبرقٍ يشق وجه السماء. وقد رفع يده نحو المشارق وصرّخ بصوت عظيم (وكان صوته كصوت البوق وحوله أجنادٌ سماوية كثيفة) وكان يقول: «اليوم جاء الخلاص للعالم، العالم المنظور وغير المنظور. المسيح قام من بين الأموات فقوموا أنتم معه. المسيح عاد واستوى في مكانه، فعودوا أنتم معه. المسيح تحرر من ربط القبر، فتحرروا أنتم من ربط الخطيئة. أبواب الجحيم قد فتحت، والموت يضمحل. آدم القديم يتعطل والجديد يعود البنا. فاذا كانت خليقةٌ جديدةٌ بالمسيح تجددوا أنتم». هذا ما قاله ذلك الانسان، وباقي الجند السماويين كانوا يسبّحون كما حدث سابقاً في ولادة المسيح على الأرض. أجل كانوا يسبحون ويقولون «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام» وفقاً لما وعد به بني البشر، وأنا اليوم أردد وأقول لكم هذه الأقوال نفسها. ويا ليت لي صوتاً مثل أصواتهم الملائكية لأجهر بها وأسمع الأرض من أقصاها الى اقاصيها.

الفصح فصح الرب وايضاً أقول فصح الرب لإكرام الثالوث الأقدس. هذا عيد الأعياد وموسم المواسم فهو فوق الأعياد والمحافل جميعاً، وفضله على سائر الاعياد كفضل الشمس على سائر الكواكب. أجل، ولا نكران أن تعييدنا بالأمس في حمل المشاعل والأنوار، حملناها افراداً وجماعات. وقد انرنا الليل من حولنا وكانا رمز الى النور الكبير العظيم الذي أضاء العالم كله وعالم الملائكة الأعلى الملأ الثاني تالي القدرة الأزلية خالقة الجميع، وهي النور الذي لا يتقسم! أجل كان ذلك التعييد جميلاً في عيد الأنوار والمعموديات، ولكن اليوم هو أوفر بهاءً وأظهر سمةً. فاليوم نعيد القيامة نفسها التي لم تعد املاً ورجاءً بل واقعاً حياً، وموضوع فرح دائم في غلبتنا الموت. فقد اشتملت العالم بأسره. واذن فليعيد كل واحد بالطريقة التي يريدها، ولِيقدم هدية عيدية من الهدايا الروحية التي يرتضيها الله. واذا وجبت الهدايا على الناس، فهي اوجب على الملائكة وهم

الخليقة الروحية واعظم شهود مجد الله السماوي وفي متناولهم وطاقتهم كل نوع من انواع التسبيح والتمجيد. اما نحن فنقدم الكلمة وهي اجمل واثمن من كل الهدايا. نقدم الخطاب والكلمة للإله الكلمة على احساناته للبشر. فبالله نبدأ وعليه نتوكل في حسن البداية والنهاية. فطهروا اذن لي، عقولكم واذهانكم واصغوا اليّ بسمعكم وانتباهكم أنتم يا من تعتقدون بهذه الأمور الروحية (لأن الكلام انما هو عن الله وهو إلهيّ)، وساجعل خطابي كاملاً وموجزاً بحيث لا يعوز عليكم نقص في الاختصار، ولا ضجر وإملال بالتطويل والفضول.

الله كان دائماً ويكون وسيكون بل قل هو كائنٌ ويكون دائماً. لأن قولنا «كان» و«سيكون» هي مقاطع زمنية من طبيعتنا الزائلة. أما قولنا ان الله كائن موجودٌ وواجب الوجود فيعبر عن الأزلية، وبهذا التحديد سمّى الله ذاته عندما ظهر لموسى على الجبل. لأنه بهذا جمع وحفظ فيه كل الوجود، الوجود الذي لم يبتدئ ولا ينتهي أبداً، وذلك كأوقيانوس جوهر لا يحده حد ولا نهاية له، ويتجاوز كل معنى للزمان والطبيعة المادية، وانما يستشفه العقل بعض الاستشفاف. ومن هنا تظهر لنا صورة للحقيقة الإلهية فيها شحوب وبعض الوضوح، وهذه الصورة تختفي قبل أن ندركها لنمسك بها، وتضيع قبل ان نستطيع اللحاق بها بعقلنا، وهذه الصورة تلمع في عقلنا، وذلك عندما يكون هذا العقل نقياً صافياً، تلمع لمعان البرق سريعاً. ويبدو لي ان هذا هو من طبيعة الله وحكمته. فطبيعته تبدو وتلوح لنا لكي تجذبنا اليه بما يكون من إمكانات ادراكه وفهمه (وذلك لأن عدم ادراكه كليا فيه إحباط وفشل وخيبة امل من الدنو منه وفرقة بيننا وبينه) واحتجابه عنا يولد فينا من جهة ثانية الاعجاب به والتطلع اليه، وبالشوق والتطلع اليه يطهرنا وينقينا، وبالتنقية والتصفية يجعل عقولنا عقولاً متألهة. وعندئذٍ استطيع أن أقول اننا نتعاشر مع الألوهة معاشرة ذوي الدالة والأقرباء. فالألوهة هي اذن لا حد لها وشيء صعب فهمه. والشيء الوحيد المفهوم عن الألوهة هو أنها بغير حدود، هذا وعندما أقول الله أعني به الآب والابن والروح القدس والألوهة لا تسيل ولا تتوزع خارج هؤلاء الثلاثة فلا يستطاع القول بآلهة كثيرة، كما انها لا تتحدد، ضموراً، بأحد الثلاثة حتى لا نتهم بقبول الوهية فقيرة هزيلة. وفي هذا لا يقال اننا يهود بسبب توحد الإله. ولا يقال اننا يونانيون (وثنيون) بسبب تعدد الآلهة. القضايا اللاهوتية التي سبقنا الى بحثها وفحصها أحد اللاهوتيين بأسلوب أبرع ومقال أروع.

هذا ولكن لما لم يكن كافياً لدى الصلاح الالهي التحرك وحده في فكره وكماله، بل كان ينبغي ان يتوسع هذا الصلاح وان يمتد ليشمل احسان الله كثيرين، لان هذا يشكل

برهاناً على فيض الصلاح الالهي الغير المتناهي، ففي البدء ترى الله يخلق بفكره الملائكة والقوات السماوية. وهذه الفكرة تصير عملاً يتقند بالكلمة (المسيح) ويتكمل بالروح القدس. وهكذا أبدعت جمالات من عالم جديد جُعلوا خدّاماً وحاشية للجمال الإلهي الأول. وهذا العالم الجديد يجب ان تتصوره أرواحاً عقلية او نارية بطريقةٍ ما، بدون مادة وجسد، أو تتصورها طبيعة ثانية وبما هو شبيهٌ بما نذكر. ولكن أريد ان أقول فقط ان هذه الأرواح خلقت بغير شر، وانها تستطيع التحرك نحو الخير فقط لأنها موجودة حول العرش الإلهي وتستنير منه اولاً (لأن انارة الأرضيين تشكل انارةً ثانية).

وأراني مدفوعاً الى أن أتصور وأقول ان تلك الأرواح هي صعبة التحرك وليست بغير تحرك وإن كوكب الصبح (ايوسفوروس) الذي سمي هكذا بسبب بهائه والذي صار ظلمة فيما بعد بسبب كبريائه وكذلك القوات الذين ارسلوا برئاسته ابدعوا الشر وسقطوا مبتعدين عن الله، وجلبوا شرهم علينا ايضاً.

وهكذا اذن خُلق الملأ العقلي السماوي من فيض صلاح الله. وهكذا أيضاً صار بالإمكان لي أن أفحص الأمور الإلهية متاولاً ومعدداً، بموجز الكلام، أموراً الحية أخرى هامةً وعظيمة.

بما أن ما خلقه الله كان حسناً ابتكر الله خلقاً ثانياً مادياً ومرئياً (أعني هذا العالم هو المجموعة المنظومة للسماء والأرض وما بينهما، يستحق الإعجاب كل جزء من أجزاء هذه المنظومة اذا أخذ على حدة بكماله، ولكنها اكثر اعجاباً بسبب تناسبها وتوافقها واللياقة فيما بينها كل جزء يليق بأخيه حتى تشكل مجموعة واحدة متناسبة). وبفعل الله هذا ليدل على أنه بإمكانه أن يأتي الى الوجود بخليقة شبيهة به، ولكن ايضاً بخليقة مختلفة عنه كلياً. وان تكن الكائنات الروحية شبيهة بالألوهة نوعاً ما لأنها مدركة بالعقل، ولكنه يأتي بخلائق مختلفة كلياً تصير مدركةً بالإحساس، ومختلفة بالأكثر عن تلك التي هي بغير نفس وبغير حركة.

بقي العقل اذن والسديم المحسوس منفصلين الواحد عن الآخر باقيين كلٌ في طبيعته يحملان في داخلهما عظمة الكلمة الخالق، بقيا شهود تعظيم ومديح صامتين وناطقَين يجهران بعظمة الخليقة. لم يكن بعدُ خليط بين الاثنين ولا شيء من الوحدة بين هذين المخلوقين المتغايرين. وذلك دليل حكمة عالية ودليل تنوع الطبائع، كما انه لم يكن معروفاً بعد، كل غنى الصلاح الإلهي.

وبما ان مقاصد الله فينا كانت تهدف الى ما هو بالضبط خلق الانسان في وحدة العقل والمادة من المادة المنظورة والمادة الغير المنظورة.

وبعدما خلق الله من المادة الكائنة جسداً، وبعدما وضع فيه نفخته (التي حدد الكلمة ان تكون نفساً عقلية وصورة لله)، أقامه في الأرض عقل عالم آخر، بل قل كعالم كبير في صغره أو كملاك سماوي متسربل ثوباً بشرياً وجعله حارساً عن الطبيعة المنظورة وخادماً روحياً مُساراً للطبيعة الغير المنظورة ملكاً على موجودات الأرض، ومحكوماً بنفس الوقت بحكم السماء، أرضياً وسماوياً معاً، مؤقتاً يسيراً وخالداً، منظوراً ومعقولاً، كائناً في منزلة بين منزلتي العظمة والدعة بين الروح والجسد. الروح بالنعمة والجسد لإمكان النهوض، والسمو، بالواحد ليعيش ويمجد المحسن، وبالآخر يعاني ويحتمل، ليتذكر ويتربى بالشوق والوجد مستهدفاً الارتفاع الى العظمة في مراتبها. الانسان مقيم في الأرض ولكنه ينتقل الى عالم آخر وفي نهاية السر والمطاف يصير إلهاً من شوقه الى الإله والتألّه. لأنه، حسب رأيي، الى مثل هذه النتيجة يقودنا بهاء الحقيقة المعتدل، البهاء الذي يظهر لنا في الأرض، أعني في أن ترى وتستشعر بهاء الله وجلاله، بهاء من جعل مركّبنا من الروح والمادة والذي سيحل هذا المركّب ثم يعيد تركيبه على وجه أبهى وأمجد.

ثم ان الله وضع الإنسان في الفردوس (مهما يكن هذا الفردوس) بعد أن شرفه بالسلطة الذاتية، وجعله حارثاً للأغراس الخالدة، اي المعاني والأفكار الإلهية البسيط منها والكامل. كان عادياً بسبب البساطة والحياة الخالية من الخبث والغش، وبدون اي تغطية ومشكلة لأنه مثل هذا الانسان يجب ان يكون الكائن الأول. ويعطيه الوصية والناموس لاختبار سلطته الذاتية. والناموس هو الوصية من أي النبات والأشجار يجب ان يأكل، ومن أي منها لا ينبغي أن يأكل ولا يقترب. أباح له بالناموس ان يأكل من جميع شجر الجنة الا شجرة واحدة هي شجرة المعرفة، فترك جميع الاشجار وأكل من الشجرة الواحدة، التي لم تغرس من الأصل بقصد سيء، ولا مُنعت على آدم بسبب الغيرة والحسد (ألا لا تبلغنّ هذا الحد من الافتراء ألسنة أعداء الله، ولا تتمثلنّ بالحية) ولكن الشجرة كان من الحَسَن ان يذوقها أحد في وقت مناسب (لأن الشجرة، برأيي، كانت مرآة الله، او رؤية الله التي كان من الممكن ان يقترب او يدنو منها أولئك الذين بلغوا الكمال بالتدرُّب والمران). ولكن لم يكن من الحَسن لغير الخبيرين والشرهين أن يأكلوا، وهم غير قادرين من الأطعمة القاسية التي لا تنفعهم وهم محتاجون الى اللبن الحليب. ولكن بسبب حسد الشيطان وضعف حال المرأة التي خضعت لإغراء الحية والشيطان، نسيت الوصية (يا ويحٌ ضعفي لأنه ضعف الجسد الأول!) التي اعطيت لها، فطرد

الجدان الأولان تلقائياً من الفردوس ليسا ألبسة جلدية (لعلها سماكة اللحم القابل الزوال والمعاكس للحل الأول). وبأول نتائج هذه السقطة تدرك المرأة والرجل حال الخجل والحياء ويختفيان من وجه الله. يربح الانسان الأول من هذه النتيجة: أنه يصبح مائتاً، وأنه يقطع عليه طريق الخطيئة لكي لا يبقى الشر خالداً عادم الزوال. وهكذا يصير العقاب احساناً وخبرة بشرية. لأني انا اعتقد بأن الله يجازي هكذا مثل هذا الجزاء ويتساب تاريخ السقطة والعقاب بالخطايا والمآثم بأسباب مختلفة وازمنة مختلفة، في المسيرة مع الكلمة والناموس والأنبياء. والاحسانات، والتهديد والوعيد، والعقوبات والغرق والسيول، والحرائق، والحروب، والانتصارات والانكسارات، وعلامات السماء وعلامات في الريح والأرض والبحر، وتغيرات غير متوقعة في الهيئة البشرية في المدن والشعوب، وكل الأمور التي كان يمسح ويقصد بها زوال الشر. وبعد كل هذا تبقى الحاجة الى أدوية أقوى فعلاً لهذه الأمراض الرهيبة، من جرائم قتل الأخ والزنى والحنث (القسم بالباطل) والشهوات الشاذة والانحرافات الأخلاقية والتي اقواها جميعاً عبادة الأوثان، ونقل العبادة والسجود من الخالق الى المخلوق. وبما ان الانسان صار ذا حاجة الى معونة اكبر تعطى له من قبل الله. كان المعين هو الكلمة يسوع المسيح نفسه الأزلي الغير المنظور الذي لا يحد، البدء والآتي من البدء الاول، النور الآتي من النور. نبع الخلود ونبع الحياة، صورة الجمال الأول، الختم الذي لا يتغير، الصورة التي لا تشابهها صورة، بكلمة الآب ونطقه. أجل هذا يدخل في الصورة ذاتها ويلبس جسداً من أجل الجسد، ويأخذ نفساً روحية من أجل نفسي منقياً هكذا الشبه بالشبه شبهي انا بشبهه، ويصير في كل شيء، ما عدا الخطيئة انساناً كاملاً. يولد من العذراء التي كان قد قدس نفسها وجسدها قبلاً بالروح القدس (لأنه وجب أن تكرم الولادة ولكن ان تكرم قبلها البتولية)، ويبقى المسيح الهاً بعدما أخذ الطبيعة الانسانية، صائراً واحداً من العنصرين المتغايرين من الجسد والروح. يا لها من وحدة جديدة مستحقة الإعجاب والتعظيم! يا له من مركب الهي غريب عجيب! الغير المخلوق يخلق، والغير المحدود يصير محدوداً بواسطة النفس العقلية التي تتوسط بين الألوهة والطبيعة المادية طبيعة الجسد. والذي يوزع الغنى يصبح فقيراً! لأنه يصير فقيراً بحسب ما يأخذ جسدي على ذاته لأصبح أنا غنياً بألوهته. وذاك الذي هو بطبيعته مليء يفرغ ذاته من مجده لوقت محدود لأذوق انا الملء والسعة. يا لغنى الصلاح! يا للسر الذي يغمرني! أخذت الصورة الإلهية ولم أستطع أن أحافظ عليها. ويأخذ المسيح جسدي، ولكي يحفظ الصورة بل لكي يجعل جسدي خالداً. يأتي الى تقرب مني اغرب والزم من التقرب الأول، وبقدر ما أعطي أولاً الأفضل يأخذ الآن الأسوأ. وهذا ما هو أليق بالألوهة وبالله عند الذين يميزون تمييزاً رفيعاً.

ولكن ترى ماذا تعني لنا هذه الأمور؟ فقد يقول قائل ممن يحبون الاعياد كثيراً والمؤمنين المتحمسين: «استحث الجواد لكي نبلغ النهاية، «تكلّم لنا عن العيد وعمّا اجتمعنا من أجله اليوم». وهذا اذن ما أنا فاعله، وان أكنْ قد بدأت بذكر الأمور العالية التي حركتني الشوق اليها، واستطردت في مجرى الكلام. ولعله لم يكن عبثاً ومنكراً عند محبي العلم ومحبي الحسن ان نبحث بقليل من الكلام ما يتعلق بالتسمية للفصح ذاتها.

هذا الفصح، الفصح العظيم والمستحق الاعتبار والوقار يسمى عند العبرانيين فاسكا بحسب لغتهم. وهذه التسمية تعني العبور وتاريخيا تعني خروجهم من مصر ونزوحهم الى أرض كنعان، وتعني روحياً مسيرتهم وتقدمهم الروحي من أسفل الى أعلى صوب أرض الميعاد.

وهوذا الرسول الالهي بولس يبدي رأيه وموقفه من أن الناموس كله هو رمزٌ وظل للمستقبلات، ولكن ما سيكون مدركاً ومفهوماً لدى الذهنية الجديدة. ثم اننا نرى الله ذاته الذي ظهر قبل الرسول لموسى واعطاه الناموس حول كل هذه الرمزيات يحدد ما هو حولها من الرمز والمستقبل وأن لكل رسم معناه ومدلوله. فهو يقول لموسى: «اهتم ان تعمل كل شيء متطابقاً مع الرسم الذي رسمته لك على الجبل» مظهراً هذه الرسوم التي رآها موسى كأنها ظل مصوّر نوعاً ما، ورموزٌ عن أصل لم تظهر تلك الرموز بعد. وانا اعتقد انه ما من رسم رسم عبثاً ومن دون معنى وهدف ورمز لسبب معقول وطريقة جديدة، او دون أسلوب مناسب للتشريع الإلهي ولخدمة موسى ووظيفته، وان يكن من الصعب ان نجد العناصر الروحية عناصر الارتكاز عليها عندما نعمد الى فحصها بالتفصيل أعني كل ما هو من هذه الرموز متعلق بالمظلة ورموزه النحاس وما هو متعلق بفروقها وجمعها المادي، وباللاويين خدامها والقائمين عليها، وما هو متعلق بالذبائح والضحايا والتقادم والتطهير وسواها. فهذه الأمور تكون مفهومة عند أولئك الذين يشبهون بفضيلتهم موسى، وعند أولئك الذين يدانون موسى بثقافته وعمله. وهوذا الله يظهر على الجبل نفسه، يظهر للبشر متنزلاً هو نفسه من مكانه العالي من جهة، ومن جهة ودافعاً اياناً من جهة أخرى، من ذل التراب الى مجد السماء والرفعة. لأن الجسد المادي لم يكن ممكناً ان يرتفع الى الله من غير ان يعينه الله على ذلك وينير عقله. فاذن، وعندئذ لا يظهر ان الكل قد استحقوا أن يوجدوا في ذات الرتبة والمنزلة الواحد في رتبة والآخر في رتبة أخرى كل بحسب استحقاق تفاوته. وهناك قومٌ ممن هم مشابهون الوحوش في تصرفهم، وغير مستحقين المائدة الالهية، قد ابتعدوا كلياً عن مذاقة الأسرار. والشيء الوحيد الذي بقي لهم هو ان يستمعوا الى صوت الرب.

فلنشرحْ اذن، وعلّ الناموس المكتوب الذي يقودنا الى المسيح وهو ناموس الكلام عن الذبائح، كما أعتقد انا. يقول الناموس: يؤخذ من جهة اولى خروف بسبب براءته ولأنه كان يشكل لباس العُري القديم، خروف كامل، من جهة ثانية شبهاً بالألوهة الكاملة. يؤخذ حَمَلٌ ذكر لأنه يقدم لأجل آدم اول الجبلة، او لنعتبر بالأحرى ان الأقوى يقدم من اجل الأقوى ذاك الذي خضع أولاً للخطيئة، او خروف حولي ابن سنة أي كمثل شمس العدل واكليل السنة المبارك، حَمَلٌ تقيٌّ طاهر لا عيب فيه لأنه يشفي من الطعنات والنقائص ومن أدران الشر. لأنه قد حَمَل اوزارنا ورفع ضعفاتنا وخطايانا وليس بحاجة الى معالجة وتطهير لأنه جرب في كل شيء نظيرنا وبقي بلا خطيئة لأن الشيطان لم يستطع غلبته.

وماذا بعد؟ يقول الناموس المكتوب: يدخل في الشهر الأول بل بالأحرى في أول الشهور. وأيضاً يذكر العاشر من الشهر إما لأنه حساب اليهود فالعشرة هي المجموعة الكاملة من الأيام تشكل الكمال في الأرقام. ويُحفظ الى اليوم الخامس، ولعل ذلك لأن الضحية تقدس الحواس الخمس التي منها جاءت الزلة، وحول الحواس الخمس تدور رحى الحرب بين الحواس لأنها مراكز الخطيئة.

من هنا يأتي «الليل الشريف أو المقدس» ليل مقدس بعكس الليل العادي المقسم على ايام السنة في العمر الحاضر وبهذا الليل يضمحل الظلام الأول ويقبل الجميع الى النور وتتبدل البشاعة جمالاً. ومن هنا نبتعد عن مصر الخطيئة التي تطاردنا. نبتعد عن فرعون أعني الطاغية الغير المنظور، ومن عماله الفسقة، وننتقل الى العالم السماوي، ونتحرر من عمل الطين واللّبِن الآجرّ والخزف، أعني من رخاوة وهشاشة الجسم. ومن هنا يُضحّى الحمل ويختم بالدم الشريف العمل والكلمة اعني العادة والفعل اي اعتاب ابوابنا. واذا قلت الأبواب فانما أعني حركات وأفكار العقل التي تفتح وتغلق جيداً أمام النظريات. لأن النظرية تشكل نوعاً ما مقياس الكفاءة الروحية. ومن هنا ترمى مصر بالضربة الأخيرة والثقيلة والتي يستحقها فعلاً المضطهدون، وتنوح مصر وتنتحب على قتل أبكارها بسبب أفعالها وأفكارها (ذاك ما يُسمّى بالكتاب ويشير مثل بذار الكلدانيين الشرير، وأطفال بابل الذين تضرب بهم الصخرة ويهلكون، والكون يضج بصراخ وصياح المصريين. أما نحن فسيبتعد عنا الملاك المهلك بسبب ضحية الحمل وتكريس الأعتاب. ومن هنا يأتي ذكر اليوم السابع من الفطير (واليوم السابع يقابل ايام الخليقة) لكي لا نقع في فطير المصريين وتعليم الفريسيين المنحرفة.

وليتنحّ أولئك ما شاؤوا ان يتنحوا، أما نحن فسنأكل الحمل. سنأكله عند المساء لأن فصح المسيح صار في آخر الأزمان، ولأنه سلّم السر الى تلاميذه عند المساء حالاً ظلمة الخطيئة. لا يُطبخ الفصح طبخاً بل يحضر مشوياً شواءً على نارٍ مطهّرة خالياً من كل زوائد أرضية، وان يسعفنا فحمٌ جيد يشعله ذاك الذي أراد أن يلقي ناراً على الأرض، وما عليه لو اضطرمت، نار تحرق العادات الخبيثة. وأي جزء من أجزاء ذبيحة الكلمة فيه لحم يؤكل سنأكله ونستهلكه مع الأحشاء، أي النواحي المخفية من العقل، ونسلمه الى هضم روحي حتى الرأس والأكارع، أي الى حد ما يعدق بما نكر الألوهة من الأول، وحتى آخر الأفكار عن التجسد الإلهي.

لن نخرج من آثار الحمل شيئاً خارج بيوتنا، ولن نبقي على شيء الى اليوم التالي. ذلك لأن معظم أسرارنا لا ينبغي أن نظهرها الى غير المؤمنين. لا يعدُّ شيء من اللازم معه ذلك الليل، وليس أمراً محموداً تأجيل مناولة أولئك الذين صاروا مساهمي أسرارنا في المناولة الالهية. وكما أنه حسنٌ عند الله، وحبيبٌ اليه عدم إمساك الغضب والحقد الى آخر النهار، بل أن يزول قبل زوال الشمس كيفما تخذتُ التأجيل من أية وجهة نظر زمنية أو روحية (لأننا لا نضمن الحياة حتى غروب الشمس ونحن مصرون على حقدنا)، هكذا لا ينبغي أن يحفظ شيء من هذا الطعام كل مدى الليل الى اليوم التالي. وأي جزء فيه عظام لا يمكن أكله وهضمه أي لا يدرك فهمه، لا يجوز كسره مقسماً ومفهوماً حالبه بطريقة خاطئة وغير اكيدة. لأني استدرك القول عما ورد في الانجيل أن يسوع نفسه لم تُكسر ساقاه، مع ان الصالبين كانوا يريدون تعجيل موته بسبب السبت، ولكي لا يسحبوه ويجروه هنا وهناك، وحتى لا تعطى الأقداس للكلاب الذين يمزقون الكلمة، وكذلك ان لا تطرح الجواهر للخنازير، بل يجب ان تفنى العظام بالنار التي تحرق وتبيد المحرقات، ويحفظ أثرها لدى الروح الذي يفحص ويعرفُ كل شيء، ولا تهلك المقايا وتضيع المياه، ولا توزع شأنَ فصار موسى اذ قسّم رأس العجل على الشعب الإسرائيلي ليحكم بقساوة ذلك الشعب.

ويجدر بنا ألاّ نغفل ذكر الطريقة التي كان يؤكل بها الفصح وفقاً للناموس الذي اكتفى أن يخفي الروح وراء الحرف. هكذا سنستهلك المذبوح مقبلين عليه ومتهافتين ونأكله مع الخبز الفطير وأعشاب مرة ونتمنطق بزنار على أوساطنا، ونتنعل أحذيتنا، ونحمل عصا سفر متهيئين ونحمل كل ذلك بنشاط وعفة وحماس حتى لا يصيبنا ما

فُصاب لوطاً حين أخذ وصية يُمنع بها من التطلع الى الوراء، فلا نلتفت حولنا ولا نقف في كل البقعة المحظورة. ولنبلغ الجبل حتى لا تهلكنا النار العجيبة التي التهمت صادوم، وحتى لا ننقلب عمود ملح من جراء عودتنا الى الوراء والى ما هو أسوأ بسبب بطء السير والتحرك الخبيث وعدم الفرار من الخطيئة. لنأكل الحمل مع أعشاب وخضرة مرة، لأن الحياة مع الرب وارادته هي طريق صاعدة شاقة، وخصوصا مع من هم في بداية الطريق الى الرب التي تتطلب الابتعاد كثيراً جداً عن الشهوات. لأنه، وإن يكن النير هيناً والحمل خفيفاً كما نسمع من الإنجيل فلا ننكر ان الانجيل هو صعب ومتعب. لأنه في حين ان الناموس يحرم اقتراف الخطيئة فنحن ندين أنفسنا حتى على تسبيب الخطايا كما لو كنا قد اقترفناها فعلاً ونعيش في عذابها. والناموس يقول: «لا تزن» وأنت تأخذ الوصية على ان لا يكون عندك أية شهوة أو نزعة نحو الزنى حتى لا تدع فرصةً لفضول العين، وخبث النظرة أن يثير فيك الهوى. الناموس يقول: «لا تقتل» وانت تأخذ الوصية على انك لا ترد الضربة بمثلها، وليس هذا فقط بل ان تترك ذاتك لتصرف من يضربك. كم من حكمة وفلسفة في هذا الموقف دون ذاك! الناموس يقول: «لا تحلف باطلاً» وأنت تقول لا تحلف البتة، لأن القسم يولد الحنث بالقسم. الناموس يقول: «لا تجعل بيتك ملاصقاً لبيت آخر ولا حقلك لحقل آخر مضايقاً الفقير» وأنت تأخذ الوصيّة على أن تنفصل بطيبة خاطر وشهامة نفس ملكك الذي اكتسبته بعدل عن ملك الفقير وان تتعرّى من ملكك لاجل الفقراء لكي تحمل الصليب بسهولة وان تكون غنياً بالخيرات التي لا تظهر.

دَعْ وسط الحيوان مرتاحاً وبدون حزام لأنه لا يعقل ان يلجم الشهوات (ولا ازعم تلك ان الحيوانات تعرف تحديداً للاندفاعات الطبيعية) أما انت فيجب ان تلجم بلجام ونطاق أي بنطاق (زنار) التعقل رغباتك وشهواتك كما يقول الكتاب المقدس حيث يعبر بهذا الاسلوب ذيل الخجل والحياء من الهوى والشهوة وذلك لكي تأكل الفصح نقياً نظيفاً بعد ان تميت أعضاءك التي على الأرض، وبعد ان تتشبه بنطاق يوحنا بن القفر يوحنا السابق وكاروز الحقيقة العظيم.

وأعرف أيضاً نطاقاً ثانياً أعني الزنار العسكري الرجولي – الذي به سمي بعض السوريين حمستي النطاق أو ذوي النطاق الواحد. ذكره الكتاب عندما أورد القول على لسانه موجهاً الكلام الى أيوب قائلاً: «اشدد نطاقك على وسطك كرجل واجبني جواب الرجال». بهذا النطاق يتباهى داود الإلهي أنه تمنطق بقوة من الله، والذي يمثل الله لابساً

منطقاً بقوة أي متسلحاً ضد الكفرة، وقد يريد البعض أنه يقصد بهذا الزنار القوة التي تحيط به وتتشكل حوله دائرة مثل الثوب والله يلبس النور مثل الثوب. واني لألتمس وجه شبه عام بين وسط الجسم وبين الحقيقة. كيف يجب ان نفهم ما يقوله القديس بولس الرسول: «انهض اذاً بشجاعة بعد ان تشد على وسطك نطاق الحق» ألعله يريد ان يقول بان الجانب الروحي يلقف المرغوب به من الشهوات ولا يترك الإنسان ان ينجر وراء أمور أخرى؟ لأنه لا يريد من يحب شيئاً ما نزيهاً أن يتعلق بشهوات اخرى.

ويخلع نعليه ذاك الذي يقترب من الأرض المقدسة والتي تجلّى عليها الرب فليخلع النعلين كما فعل موسى على الجبل لكي لا يحمل شيئاً من غبار الموت ولا شيئاً يفصل بين الله والبشر. وكما تحدث في البعثة الرسولية التبشيرية أن ينفض الرسول الغبار العالق برجليه عندما يخرج من عند قوم لم يقبلوا كلامه في بشارة الانجيل، ولا يكون مع المبشر نقود ولا عصا إلا قميصاً فقط وان يسير بلا حذاء لكي تظهر كم هي جميلة اقدام المبشرين بالسلام وبكل شيء صالح. وذاك الذي يبتعد عن مصر وشؤون مصر فليتنعلْ نعلاً لكي يأمن على نفسه من العقارب والأفاعي التي في مصر والتي تعض الأعقاب والتي فرضنا بسحق رؤوسها بأرجلنا. أما بشأن العصا وما ترمز اليه فان رأيي فيها هو هذا. أراه من جهة واحدة عصا توكؤ واستناد، ومن جهة ثانية عصا هداية وتعليم يحطم الخراف الناطقة ويعيدها الى سواء السبيل والايمان القويم.

وأما ما قصد بالعصا على أنه استناد وتوكؤ فمعناه ان لا تركع وتخضع بعقلك للوهم والشك عندما تسمع بخبر الدم الخارج من جسد المسيح وبآلامه وموته، وان لا تسقط لا سمح الله، في الإلحاد من حماسك ومروءتك لأن تدافع عن الله. ولكن، وبدون خجل ولا تردد، كل الجسد واشرب الدم. لا تتشكك مطلقاً من أقوال الملحدين المغرضين، بل أقبلْ بدون اي شك الى زاد الحياة الابدية. انتصبْ بقوة مستنداً الى اقوى مستند غير متزعزع، ابق في شموخك واعتزازك وثبت اقدامك في هيكل الرب واستند الى الصخرة الغير المتزعزعة حتى لا تضطرب مسيرتك نحو الرب.

هكذا يحسن خروجك من أرض مصر من السجن الحديدي وان تهجر كثرة الآلهة التي كانت سائدة عبادتها هناك وبقيادة موسى والناموس المكتوب؟

سأورد لك شرحاً وتفسيراً ليس مني، اذا أنت فحصت الموضوع جيداً من جهة روحية. اقترض من المصريين آنية ذهبية وفضية وخذها معك في مسيرتك. خذ معك زاداً

وتسويتاً الأشياء الغريبة، أو فلتنقل متاعك وأشياءك الخاصة، لأنك كنت ذا رزق ومعاش من صنع الآجر والفخار. استعمل فنك وعملك لكي تكتفي حاجاتك واتركها كحق لك. فليكن اذا عرض ان تشقى وتتعذب هنا، مجاهداً كادحاً بالوحل والطين، اعني هذا الجسم المتسخ وباقياً مدناً غريبة متزعزعة يهلك ذكرها مع الدوي. ماذا اذن؟ تمضي بعدما عملت مجاناً وبدون أجر ومعاش؟ ماذا اذاً؟ ستترك للمصريين وخصومهم تلك التي اكتسبوها بغير حق، وسيستهلكونها ايضاً بطريقة أسوأ؟! ليست لهم. سرقوها وخطفوها من ذاك القائل: «لي الفضة ولي الذهب» وسأعطيه لمن أشاء. بالأمس كان في ملك أولئك لأنه هو الذي سمح بهذا. واليوم يأتي به السيد ويعطيك اياه لتستعمله جيداً في خلاص نفسك. فلنقتنِ أصدقاء من غنانا الغير العادل لكي يرد لنا احساننا بعد ان نموت وفي الديونة المقبلة.

اذا تشبهت براحيل أو بليا اي اذا كنت نفساً كبيرة وشبيهة بأنفس الأجداد من عهد بال، استرق الأوثان التي سيجدها عند ابيك لا لكي تحفظها، بل لكي تحطمها. واذا كنت اسرائيلياً حكيماً فطناً انقلها الى ارض الميعاد لكي يحزن ويتزعزع ذاك الذي اضطهدك، وان يفكر ويفهم انه اضطهدك ظلما وجعل عبداً له قوماً هم افضل منه. اذا أنت فعلت ذلك وذهبت من أرض مصر، فانا أعلم بأن سيقودك ويهديك عمود من نار وعمود من الضباب في الليل وفي النهار، والصحراء تتمهد امامك والبحر سينشق لك وفرعون سيغرق في داخله، وسيسقط عليك المن كالمطر من السماء، والصخر سينبع لك ماءً، وسيغلب العمالقة بين يديك (لا بسلاح بل بأيدي الصديقين المعادين لهم الذين يرمزون بنفس الوقت الى التضرع والغلبة وظفر الصليب الذي لا يُغلب). والنهر سيتوقف عن جريه، والشمس ستقف في مكانها، والقمر لا يعطي ضوءه، والأسوار ستنقلب بدون استعمال اية آلة حربية، وحشود من الملائكة سيسرعون امامكم ليفتحوا الطريق للإسرائيليين ويمنعوا الأجانب، وسيعطى لك كل ما يملك البلاد باختصار كما جاء في الكتاب، لكي لا أطيل الكلام. مثل هذا العيد نعيد اليوم. وبمثل هذه التحف يُحتفل مولد المسيح ذاك الذي ولد من أجلك وهذا هو مدفن ذاك الذي تألم من اجلنا. وهذا هو سر الفصح من أجلك ومن أجل فرحك. هذه الأمور رسمها الناموس القديم وأتمها المسيح الذي اذهب الحرف وأتم الروح وأعطانا امكان التمجد معه.

نستطيع اذن أن نفحص العمل والعقيدة التي اغفلها الكثيرون. اما أنا فأفحصها بتوسع كبير. ونتساءل قائلين: الى مَن ترى أعطي الدم الذي سفك من أجلنا؟ ولأي شيء

سفك الدم الغالي العظيم والمالئ الكون بعظمته دم الإله ورئيس الكهنة والضحية بنفس الوقت؟ لأننا نوجد تحت سلطة الخبيث الشرير الذي ابتاعنا بالخطيئة بمقابل التمتع بالشر والرذيلة. لقد سفك الدم من اجلنا نحن في مخطط الخلاص، ولكي يحررنا المسيح من عبودية الشيطان. والحية النحاسية تعلق ازاء الحيات التي تعض، ولكنها مثل الصورة المعاكسة لا صورة ذاك الذي تألم من أجلنا. لأن الحية تخلص أولئك الذين ينظرون اليها، لا لأنهم يؤمنون أنها حية وليست جماداً، بل لأنها ميتة وتميت معها القوات التي توجد تحت سلطتها بعدما بيدت هي نفسها وأُتيت بما تستحقه. فماذا يرثي الموت المائت بما يليق له من الرثاء سوى أن نقول: «أين غلبتك يا موت، وأين شوكتك وبأسك يا جحيم»... فقد جرحك الصليب جرحاً وغياً قاتلاً، فهو الصليب المعطي الحياة. فأنت ميت بدون نسمة ولا مقاومة، ولا فعل وان كنت قد علقت مثل الحية عالياً للتطهير. فلنكن نحن مشاركين الناموس ولكن بطريقة روحية وليس بالحرف. لنجعل عاصمتنا لا أورشليم الأرضية بل ام المدن السماوية، لا أورشليم التي يدوسها الجند الآن، بل تلك التي تمجدها الملائكة. فلا نضحي عجولاً عقلية ولا جداء «ذات حوافر واظلاف» ولكن فلنقدم كل يوم ضحية وبكل حركة من حركاتنا. فلنهتك الستر الأول من «حجبة الشهادة» ولنتقدم الى الثاني، ولنقترب من قدس الأقداس، بل فلنقدم أنفسنا ضحية ذبيحة للرب. فلنقبل كل شيء من أجله، فلنكرم دمه مع دمنا ولنصعد بهمة الى الصليب. فالمسامير هي حلوة وان تكن تسبب أوجاعاً وهية. ولأن يعيش الانسان مع المسيح ومن أجل المسيح خير له بكثير من ان يعيش حياة التنعم مع القرباء عن المسيح.

اذا كنت سمعان القيرواني فاحمل صليب المسيح واتبعه. اذا صلبت معه مثل اللص فاظهر نبلك واعرف الله. اذا كان المسيح قد جُعل بين لصين بسببك وبسبب خطيئتك، فلتكن انت مؤمنا أميناً لناموس المسيح. اسجد لذاك الذي رُفع من أجلك على الصليب. حوّل الشر الى خير واربحْ منه شيئاً. اشتر الخلاص بالموت. ادخل الى الفردوس مع يسوع لكي تعرف اية خيرات ابتعدت عنها؟! لاحظ وعاين الجمالات الموجودة هناك. ودع اللص الذي كان يجدف، دعه يموت في كفره. وان كنت يوسف الذي من الرامة فاطلب الصليب من ذاك الذي أمر أن يصلب. فليكن في حوزتك ذلك الجسد الذي يطهر العالم. واذا كنت نيقوديمس التقي ذاك الذي زاره ليلاً فادفنه مضمخاً بالطيب. واذا كنت مارياما او ماريا الثانية أو صالومي أو يوانّا فاذهب صباحاً باكراً لكي ترثيه بالمراثي. انظر اولاً الحجر مدحرجاً، ولعلك ترى الملائكة بل ولعلك ترى يسوع نفسه. قل له شيئاً واسمع صوته وأنتا بشيء مما يقول. واذا سمعته يقول «لا تقربيني» فابق

بعيداً واظهر احتراماً للكلمة ولا تحزن لأنه يعرف لمن يجب ان يظهر اولاً. ساعد حواء في النهوض من سقطتها لكي تسلم هي أولاً على المسيح وتعلنه لباقي التلاميذ. كن بطرساً او يوحنا وأسرع الى القبر راكضاً، ولا تكتفِ بالنظر، بل ادخل الى داخل القبر ولا تتشكك من موقف توما الذي كان غائباً. واذا خامرك الشك فتؤمن بواسطة التلاميذ فيما يقولونه لك. واذا هبط المسيح الى الجحيم فانزل معه، وتعرف الى الأسرار الموجودة هناك.

واذا صعد المسيح الى السموات فاصعد معه وكن مع الملائكة السابقين والمستقبلين. ساعد في ان ترفع الأبواب لاستقبال الآتي من الآلام بحفاوة. واجب السائلين: «من هو هذا ملك المجد» أجب انه السيد الرب ملك المجد، وانه الرب القوي والقدير، وأعطِ لكل سؤال مزدوج جواباً مزدوجاً. واذا حاروا في نبوة اشعياء التي المأساوية «من هو هذا الآتي من أدوم وحمرة ثيابه من صوفور، ومن اين اتته الحمرة الدموية وليس له جسد ولا دم وكأنه قادم من معصرة، واعرض لهم بهاء ثيابه من أثر الآلام واكتسب جسمه من البهاء والجمال ما لم يكن له مثيل».

ترى ماذا يقول لنا الحاقدون الناقدون في مرارة تهجمهم على الكلمة، المظلمون في وسط النور، البعيدون عن تربية العلم والفلسفة، الذين من اجلهم مات المسيح مجاناً، الخلائق الجاحدة، وصنائع الشر والشرير. أتتهجم يا هذا بسبب احسان الله اليك؟ أتقول انه بلا قدر لأنه متواضع؟ انت تهاجم الراعي الصالح الذي سعى في طلب الخروف الضال في التلال والجبال حيث ذبحت وضحيت للأوثان، واذ وجده حمله على منكبيه كما حمل الصليب، والذي بذل نفسه عن الخراف، وعاد به الى الحياة السماوية وأتى به الى مأمنه مع الخراف الآمنة، أبهذا تهاجم وتنتقد؟ أو أنت تتهجم على السيد لأنه أوقد المصباح من حساب جسده الخاص، وكنس البيت ساعياً في طلب الدرهم الضائع. وكنس البيت (رمز تطهير العالم من الخطيئة) والدرهم الضائع هي الصورة الملكية الالهية المشوهة بالآلام، ودعا اصدقاءه (قوات الملائكية) وأقاموا الفرح معاً، أعلى هذا تنتقد؟ والمصباح أيضاً رامز الى يوحنا سابق المسيح الذي يهيء له شعباً مستعداً مختاراً يهيء طريق الرب وينظفه امام الروح؟

لماذا يا هذا تحسب مخفوضاً من قدر الملك؟ ألأنه ائتزر بمنشفة وغسل ارجل التلاميذ وأظهر أفضل وسيلة للتواضع ورفعة الإنسان؟ ألأنه يتواضع لأجل النفس

المنحطة الى أسفل ليرفعها إلى أعلى ويحررها من الخطيئة؟ لماذا لا تأخذ عليه أنه يأكل مع العشارين ويدخل الى بيوتهم ويتخذ منهم تلاميذ لكي يغتنم غنيمة ما، أعني خلاص الخطأة؟ وتعتلك هذا يشبه الذين يعتلون على الطبيب لأنه ينحني فوق جراح المرضى محتملاً نتنها لكي يشفيها من الأمراض عجباً لهم! او كمن يدين انساناً رحيماً يهبط الى حفرة لكي ينتشل منها خروفاً ساقطاً ويرده الى صاحبه كما يوصي الناموس؟! عجباً لهم وتعساً!

أرسل رسولاً وأرسل ولكن كانسان (لأنه من طبيعتين) كان يشعر بالتعب والجوع والعطش ودفع على سنن الطبيعة، واذا هو أرسل وهو اله فماذا دهاك من هذا؟ تلك ارادة أبيه فيه، ارادة الآب الذي منه ولد، والذي يكرمه هذا الابن كأصل غير مبتدىء بزمن. هذه الإرادة يجب ان تعتبرها رسالة، ولا تتوهم بأن هذا الأمر انما هو مما لا يليق بالله؟ ألملك تستهينه لأنه أسلم الى اعدائه بل لأنه أسلم ذاته لأعدائه؟ أو انه اقامه الآب من الاموات وصعد السماء، أو أنه قام هو بذاته وصعد الى السماء، وسيأتي أيضاً. مقاصد تأتي من ارادة الآب، وهذه تأتي من قوة الابن. وانت اذن تعصور الأولى انتقاصاً والثانية تتجاهلها؟ وماذا أيضاً؟ انت تقر بآلامه ولكن لا تراها صادرة بارادته؟ وماذا يحصل الكلمة؟ يا له من تحمل عظيم! البعض يكرمونه كإله ويسمونه هكذا إلهاً والبعض الآخرون يحتقرونه مزدرى لأنه انسان وينفصل عن الإله.

ضدّ من من الفريقين يُستغضب اكثر؟ بل ولنقل مَن سيدام؟ الموحدين بين الثالوث او الفاصلين بينه؟ أولئك كان يجب ان يفصلوا وهؤلاء ان يوحدوا، هؤلاء بالعدد وأولئك باللاهوت. اليهود يعترون على المسيح المتجسد ويرفضونه قابعاً في السموات كأنه ليس قادراً على كل شيء أي على ان يأخذ جيداً، أعليهم بالصدقة أحوَّه سامرياً؟ ولن أورد الكلام على تالي الأمور. ولكن اعود فتفاجئني قائلاً: الا تعتقد بألوهة المسيح؟ هذا ما لم ينكره ولا الشياطين ايها الشقي، يا لشقاوتك انت أكفر من الشياطين وأجحد من اليهود! لقد كان افضل لك ان تكون مختوناً يهودياً وان تكون واقعاً تحت تأثير الشيطان، وليحمل هذا مني على محمل المزاح، ذلك افضل لك من ان يتملكك الكفر والإلحاد، وانت مع ذلك في صحتك وغير مختون. ولكني أرى ان حربنا ضد هؤلاء إما أن تتوقف اذا هم ارادوا فعلاً ان يعقلوا ويهتدوا حتى ولو كان ذلك في آخر لحظة، أو أن يؤجل اذا لم يريدوا التعقل ويبقوا سادرين في غيهم، وعلى كل حال نحن لن نهاب شيئاً من جانبهم وسنواصل الجهاد من اجل الثالوث الأقدس وحلبقنا الثالوث الأقدس نفسه.

أما الآن فنحن خاتمون مقالتنا كما يلي: لقد خلقنا الله لنحسن لأنفسنا ونعرف إحسانه الينا. وقد أحسن الينا بخلقتنا ووجودنا. وقد أعطي لنا فردوس النعيم لكي نسعد ونتنعم. أخذنا الوصية لكي نرتفع ونتمجد اذا نحن حرصنا عليها، لا في حساب الله بانه كان يعلم ماذا سيكون منا، ولكن لكي يمنحنا حريتنا وسلطتنا الذاتية. دهست جريتنا بما حسدتنا عليه. سقطنا متدهورين لأننا تعدينا الوصية. أجبرنا على الصيام لأننا لم نصمْ وقد هزمتنا وتغلبت علينا رغبة المذاق من شجرة المعرفة. كانت الوصية متزامنة معنا كواسطة تربية وتدريب للنفس والعقل لتجنب الملذة. تلقيناها طوعياً وبحركة الأخذ أخذناها لكي نتنعّم اذا نحن حفظناها. وقد وقعنا في الخسران لاننا لم نحفظها. وبعدئذ كانت لنا حاجة بتوسط إله تجسد ومات لكي نحيا، متنا معه لكي نتبرر ونتنقّى. قمنا معه بقيامته لأننا متنا معه وتمجدنا لأننا قمنا معه.

واذن فقد كانت عجائب وآيات ذلك العصر كثيرة. الله يصلب، والشمس تنكسف وتغطى بالظلمة ثم تعود وتشرق ثانية (لأنه وجب ان تعاني الخلائق مع الخالق) وينشق حجاب الهيكل، ويخرج من الجنب دمٌ وماء (الدم لأنه كان إنساناً والماء لأنه كان انساناً أعلى من الأناسي. والأرض تهتز، والصخور تتفطر، والموتى يقومون دلالةً على القيامة الأخيرة العامة. واما العلامات التي ظهرت في القبر وبعد الدفن فمن يستطيع ان يوفي الكلام عنها! لا شيء يعادل عجب خلاصي، قطرات قليلة من الدم تعيد خلقة العالم بأسره، وتصير كمثل لبن حليب ترضع وتغذي كل البشر، تربط بينهم برابطة الاخوة وتجمعهم الى جماعة واحدة.

وأخيراً وماذا أقول يا ايها الفصح الفصح الشريف المقدس الذي يقدس كل العالم! أناجيك كما لو كنتَ كائناً حياً وانساناً سوياً يسمع ويحفظ.

يا كلمة الله ايها النور والحياة والحكمة والقوة! اناجيك بهذا لأني بكل أسمائك أفرح يا مولد العقل العظيم وحركته وختمه! ايها الكلمة العقلية والانسان المتأله! يا من تجمع الكل الى كلمة قوتك! اما الآن فانا نقدم لك هذا الخطاب، فلا تعتبر أول وأفضل ثمار تقدمتنا بل لعله يكون وتكملة لها كلمة شكر ولكن بنفس الوقت كلمة تعزية للأخوة المؤمنين. هذا اذا اقتصرنا من ذكر المعاناة على ما كان من شرف الأنصاب والأتعاب التي عشناها معك حتى اليوم. ألا أوقف عنا طغيان الجسد المتحرك علينا (انك تنظر كم هو ثقيل هذا الطغيان وكم يغلب علينا ويركعنا الى الأرض!)، أوقفه او أجر حكمك أنت اذا

كان لا بد أن نتطهر ونتنقى من حكم هذا الجسد. وإذا وصلنا باستحقاق إلى الغاية المبتغاة، وصرنا مقبولين في الأخدار السماوية، سنقرب لك بصحة العزم ذبائح مقبولة على مذبحك المقدس. يا أيها الآب والابن والروح القدس، لأنه لك يجب كل مجد وإكرام وسلطان إلى دهر الداهرين آمين.

خطاب القديس غريغوريس النزينزي (اللاّهوتي)

امام آباء المجمع المسكوني الثاني

الأساقفة المئة والخمسين، والذي به استعفى من كرسي

القسطنطينية عام ٣٨١

كيف تظهر أعمالي أمامكم أيها الرعاة الزملاء الأحباء؟ ان أقدامكم التي قادتكم الى هنا، أيها المبشرون بالخير والسلام لأقدامٌ جميلة (١ ش ٥٢: ٧) نعم أنها لجميلةٌ عندي أنا الذي أتيتم إليه في الوقت الموآتي. وكأني بكم أتيتم لا لتهدوا الخروف الضال، بل لتزوروا الراعي الراحل عن رعيته؟ وكيف يبدو لكم رحيلي؟ وما هي ثمرته، أو بالحري ما هي ثمرة الروح الساكن فيّ والذي كنت أتحرك به دائماً، وهو لا يزال يتحرك فيّ؟ فهل تعرفون أنتم أعمالي وتستقصونها بأنفسكم، وتقدّرونها بتقديركم متساهلين في التقدير، أم يجب علي أن أقدم عنها تقريراً وبياناً كما يكون في شؤون الإدارات، والقيادات والحكومات، والعوائد وسائر الشؤون الإدارية؟ إني لا أخجل أن أكون محاكَماً ومحاكِماً بدوري، وبصحبة واحدة أفعل هذا وذاك. وما هذا، لعمري، إلا شريعة قديمة لأن بولس كان يكاشف الرسل بشارته، ويعرض بياناً عن عمله الرسولي، لا لينال منهم المديح (لأن الروح بعيد عن كل افتخار)، ولا ليثبت عمله، أو ليكمل الناقص، وعمله ثابت وكامل، وكما يوضح هو عن نفسه قائلاً: «وكان صعودي بمكاشفة، وأظهرت لهم البشارة التي أبشر بها بين الوثنيين، غير ان ذلك الكشف على انفراد مع ذوي الاعتبار لئلا أسعى، أو أكون قد سعيتُ باطلاً» (غلا ٢: ٢) ولأن «أرواحَ الأنبياء خاضعة للأنبياء» (١ كور ١٤: ٣٢) بتدبير الروح المشترِك والمقسِّم كل شيء على حال بديع. فإذا كان بولس يعرض بياناً على انفراد، وليس لكثيرين، فأنا إنما أعرضه جهاراً وللجميع. فلا تبهتوا لهذا، واني لمحتاج، أكثر من بولس الى الاستفادة من صراحة اللوم والتقصير فيما

لو استثنيتُ مغفِلاً شيئاً واجباً، (لئلا أسعى ويكون سعيي باطلاً). وإذن فالتبرر مُحالٌ بغير بيان الحال. وما هو تبرُّري يا ترى؟ فإن كنت متزكّياً فبرِّروه، وإن كنت كاذباً فلوموا وعنِّفوا، أنتم يا من أتلو خطابي أمامهم ولأجلهم. فأنتم تبريري وشهودي (بل أجسر أن أتخذ كلمة الرسول، وأقول: «وأكاليل فخري» (١ تس ٢:١٩).

إن هذه الرعية كانت، وقتاً ما، قليلة العدد والشأن. كانت بقية رعية بلا نظام ولا رعاية ولا حراسة، ولا مكان رعي، ولا حظيرة مسوَّرة، بل كانت تتيهُ (في المغاور وكهوف الأرض) (عبر ١١:٣٨). وكانت مبددةً ومشتتةً هنا وهناك. وكان كل واحد من أفرادها يتخذ رقيباً وراعياً، ويسعى في خلاص ذاته، بل لنقُلْ مع الكتاب ان هذه الرعية كانت أشبه بقطيع (تهلكه الأسود) (ار ٥٠:١٧) لو أهلكته العاصفة افوجاها، وشرده الليل الحالك، وهو ما يبكيه الأنبياء مشبهين به ويلات اسرائيل المستسلم للوثنيين (حز ٣٤:١٢) وقد بكينا نحن ما دامت أعمالنا مستحقة للدموع. لأننا في الواقع كنا مطرودين متبوقين مشتتين في كل جبل وأكمة كما يحدث حيث لا راعي، اجتازت الكنيسة محنةً شديدة اندفعت عليها الوحوش الضارية، فقد عشيتنا حلكة عزتة، ولفتنا بليلها الداجي، وظهرت أثقال بما لا يقاس، من الضربة المصرية التاسعة (خر ١٠:٢١) ولم نعد نقدر أن نرى بعضنا بعضاً تقريباً. (ان ابراهيم لم يعرفنا، واسرائيل لم يدر بنا، ولكن انت يا رب أبونا (اش ٦٣:١٦). فإذ ننظر اليك لا نعرف آخر سواك، واسمك ندعو (اشع ٢٦:١٣). ولذلك يقول أرميا (أنت بارٌّ يا رب عند محاجتي اياك فأتكلم معك عن الأحكام) (ار ١٢:١). (انا صرنا كما كنا منذ الابتداء حين لم تكن متسلطاً علينا) (اشع ٦٣:١٩). وأنت نسيت عهدك المقدس، وأغلقتَ دوننا مراحمك، ولذلك صرنا عاراً وشناراً لأجل حبيبك. اننا نحن عَبَدَة الثالوث المستسلمين بكليتنا للألوهية الكاملة، لا تنفصل البتة كالكفرة الجاريين لله، ومع هذا فقد أُسلمنا بلا ريب إلى أناس هم أشد ظلماً وشراً من جميع العائشين على الأرض، لأجل خطايانا الأخرى، ولأننا تصرفنا بما لا يليق بوصاياك، بل سرنا في أهوائنا فسقطنا في الهوان والعار.

وان أول من أهاننا انما هو نبوخذنصّر[١] الذي لما نكص عن شريعة المسيح ارتد وتمرّد على المسيح، وأبدلَ الكتب الشريفة بكتب كافرة، وضحايا أشد كفراً ونفاقاً، فلقد أكلني ودقني وغشيتني ظلمة ركيكة» (١ رم ٥١:٣٤) (فلا أنكص عن الكتاب ما دمت

(١) نبوخذنصر يعني به يوليانوس الجاحد.

أسكب الدموع. (ولولا أن الرب أعانني) لما أغمِدتْ بعدلٍ الى أيدي الفرس الكفرة (فيا لأحكام الله!)، ولما سُفك دمه، بحكمٍ عادل، لأجل الدم المسفوك ظلماً (ان حكم الله لم يفسح هنا مجالاً لطول الأناة والمزيد من الاحتمال والصبر، وإلاّ (لأوشكت نفسي ان تحل في الجحيم) (مز ٩٣:١٧).

أما الملك الثاني الشرير فهو فالانت (فالانتيانوس) الذي اذا اعتبرناه أقل قسوة من صاحبه يوليانوس، فانه، كان، وهو حامل اسم المسيح، مسيحاً دجالاً وعاراً للمسيحيين الذين كانوا يكرهون مجاراته على العمل ضد الله، وكانوا يلقون العذاب لغير مجد الله. لأنهم، وان كانوا بحسب الظاهر، لم يحتملوا الظلم، ولم يتزيّنوا باكليل الشهادة الجميل، ولكن الحقيقة كانت تحتجب في هذا أيضاً، لأنهم اذ كانوا يتعذبون كمسيحيين، كانوا يعاقبون كالكفار! وكم وكم من عذابٍ واضطهاد حل بهم من اجل تجنب الهرطقات!؟ (ان النار أكلتْ مراعي البرية) (يوئيل ١٩:١). (والذي تركه الدود أكله الجراد، والذي غادره الجراد، أكله الجُندُب)[1] (يوئيل ٤:١).

وما أورعَ وأشجعَ ما خاطب به الامبراطورَ فالانت إيلاريّس أسقفُ تيكانيا الذي أبدى في ذلك الزمان المضطرب أعظم شجاعة، وكابد أقسى اضطهاد!: «اني أجهر لك يا فلانت بما، لو كنت في عهد نيرون، لجهرتُ به له، أو في عهد داكيس ومكسيميانس لأسمعتُهما اياه! فأنت تحارب الله، وتثور ضد الكنيسة، وتضطهد القديسين، وتهدم الوعاظ المسيحيين، وتهدم الايمان، وهذا ما هو مشترك بينك وبين أولئك الملوك الطغاة! فأصغ الآن سمعك الى ما تنفرد به أنت على الخصوص: انك تتظاهر فقط بأنك مسيحي، ولكنك في الحقيقة عدو جديد للمسيح! أنت تلوّح بالايمان، وتشترع ما هو ضد الايمان! أنت تعطي الأسقفيات لأخصائك (الخازنين) وتبدل الأبرار بالأشرار، وتعتقل الكهنة في غياهب السجون، وتبث جنودك ترغيباً وترهيباً للكنيسة، وتعقد المجامع، وتضطر المسيحيين الغربيين الى الكفر. فانك اذ احتفظتهم في مكان واحد أرهبتهم بالتهديدات، وأوهنتهم بالجوع، وأمتّهم بالبرد، وجعلتهم يتحللون بالخزي والسخرية! اما اختلاف الشرقيين، فأنت تلطفه بمهارة اذ تتقرّب المداهنين وتستهيج المتحمسين. انت ترتكب كل قسوة ممكنة بدون اكراه للمعاندين موتاً مجيداً على يدك. أنت تأتي أموراً شيطانية لم نُسمع بها، وتضطهد بلا تعذيب. أنت يا أقسى القساة تثور علينا بضرر فادح

(١) الجُندُب: صغير الجراد.

مع رحمة قليلة. أنت ترجف بهدوء تحت اعمالك وتميت بملاطفة، وتأتي الزندقة والكفر بمظهر التدين، وتلاشي الايمان المسيحي لأنك واعظ للمسيح كذاب. لقد علمك هذا ابوك المسبب موت البشر: علمك أن تغلب بلا حرب، وأن تقتل بلا سيف، وأن تطارد بلا اهانة، وتبغض بلا شبهة. أجل علمك الكذب بتبصر، والاعتراف بلا ايمان، واللطف بلا عطف، وارتكاب ما تريد لاظهار ما تريد!

اجل ومن يستطيع أن يصف، على التمام، بلايا ذلك الزمان جميعها والعقوبة التي نزلت بنا، وقتلنا، والمحن والتطهير الناري!؟ ومع ذلك (دخلنا النار والماء) (مز ٦٥: ١٢) وبقدرة الله المخلص (خرجنا الى الراحة).

ولكن فلأعد بخطابي الى بدئه لأقول: ان هذا الحقل كان وقتاً ما قليلاً وفقيراً، ولم يكن ليدنو حقل الله الذي زرع العالم كله، ويزرعه ببذور التقوى الصالحة والتعليم الحسن. بل كان حقل مسكين يسير القنية وغير مكتفي. لم يكن يستلزم أهراء للخزن، وكأنه عشب السطوح الذي لم يملأ الحاصد كفه منه، ولا جامع الغمور غمره، ولا يستوجب عن ذاته بركة المارين (مز ١٢٨: ٨٦). هكذا كان حقلنا، وهكذا كان حصادنا! وهذه كانت هزالتنا وفاقتنا السالفة وكآبتنا!

ولكن المجدُ لله القدير وحده الذي يفقر ويغني، ويميت ويحيي (١ ملو ٢: ٧٦) وبمشيئته وحدها (يخلق كل شيء ويحوله) (عم ٥: ٨) يخلق النهار من الليل، والربيع من الشتاء، والسكون من العاصفة، ووابل الغيث من الجفاف. قد يفعل هذا كله بصلاة بار واحد مزمن الاضطهاد! جل جلاله (معيد المنخفضين) في العلى (وخافض الأشرار الى الأرض) (مز ١٤٦: ٦). جل جلاله هو الذي يكلم نفسه بهذه الكلمات: «قد رأيتُ قد رأيتُ ضر اسرائيل» (خر ٣: ٧). فلا يرعى، فيما بعد (بالعمل الشاق، بالطين والآجر، وسائر الخدمة في الحقل) (خر ١: ١٤). فإذ قال هذا افتقد، واذ افتقد أنقذ شعبه وأخرجه (بيد مقتدرة وساعد رفيع) (مز ١٣٥: ١٢) بيد مختاريه موسى وهرون. ثم ماذا وأية المعجزات اجترحتْ فبهرت الأسماع والأبصار. انها محفوظة في الكتب وفي أذهان الناس. (ولنقلْ بأوجز ما يمكن) لندع ذكر الحوادث والمعجزات في مسيرة الشعب وذيوع صيتها الكبير (يشو ٢: ١١) ولنتأمل فيما سبق قليلاً، كيف جاء يوسف وحده الى مصر، ثم خرج بعد زمان ستمائة ألف رجل (خر ١٢: ٣٧) فأي شيء أعجب من هذا؟ وهل عثر، يا ترى، على حكمة الله، وقدرة الله أن تجعل للأمر مخرجاً من ذات الحال التي لا مخرج لها؟ ان يوسف المبيع بيعاً يحوّل سكنى الشعوب،

وأرض الميعاد تقسّم بالقرعة، وإذا هذا الفرع الصغير يصير جفنةً مثمرة) (هو ١٠:١) تمتد حتى ما وراء الأنهار، وتنبسط حتى البحر، وتنفسح من حدود إلى أخرى، وتغطي الجبال بعظمة المجد، وتنيف على الأرز (مز ٧٩:١١، ١٢).

هكذا كانت هذه الرعية، فيما سلف، وهكذا هي الآن. فما أحسن اتساعها وتنظيمها! وإذا كانت، بعدُ غيرَ كاملة، فبالنمو التدريجي تبلغ الكمال، بلى، وبالتنبوء، أقول انها ستبلغه. هذا يلقنني اياه الروح القدس. فاذا كنت حائزاً شيئاً من الحيطة النبوية، فانا أستطيع أن أرى المستقبل، وأرجو الآتي بالماضي، وأستقصي الأمور بالقياس والمقارنة، كتلميذ للكلمة. لأن حال هذه الرعية السابق، وما صارت اليه الآن، أعجب بكثير في بلوغها ذروة المجد في الحال الحاضرة. ولنسمع قول الكتاب الكريم ماذا يقول: (فإذا طقطقتْ العظام التأمتْ إلى العظام بصوتٍ يحيي الموتى، وتركبت العظام على العظام، وأعطيت العظام اليابسة روح الحياة والليونة أيضاً (حز ٣٧:٧) واني لأعلم جيداً ان القيامة الشاملة والعامة آتية لا ريب فيها. (فلا يهالَ الزائغون) (مز ٦٥:٧) ولا يتوهّمنّ الظان وأحلام المستيقظين (مز ٧٢:٢٠) ولا يذهبُنّ مع مهب الريح، ومع أثر السفينة على الماء. (ولْيولْ يا صنوبر لأن الأرز سقط) (زكر ١١:٢). ألا فليعتبروا بما أصاب الآخرين، وليعلموا (أن البائس لا ينسى) (مز ٩:١٣). بادَ وانقرض أهل النفاق والضلال الذين تعدوا على الألوهة بالتجزئة والتخفيض، بادوا بقول حبقوق النبي (تحطيم في السخط رؤوس المقتدرين) (حبق ٣:١٤).

يظهر لي، ايها الاخوة والآباء، كأنني أسمع كلمات ذلك الذي يجمع المهشمين ويحمي المضطهدين: (وسّعي مكان خبائك، وبسطي أيضاً يميناً وشمالاً، ومكّني أوتادك، وابسطي سقف مضاربك ولا تمسكي) (١ شو ٥٤:٢، ٣) (انا أسلمتك ولذلك أنا لك في غضب يسير). أدهشتك (وبرحمة أبدية أمجدك) (عو ٨). هيّا لأحل مجدي، لأني أبارك المباركين وأحزن المحزونين (١ ملو ٢:٣٠) (هذه مدّخرة عندي) (تث ٣٢:٣٤) وهي شريعة المكافأة التي لا تتغيّر. أما أنت فقصيتي الجدران والألواح والحجارة المزخرفة، والمداخل والمخارج، ولمعتْ بالذهب وسطعت. فكنت تنثره تارة كالماء، وتارة تجمعه كالرمل غيرَ عارف ان الايمان تحت السماء المكشوفة أقوى من الكفر المتباهي، وان ثلاثة مجتمعين باسم الرب هم أوفر عدداً من ألوف كثيرة منكرة للألوهة! «الكثير في الحسّ، وليس الحسنُ في الكثير» أليس ابراهيم وحده أفضل من الكنعانيين جميعاً؟ ولوطٌ وحده أفضل من الصادوميين جميعاً، وموسى وحده أفضل من كل أهل مديَن؟

أليست الكرامة والأفضلية لهؤلاء الغرباء المتجولين في الأرض؟ لا عبرة بالعدد. ثم ماذا أيضاً؟ أليس الثلاثمئة رجل أصحاب جدعون اللاهقون الماء جاثين، أعز من الألوف المنهزمة؟ (قض ٧:٧، ٢١). ورجال بيت ابراهيم الذين كانوا أقل عدداً بكثير من أعدائهم هزموا بقلة عددهم الملك كدرلعومر وأصحابه الملوك الكثيرين وعشرات ألوف عساكرهم، وهم أنزرُ منهم عدداً؟ وكيف تفهم الكلمات التالية: «إني قد استبقيتُ لنفسي سبعة آلاف رجل لم يحنوا ركبةً للبعل». (رو ١١:٤). نحن نحصي عشرات الألوف، لكن الله يحصي المخلصين. نحن ننظر الى ما لا يُحصى، أما الله فيحصي الآنية المختارة (١ ع ١٥:٩) لأنه لا شيء شيءٌ في عيني الله مثل سناء الكلمة المطهرة، والنفس المكتملة بتعليم الحقيقة. نحن لا نستطيع أن نعطي الله شيئاً، أو نقدم له ما يليق بكرمه وجلاله، لأنه هو الذي خلق كل شيء، ومنه كل شيء، واليه كل شيء أجل لا نستطيع، حتى ولو جمع أحدٌ ما جميع غنى الأيادي البشرية وأتعابها معاً رغبةً منه في تكريمه تعالى، ولو قدمنا تسابيح تفوق الرمل عدداً (ألست أملأ السماء والأرض يقول الرب) (١ ر ٢٤:٢٣). ثم (أي بيت تبنون لي وأيُّ مقرٍ مكانُ راحتي) (١ ش ١:٦٦)؟

ولكن الرب يتقاضانا، عن تقصير التقادم المادية، تقدمةَ التقوى، وهي الثروة العامة للجميع، بقدر أفقر الناس أن يفوق بها أنبل بني البشر، لأن السخاء فيها انما يصدر عن غنى النفس بالشكران والسماح والرضى، لا عن الثراء. فاعلموا، يقول الرب أنكم لن تطأوا داري (بل تطأها أقدام المساكين) (١ش ٦:٢٦)، المساكين الذين عرفوني، أنا وكلمتي الوحيد والروح القدس معرفة صحيحة صادقة. فحتى مَ (ترثون جبلي المقدس) (١ش ٦:٢٦)؟ وحتى مَ يكون تابوت العهد عند الغرباء؟ تنعموا الآن أيضاً وقتاً قصيراً بميراث غريب، وخذوا ما أنتم فيه راغبون. وكما (تشاورتم أن تدفعوني عن موضعي وكرامتي) (مز ٦١:٥) كذلك (أنا أنفضكم) يقول الرب الضابط الكل (خرو ١٦:٥).

يخيّل اليّ أنني أسمع كيف يتكلم الرب، وأشعر كيف يحقق كلامه، وبعد ذلك كيف يدعو هذا الشعب الذي أصبح عديداً بعد أن كان زهيداً، ومجموعاً بعد ان كان متبدداً، ونشيطاً بعد أن كان خاملاً، بل قل انه محسود الآن بعد حال يرثى لها: (جوزوا في الأبواب جوزوا) (١ش ١٠:٦٢)، وتبسطوا على جحالكم[1]، فليس لكم ان تعذبوا دائماً، وأنتم الآن عائشون في الظل والراحة. وندعو لكم الملائكة الحراس (لأن لكل

(١) الجحال جمع حجلة وهي الفرشة المفروشة للراحة.

كنيسة، كما أعلم من يوحنا الانجيلي، ملاكاً خاصاً حارساً لها). ويقول الرب: (أعدوا الطريق لشعبي، وجمّعوا الحجارة التي على الطريق) (اش ٦٢: ١٠) لئلا يلقى شعبي تعويقاً وعقاباً في المسير الإلهي، وفي الدخول الآن الى الهياكل المصنوعة بالأيدي، وفيما بعد الى أورشليم العالية، وقدس القديسين هنالك، حيث يكون، على ما أعلم، للسائرين بشجاعة منتهى متاعب هذه الدنيا وجهادها أنتم (المدعوون قديسين) (١ كو ١: ٢) رو (١: ٧) (أنتم الرجال المنتخبون) (تيط ٢: ١٤) كهنوتاً ملوكياً (١ بط ٢: ٩)، ميراثاً للرب (مز ١٥: ٦) النهر الكامل من القطرة، الكوكب السماوي من الشرارة، الشجرة الوارفة الظلال ملجأ الطيور، من حبة الخردل.

ايها الرعاة الزملاء الأحباء! ها أنتذا والأولاد الذين أعطانيهم الله بهم أتحفكم وأقدمهم اليكم كفي مشهد أمام الملائكة والبشر، وليس في وسعي أن أتحفكم بأنفس من هذه التحفة لتعرفوا أننا لسنا فقراء، واننا كنا سائحين غرباء وعابري سبيل، بل لتعرفوا (أننا فقراء ولكننا نغني كثيرين) (٢ كور ٦: ١٠) واذا لم يكن لهذا أهمية ولا قيمة، فاني لأرغب أن أعرف ما هو الأهم والأجدر بالاهتمام؟ لأنه اذا كانت هذه المدينة، التي هي عينُ المسكونة، والأقدر ما على البر والبحر، عقدُ الشرق والغرب، مدرسةُ العالم في تعليم الايمان؛ واذا لم يكن من المهم أن تثبت هذه المدينة بالتعليم الصحيح وتقوى به، فهل من أمر آخر يا ترى يبدو أعظم وأوجب للاهتمام؟ واذا كان هذا السبْق والتقدم يستحق الفخار، فاسمحوا لي اذن أن أفخر به نوعاً ما لأن عملي هو ما تعاينون.

فانظروا، رعاكم الله، وأنعموا النظر فيمن حواليكم وأمامكم، انظروا اكليل المجد، شعبي هو اكليلي المضفور لي عوض (المستأجرين الافرائميين واكليل الكبراء) (اش ٢٨: ١) انظروا، رعاكم الله، إلى مجمع الكهنة المزينين بالشيب وباللمم[1] البيضاء، والى حسن نظام الشمامسة خدام الروح القدس، والى ورع القراء وتقواهم، والى حسن إصغاء الشعب وحبهم للتعلّم. انظروا الى الرجال والنساء، كلهم سواءٌ في شرف الفضيلة. انظروا الى محبي الحكمة والبسطاء من الرجال، جميعهم متفقهون فيما هو إلهيٌّ، والى الرؤساء والمرؤوسين، فجميعهم منتظمون هنا على أبدع ما يكون الانتظام، انظروا الى الجنود والنبلاء، والعملاء ومحبي العلم: كلهم مجاهدون في سبيل الله مع الوداعة

(١) اللمم: جمع لمّة وهي مقدم شعر الرأس أو شعر الرأس كله.

والرصانة، والمناضلين عن الروح القدس: جميعهم مكرمون للاجتماع السامي الذي لا يسيطر فيه الحرف القاتل، بل الروح الحي. انهم في الحقيقة علماء وخدام الكلمة الحقيقي. انظر، يا رعاك الله، الى الزوجات من النساء، فانهن أوثق ارتباطاً بالله منهن بالجسد. انظر الى غير المتزوجات والبتولات، فانهن تبتلن للرب ونذرن لله كل شيء: الصبا والنعيم ولذات الدنيا بين الأهل والأصحاب، كل هذه نذورٌ. انظر الى الفتيات والعجائز: انهن يجاهدن بشجاعة حتى الشيخوخة. انهن يجاهدن ويجتهدن في حسن أمل الخلود السعيد. (فما أقوله) لضفائري اكليلي، (لست أقوله بحسب الرب، بل كأنه عن غباء وجسارة في الافتخار) (كو ٢ ١١: ١٧)، ومع هذا أقول اني ساعدت في ذلك بعض المساعدة أي في بناء الفضيلة عند هؤلاء النساء المتعففات. فمنهن من هي صنيعُ وبناءُ كلامي، الكلام البعيد عن التمليق والتحبب، الكلام البالغ منتهى العفاف. ومنهنَّ من هي نسلٌ من روحي، وثمر منه على ما يمكن للروح أن يلد المنقطعين عن الجسد. ومكافأتي انما هي الاعتراف وحده بهذا. فاني لا ألتمس شيئاً آخر غير الاعتراف، ولأن الفضيلة يجب أن تكون منزهة من كل شيء، ولا تطلب ما هو لذاتها.

وبعدُ أتريدون أن أضيف ذكر ما هو فخرٌ لي وأجرٌ عندكم؟ انظروا وقدروا إن ألسنة المقاومين لنا صارت ألسنة عذبة بعد حدتها وملاطتها، وصار المتسلحون ضد الألوهية بالحرب يخرسون أمامي، ويضعون أيديهم على أفواههم. ذاك هو ثمر الروح (القدس) الملقن. وذاك هو ثمر عملي في الرب. لأني لا أعلم كجاهل، ولا أرد الأضداد وأهزمهم بالتعنيف والعصبية كما يفعل الآخرون الذين لا يبارزون التعليم نفسه، بل ينازلون المعلمين أصحاب التعليم أنفسهم، ويروحون يستترون بالتعنيف والتقريع ليستروا به ضعف حُججهم وبياناتهم، مثل حيوان البحر (الاخطبوط) الذي يقذف أمامه، كما يقال، سائلاً أسود ليفلت من الصياد، وليختبيء فيه اصطياداً لشيء ما.

واننا لنقدم برهاناً على جهادنا في المسيح بأننا نحارب ونقاوم على مثاله وقدوته، وهو مثال السلم والوداعة، فلا نسالم سلماً مضراً بتعليم الحقيقة، ولا نغضي في السلم عن أمور رديئة، وتراعي السلام مناضلين نضالاً شرعياً غير متجاوزين حدود الروح وقوانينه. هذا هو موقفي ونهجي. وأعتبره قانوناً لجميع بُناة النفوس، وناشري الكلمة. فلا عنف في فرقة، ولا خفض في صفح، بل فلتراع الحكمة في الكلام، ولا تتجاوز الحدود لا في هذا ولا في ذاك.

أما تعليمي ومُعترف ايماني فقد عرفتموه ايها الإخوة والآباء المكرمون، وبه حججتُ وأفحمتُ الخصوم وأقنعتهم به، والدليل الساطع على ذلك، ما كانت عليه رعايا هذه

المدينة وكنائسها، وما صارت في عهد هرطقاتها وانحرافاتها وأحزابها، وما صارت اليه الآن في رعية واحدة وراع واحد، وكنيسة واحدة. ولا أرى حاجة لإعادة وعرض هذا التعليم الذي نحن عليه جميعنا. واني لباق معكم زميلاً مجاهداً عن عقائدكم، واقف من قريب ومن بعيد، ضد أولئك الأعداء، ومن وراء الحقائق التي نؤمن بها كلنا بعون الله.

أما حل وجوه الصعوبات التي تصادف في الكتاب المقدس وتفسيرها فليس الآن وقته لأنه يتطلب وقتاً أوسع واهتماماً أعظم، لا خطاباً ملائماً للقصد كما في هذا المقام.

فهذا، أيها السادة الأماجد الأخيار، عملي وتبرير اقامتي الى هذا الوقت هنا. فاذا كان عملي يستحق المديح، فشكراً لله ولكم أنتم الذين دعوتموني. واني أعلم أن عملي، في مدة اقامتي في هذه الرعية، لا لوم فيه، ولا تثريب عليه. وتعلم أني ما طمعت في شيء ما من هذا الشعب! ولا ضاعفتُ، ولو يسيراً من مقتنياتي، كما أرى أمثلة ذلك عند الكثيرين! ولا أحزنتُ الكنيسة في أمر ما. اني ربما أحنقتُ بعضاً، وهم الذين ظنوا خطأ ووهماً اني أصوّب كلامي ضدهم. قال صموئيل العظيم في رده على بني اسرائيل حين طلبوا الملك، وأرادوا ان يبدلوا عهد القضاة بالملوك: «ثوراً ذبيحة لم آخذ من عندكم، ولا ضريبة أجراً على نفوسكم (والشاهد عليكم هو الرب) (١ ملو ١٢:٥) لم آخذ لا هذا ولا ذاك. واني، بعكس ذلك قد حفظت الكهنوت نقياً وبغير دنس. وان كنتُ قد شُغفتُ بالسلطة والمركز، أو بسحر العروش والكراسي، أو كنتُ قد غرني توطُّوُ أعتاب الملوك، فليكن المجد غريباً عني، وان حزت شيئاً منه فلأحرمْ من كل مجد في الآخرة.

وأخيراً، أيها الرعاة الإخوة الأحباء، اذا كانت لي غاية من خدمتي، واذا كان لي حق في المكافأة على أتعابي لكافئوني مشكورين جداً، بإعفائي وإراحتي من تعبي الطويل. أجلّوا رعوتكم، هذه الشيبة. أكرموا غربتي ورحلي. نصّبوا غيري في مكاني. نصّبوا مَنْ عنده الاستعداد للاضطهاد من أجلكم، ويداه طاهرتان، وكلامه متزن يقدر أن يرضيكم في كل شيء، ويحمل معكم الاهتمامات الكنسية، لأن الوقت الحاضر يستلزم، على الخصوص، أمثال هؤلاء الرعاة.

أما أنا فعاينوا جسدي ورفاتي وما أنا فيه من الوهن والضعف والانحلال، فان الزمن والأمراض والأتعاب جهدتني جهداً. فما لكم ولشيخ هزيل فانٍ يموت، كما يقال، كل يوم. لقد أعييتُ وملَلْتُ سامعاً شكاوى وداعتي. أعييتُ وتعبت مقاوماً كلام الحساد الأعداء والأخصاء. فبعضهم يقرع الصدر ويصرف الأسنان، وهو أقل خطراً لأن اتقاء العدو الظاهر غير عسير. وأما العدو الغير الظاهر فهو أضر وأفتك. فسواء حفظكم الله،

اني كنت ربانًا ومن أمهر الربابنة، وتوسطت بنا السفينة عصفًا وسيمًا هائجًا، ورقمت، بنفس الوقت، فتنة بين المبحرين، ولجّ بهم النزاع حتى خنقت اصواتهم جلبتهم وامواجَ البحر من حولهم، أفاستطيع أنا المتولي ادارة المركب والبحارة والمبحرين ان أقاوم البحر والمبحرين طويلاً، وأنقذ السفينة بلا كارثة من شر الزوبعة المزدوجة؟ من المفروض في هذه الحال، ان تجتمع الأيدي، ويتعاضد الجميع في جهد واحد، وقلب واحد لدرء الخطر، فكيف اذن لا يفرقون اذا عارض أحدهم الآخر؟ كيف لي أن أوفق بين هؤلاء الناس ومنهم المترعم والراعي، وأسعى بهم الى الوحدة، وبعضهم ضد بعض، يعاونهم الشعب الثائر والمطوّع به في التخاصم (كالأبنية المتجاورة والمتقاربة تتصدّع كلها وقت زلزال الأرض. أو كالمعدم وأهل البيت يتأذون من الوباء الواحد، لأن الداء يسري بسهولة من الواحد الى الآخر). وليس هذا الشعب فقط مصابًا بالخصام والانقسام، بل ان اقطارًا برمتها من المسكونة منجذبة بروح الخصام والنزاع، حتى ان الشرق والغرب قد انقسما جهتين متعارضتين. ويخشى من الامتداد الى كل الأقطار المتنوعة.

ثم ماذا وماذا؟ أستبقى طويلاً أيها الشعب عائشًا في كلمات: خاصتي وخاصتك، وعتيق وجديد، وأعلم أو أكثر روحانية، وأنبل أو أخسّ، وأغنى أو أفقر، اني لأخجل بشيخوختي، أنا المخلّص بالمسيح، وأخجل من كل هذا.

اني بتّ لا أطيق مباريكم وملاهيكم، وتلك النفقات الباهظة التي تنفقونها عليها، والاهتمامات التي تهتمون بها، وتستسلمون لها بحبًا رعناء وجهالة جهلاء. ونحن تارة نقرن الخيل وأخرى نبدلها، ونستسلم للحماس والهيجان، ونكاد نخوض الهواء مثلهم، ونرشق السماء بالغبار غضابًا منفعلين من أجل غيرنا. وقد نرضي ميلنا الذاتي الى الخصام، ونسيء تقدير المنافسة والمسابقة عند السابقين والمسبوقين، ونقيم أنفسنا قضاة على النتائج ظالمين. وعبة الخصام تقذف بنا على التوالي، من حال الى حال، تجري بنا هذه الأحوال مدًا وجزرًا، كما في بحر أقرب المجاج الموّاج.

اليوم نتحزب ونتعصب لهذه الجهة حسب تلقين زعمائنا، وغدًا تهب ريح معارضة تبدل الأهواء والاتجاهات. من المخجل لنا، أن نترك أعمالنا الخاصة ونشترك في لعب الأولاد وملاهيهم الصبيانية، ذلك ما لا يليق بالكبار والشيوخ. ان ما يستحبه غيري قد لا أستحبه أنا. واني لأنعم بما لا يستحسنه غيري. لذلك لا أستغرب لو وضعوا في يدي الجامعة[1]، وعدّني الكثيرون غناجية معتوهًا، كما حدث، على ما يقال، لأحد فلاسفة

(١) الجامعة هي القيد.

اليونان الذي انقلب حياته جنوناً لأنه كان يضحك من كل شيء، ولكل شيء لاعتباره أن ما يظهر لغيره مستلزماً الجد والرصانة، يكون عنده حرياً بالضحك. وما كنت لأندهش لو حُسِبتُ سكران كتلاميذ المسيح اذ طفقوا يتكلمون باللغات، فحسبهم الناس سكارى لجهلهم أن ذلك انما كان من فعل الروح القدس لا من المُسكر.

فتفحصوا عن ذنوبي: قيل ويقال (انك تولّيت الرئاسة والسياسة في الكنيسة زمناً طويلاً، والأحوال ملائمة، والملك الى جانبك يغار عليك (وهو أمر هام جداً) فنيمّ ترى التغير يا ترى؟ ولكن ليت شعري! فكم من مسيء إلينا وهو محسوب معنا؟[1] فأية مصائب لم نكابد بعد أن تغيرت الأمور على يد الآريوسيين ومالت الآريوسي؟ ألم نشهد الإهانات والتهديدات والطرد، والنهب وحجز الممتلكات وإحراق الكهنة على البحر؟ الم نرَ الهياكل ملطخة بدم القديسين، وبعضها تحول الى مقابر؟ الم نرَ الجمهور يذبح الكهنة والأساقفة بل البطاركة؟ ألم يكن التجول ممنوعاً في كل مكان على الأرثوذكسيين وحدهم؟ الم نضطهد نحن ايضاً؟ الم نحتمل الإساءات؟ ألم نطرد من الكنائس ومن البيوت ونلاحَق حتى في البراري ذاتها؟ ألم نصبر على جنون الشعب واهانات الولاة؟ وماذا كان بعد ذلك؟ نحن صرنا أقوياء، والمتعسفون الظالمون انهزموا! ولكن عامل الحسد ضدنا ظهر أفظع من هذا وأنفذ، والكنيسة تضطرب من داخلها. فاذا كنت أنا يونان المسبب هيجان البحر والعاصفة والمهدد بخطر الغرق، فاطرحوني في قلب اليم، ونجّوا السفينة من الغرق، وأعيدوا السكينة والراحة الى الكنيسة.

وماذا أيضاً فربما ألام (كما لامني البعض) على أنّ ليس عندي مائدة غنية بالمآكل، ولا ثياب لائقة بالرتبة، ولا أبهة الظهور، ولا عظمة الوجاهة والتصرف. اني لم أعلم أنه كان

---

(١) ان ما شق كثيراً على غريغوريوس وأزعجه حتى الاستقالة هو أولاً: تغيُّر الملك والسلطة وانقلابها ضد الكنيسة من يد فالنتيانوس حامي الايمان الى يد فالنس الآريوسي في الشرق. وقد صبر غريغوريوس بثبات مع باسيليوس على الشرور والاضطهادات التي كانت في أيامه. وقد وصفها في خطبة غريغوريوس (المقالة الثالثة والأربعون في مدح باسيليوس العظيم) وخصَّ بالذكر منها إطلاق أمراء العساكر الوثنيين ضد الكنائس والمذابح. فقد جمعوا في اخضاع الفرس والسكيتيين وسائر البرابرة، وتسلّحوا وأبلوا في محاربة الكنائس المسيحية.

وثانياً: حسد بعض الأرثوذكسيين لغريغوريوس وخاصة المصريين الذين عارضوا واستبدلوا وانتخبوا عوضاً عنه مكسيموس الفيلسوف المحتال (الكثير المجون والمزح) الذي رشاهم بالمال. واستمروا يتبطّرون من غريغوريوس ويهددون بشل الكنيسة. فاضطرّ غريغوريوس على الاستعفاء. وقبل المجمع والملك استقالته لأجل سلم الكنيسة. الناشر.

يلزمني أن أعاشر القناصل والولاة، وقادة العساكر والشُّرَط وكل أولئك الذين لا يدرون فيم يبذرون غناهم. كما لم أعلم أنه كان ينبغي لي أن أعيش الترف من مقتني المساكين، وأتخم معدتي بالمآكل. لم أعلم أنه يجب أن أركب العربات المذهبة، تجرها الجياد المُطَهَّمة، وأن ألاقي وأستقبل بخضوع وخشوع، وأنه يجب على الجميع أن يتباعدوا لي عن الطريق، ويتراجعوا أمامي ليشهدوا من بعيد موكبي وعظمتي!

فاذا كنتم قد استثقلتم شيئاً من هذا، فقد انقضى، واصفحوا لي عنه. نصِّبوا عليكم آخر يرضى الشعب عنه. أما أنا فأعيدوا لي حريتي وبريَّتي وربي. فإياه وحده سأرضي ببساطة الحياة. أجل سيشق عليَّ أن أحرم الخَطابة والمجامع والمحافل، والتصفيق المشجع، والأقارب والأصدقاء، والتكريم! يشق علي أن أفارق منظر المدينة البديع الشيِّق، ومظاهر العظمة والبهاء المدهش في كل مكان. على أنه يبقى أبهظ علي وأشقَّ منه التعكُّر والتلطخ بالفتن والاضطرابات التي تهز حياة خطباء غوغائيين، ولا يُراد رُعاة نفوس، بل حاشدو ممتلكات، ولا خدام للعلي أنقياء، بل قُهَراءُ وأنصارٌ أقوياء.

فماذا تقولون الآن؟ هل أقنعتُكم وحججتُكم بهذه الكلمات؟ أم تلزم لإقناعكم عبارات أخرى غيرها لعلها أقسى منها وأعنف في الرجاء. رجوتكم، أسعدوا إليَّ رحمةً إكراماً للثالوث الأقدس ذاته الذي أكرمه أنا وتكرمونه أنتم، لأجل رجائنا العام، ولأجل اتحاد هذا الشعب. أطلقوني بالصلوات. أعطوني خط إطلاق كما تعطي الملوك القساط والجنود. واذا حسُنَ عندكم فشهادةٌ صالحةٌ أتشرف بها. وإلا، فكما تريدون حتى يقضي الله بيننا. واذا قلتم: فمن تختار مكانك؟ أقول: ان الله يرى كبشاً للمحرقة (تك ٢٢:٨) ان الله يرى راعياً للرعاية كما رأى كبشاً للمحرقة عند ابراهيم. على أني أرجو رجاءً واحداً وهو أن يكون المختار الجديد من أصحاب روح الرسالة والغيرة، لا من المذعنين لكل واحد في كل شيء، بل من العارفين في كل الأحوال لماذا أقيم لأجل الخير الأعظم.

فالوداع الوداع يا أنستاسيا[١] يا من استمدت اسمها من الأرثوذكسية، لأنك صرت مركزاً للتعليم الذي كان مزدرىً حتى الآن! الوداع يا مكان الغلبة العامة، يا مكاناً جديداً بالقدرة الإلهية. يا من نصبنا فيه أولاً مظلة[٢] خُبِلتْ وتاهت أربعين سنة في البرية!

---

(١) هي أصلاً الكنيسة الصغيرة الوحيدة التي كانت للأرثوذكسيين. ثم بنى عليها الملوك وعدلوا وكبروا حتى صارت أم الكنائس في القسطنطينية. وسميت انستاسيا باسم القيامة.

(٢) المظلة يقصد بها خيمة الاجتماع في العهد القديم.

الوداع ايها الهيكل العظيم والمجيد يا من أخذت هذه العظمة من الكلمة المسيح. أيها الهيكل الضخم الذي كنت قبلاً يابوساً (بيدريابوس)[1] وأصبح بواسطتي أورشليم!

الوداع أيتها الهياكل الأخرى المضاهية بالجمال لأنستاسيا. أيتها الهياكل الرابطة أقسام المدينة المختلفة ببعضها. الهياكل المتعلقة بالمؤمنين، والتي لم أملأها أنا صاحب الأوعان الكثيرة، بل ملأتها النعمة الالهية معي أنا البائس اليائس! الوداع يا كنيسة جماعة الرسل الفائقة التمجيد، يا معلميّ في الجهاد، وان لم أظفر منه الا نادراً في سبيل شرفكم، وأنا حامل في الجسد ذلك الشيطان الذي أعطي لبولسكم (٢ كو ١٢: ٧) والذي بسببه أرحل الآن عنكم! الوداع أيها العرش والسدة الأسقفية العالية! يا علواً محسوداً ولا يخلو من الخطر. الوداع يا مجمع رؤساء الكهنة، والكهنة المكرمين بالوجاهة والوقار والسنين! الوداع يا جميع خدام الله لدى المائدة المقدسة. الوداع يا صفوف النذراء والقراء والمرتلين التراتيل الموقعة، والواقفين في الصلوات الليلية. الوداع يا نقاء العذارى، وحشمة النساء، وجماهير الأرامل واليتامى، وعيون المساكين المحدقة الى الله والينا! الوداع أيتها البيوت المحبة للغرباء، والمحبة للمسيح يا معاوني ضعفي! الوداع يا محبي مواعظي! الوداع أيها البحر في مدك وجزرك. الوداع أيتها الأقلام الكاتبة علناً وخفيةً، ويا هذا السور المنيع الذي يكاد لا يضبط المتزاحمين داخله.

الوداع أيها الملوك، ويا أيتها القصور الملكية، والخدام المتكيون وخدم القصور[2] الذين قد يكونون أمناء للملك (هذا ما لا أعلمه)، ولكنهم على الغالب غير أمناء لله. صفقوا بالأيادي، واصرخوا بصوتٍ عالٍ، وارفعوا خطيبكم! إن صمت اللسان لأجلكم، انما هو موقف عدائي ونبوي. وهو، وان كان لا يصمت أبداً فسوف يخاصم بالقلم والمداد، الأ اننا قد صمتنا في الوقت الحاضر. فالوداع ايها المدينة العظيمة والمحبة للمسيح! اني لأشهد بالحقيقة والواقع ان لك غيرةً لله عن معرفة (رو ١٠: ٢). ان الفراق يجعلني اكثر تساهلاً في حكمي. فيا ليتكم تتقدمون الى الحقيقة وتبدلون حياتكم وان تأخرتم في ذلك. كرّموا الله اكثر مما تعودتم! ان تغيير الحياة لا يجلب فيه قط، بل بالعكس فان الاستمرار في الشر مهلكة.

الوداع ايها الشرق والغرب، ويا عروش الشرق والغرب، وحيثما لو اتخطى آلري،

(١) بيدريابوس مكان هيكل سليمان.
(٢) الخدم هم الخصيان المتكيون الذين كانوا في الغالب واقعين في عدوى بدعتي أريوس ومكدونيوس.

واجعد اجعادي، ولو قليلون من الرؤساء. لأن المبتعدين عن الكراسي لهم الله وما يعد به من عروش عالية وأعلى بكثير من عروش العالم، وأسلمُ من الخطر.

الوداع أيتها الملائكة، يا حافظي هذه الكنيسة، ويا حافظيّ في حِلّي وارتحالي ما دامت أعمالي محفوظاً عليها في مخازن الله.

الوداعَ أيها الثالوث، يا غاية قصدي وتقي وزينتي! فليحفظك شعبي هذا في قلبه إيماناً وعقيدة ومودةً. ولتحفظه أنت أيها الثالوث القدوس لأنه خاصتي، وإن كانت حياتي تهيأ على طريقة أخرى. ورجائي ومُناي أن أبلغ دائماً أن شعبي يعظمك ويمجدك بالكلام والحياة والعمل.

أيها الأبناء تمسكوا بالعادات الشريفة والتقاليد التي تسلمناها.

نعمة ربنا يسوع المسيح معكم أجمعين.

فهرس المختارات

صفحة

١ – المقدمة ٥

٢ – الرسالة السلامية ٩

٣ – نبذة تاريخية مختصة بسيرة الملك يوليانس الجاحد ١٩

٤ – الخطاب الأول ضد يوليانس ٤٥

٥ – الخطاب الثاني ضد يوليانس ٧٥

٦ – اللاهوت واللاهوتي ٩٥

٧ – الى الفيلسوف آرن ١١١

٨ – على هامش الأنجيل ١٢١

٩ – الميلاد ١٣١

١٠ – المعمودية المقدسة ١٣٥

١١ – المعمودية والمعمّدون ١٤٧

١٢ – الظهور الإلهي ١٦٧

١٣ – خطبة في الفصح ١٧٧

١٤ – خطاب الاستعفاء من كرسي القسطنطينية ١٩٣

مطبعة النور
جان ابو ضاهر
١٩٩٤